
الإرهاب المتأسلم
لماذا ومتى وإلى أين ؟
الجزء الثاني
حسن البنا
الشيخ المسلح
قرآن كريم
د. رفعت السعيد
قطاع الثقافة

الإرهاب المتأسلم
جماعة الإخوان المسلمين
الجزء الثانى

حسن البنا
الشيخ المسلح

د.
رفعت السعيد

فهرس

أقوال هادية

● يحـمل هذا العلم من كل خلف عـدول ينفـون عنه تحريف الغالين، وإنتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.

حديث شريف.

● إذا حاصـرت أهل حـصن فـأرادوك أن تنزلهم علي حكم الله، فلا تنزلهم علي حكم الله، ولكن أنزلهم علي حكمك أنت، فـإنك لا تدري أتصـيب حكم الله فـيهم أم لا.

من وصية الرسول (صلي الله عليه وسلم) إلى بريده.

● الإيمان قيدُ الفتك، لا يفتك مؤمن.

حديث شريف

● والله لا أقاتل حتى تأتوني بسيف له عينان وشفتان فيقول هذا مؤمن وهذا كافر.

سعد بن أبي وقاص

إرشادات كاشفة

● ويل لمن لا يعرف قلعة خصمه من الداخل.

حكمة إغريقية

● إن الاغتيال باسم السماء كان وسيظل دوما لعبة من ألعاب السياسة.

فولتير

● إذا عطس حسن البنا في القاهرة ، قال له أتباعه في أسوان يرحمكم الله يا مولانا.

العلامة أبو الحسن الندوي

● من أفتي الناس بمجرد النقل من الكتب متجاهلا إختلاف الناس في أعرافهم وعوائدهم وأزمنتهم وأحوالهم فقد ضلَّ وأضلَّ وكانت جنايته علي الدين.

الإمام ابن القيم

● الإخوان لا يعتذرون.

الأستاذ مهدي عاكف

مرشد الإخوان

لماذا ؟

نكاد أن نتفق جميعاً علي أن التعرف علي حقيقة وحاضر ومستقبل جماعة ما يتطلب بالضرورة إلقاء نظرة علي عمق البئر الذي نبعت منه.

ومن ثم كانت دراسة تاريخ الجماعات السياسية مقدمة ضرورية لأي فحص علمي لمقولاتها الحاضرة ولمستقبلها.

ويكون لازماً أيضا التعرف علي مدي قدرة هذه الجماعة علي تجديد نفسها.. أقول نفسها أي ذاتها وليس مجرد التظاهر بمظهر جديد أو إتخاذ زيا جديدا. وهو تجديد يعني النظر الانتقادي إلى مفردات تاريخ الجيل القديم من مؤسسي الجماعة وإلى ممارسات الجماعة ومناهجها وأفكارها.

هذا كله يتبدي ضروري لدي النظر العلمي لحاضر ومستقبل أية جماعة سياسية. لكن هذه الضرورة تتضاعف إذ نحاول دراسة جماعة الإخوان المسلمين. فلأنها تقوم علي أساس

فرضية خاطئة. وهي أنها «جماعة المسلمين» وليست مجرد «جماعة من المسلمين» ، ولأنها في نظر أصحابها «جماعة الحق»..«أهل الحل والعقد» ولأنها تقدس مؤسسها الاستاذ حسن البنا، تقدسه سيرة وأفعالاً، وتعتبره بل وتعتبر نفسها كجماعة.. «معصومة». فإن كل ما كان من ماضيها هو في رأيها صحيح، ويجب أن يستعاد كما كان.

فالجماعة لا تخطئ، وحتي عندما تكون أفعالهم الطائشة سبباً في كارثة علي مجمل الجماعة، فإن هذه الأفعال تبقي لازمة، فقط يتعين «الأخذ بالأسباب». أما النتائج المريرة التي ترتبت علي هذه الأفعال فهي مجرد «إبتلاء» و«إمتحان » لإيمانهم.

والأخذ بالأسباب يعني عندهم مجرد توخي الحذر ، لكن تكرار ما كان في الماضي يبقي بالنسبة للجماعة أملا وحلماً وأمنية.

ويبقي الأستاذ حسن البنا بالنسبة لأجيال الإخوان المتتابعة شيئاً مقدساً، وتلتف حول إسمه هالات من المسميات «المرشد المؤسس» «الرجل النوراني» «القائد الإسلامي» «الإمام الشهيد» «الرجل القرآنى» «داعية الحق»..إلخ.

وقد يكون من حق «الإخوان» أن يحترموا مؤسس جماعتهم فهذا حقهم وربما يكون واجبهم، لكن الاحترام الحقيقي لا يمنع في اعتقادنا من إمعان النظر الانتقادي في تراث الشيخ فكراً وممارسة.

غير أنهم ومن حيث المبدأ لا يعتقدوا أن مرشدهم المؤسس قد أخطأ في أي شئ، لسبب بسيط وهو أن نورانيته تقيه من أن يخطئ في أي شئ. ولهذا السبب فإنهم يعيشون في وهم استعادة الماضي وتكراره، وليس تصويبه. وإن حاولوا «التقية» فإنهم يحاولون التحلي بثياب قد تبدو جديدة لكنها تبقي ويبقون هم في إسار الماضي. وماضيهم في اعتقادنا ملئ بالأخطاء.

ولهذا فإنهم يعودون دوماً لإرتكاب ذات الأخطاء، أو حتي ذات الخطايا، يفعلونها وهم يستشعرون زهو استعادة الماضي الذهبي، وزهو التماثل مع المرشد المؤسس.

وكمثال قريب نجد أن الجماعة بزعامتها الجديدة تعود لترتكب ذات الأخطاء القديمة، وإن وضعتها في آنية جديدة، فكما مد المرشد المؤسس أصابعه لتتلامس مع الإنجليز، وأحيانا مع الألمان يأتي المرشد العام الحالي ليمد كلتا يديه للأمريكيين محاولاً أن يستقوي بهم.

إنه ذات الخطأ، بل ذات الخطيئة، أن تمد يديك لأعداء الوطن، وأعداء الأمة، ومتى..؟ في وقت تمارس فيه الإدارة الأمريكية كل أشكال الضغوط والعدوان، بل والامتهان لشعوبنا وأوطاننا.

إنها ذات اللعبة القديمة التي تصور الأستاذ المرشد الأول إنه يتقنها، لعبة اللعب بأوراق عدة ومتناقضة ليتلاعب بالجميع ضد الجميع مستفيداً من الجميع، لكن الحصاد كان مريراً. فإذ تصور الأستاذ البنا أنه يتلاعب بالجميع، اكتشف وفي اللحظة الحاسمة أن الجميع يتلاعبون به. وكانت محنة قاسية له وللجماعة، انتهت باغتياله برصاصات تخيل هو لوقت طويل أنها رصاصات صديقه، وأنه قادر علي أن يوجهها ضد خصومه.

وبرغم مرارة الدرس تعود الجماعة لترتكب ذات الخطأ.

وليس في الأمر غموض، فطالما ظلت «الجماعة» مصممة علي عدم النظر الانتقادي لتاريخها، وخاصة لأخطائها الكبيرة والفادحة، ستظل ساحتها وأفكارها وممارساتها قابلة لأن تحتضن وأن تعزز ذات الأخطاء.

فالتبجيل، أو لنقل التقديس المبالغ فيه الذي يتعلق به أعضاء جماعة الإخوان لذكري شيخهم، يجعل كل ما فعله مقدساً وصائباً في نظر الأجيال المتعاقبة من عضوية الجماعة. ولأن الشيخ البنا قد ارتكب – في اعتقادنا– أخطاء كثيرة عبر مسيرته السياسية الممتدة من ٢٨ – ١٩٤٩ – وهذا أمر طبيعي وإنساني، فمن قال إنه معصوم؟– فإن مثل هذه الأخطاء ، بل وأفدح منها مؤهلة للتكرار.

ومن هنا تأتي قيمة هذه الدراسة فلعلها تمنحنا القدرة ونحن نعود إلى مسيرة المرشد الأول لأن نتعرف علي عمق البئر الذي يروي منه الإخوان الحاليون أخطاءهم. لعلهم يقنعون أنفسهم بضرورة مراجعة ما كان.

فهم مصممون وبرغم كل ما كان، علي إعتبار أن ما كان في الماضي، كل ما كان في الماضي وكأنه تراث مقدس .

هكذا تبدو صورة «الإمام المرشد» مكتملة الأبعاد التاريخية، ويزداد إغراؤها للباحث لأنها تقدم لنا «الأصل» الذي يحاول الآتون بعده تكراره، دون أن يمتلكوا ذات الكفاءة أو ذات «الكاريزما».

* * *

ذات يوم سألني صحفي : متي يخون السياسي فكرته؟ وقلت : «يخونها عندما يقدسها،

فالأفكار نبت إنساني ولأنه إنساني لا يمكن أن يكون مطلق الصحة».

كان هذا في الماضي ويكون في الحاضر وسيكون في المستقبل . وقد حرص أئمة المسلمين وفقهائهم علي تأكيد ذلك.

● الإمام الشافعي قال: رأينا صواب يحتمل الخطأ ورأي غيرنا خطأ يحتمل الصواب.

● والإمام أبو حنيفة قال: رأينا هذا هو أفضل ما قدرنا عليه فمن جاءنا بأفضل منه قبلناه.

● الإمام مالك قال : كل إنسان يؤخذ من كلامه ويرد، ماعدا صاحب هذا القبر. وأشار إلى قبر الرسول (صلي الله عليه وسلم).

ونقارن ذلك بمقولة للأستاذ حسن البنا، إذ تحدث عن منهج جماعة الإخوان فقال «علي كل مسلم أن يعتقد أن هذا المنهج كله من الإسلام، وأن كل نقص منه نقص من الفكرة الإسلامية الصحيحة»(١)

ونتأمل المفردات المطلقة «كل مسلم» «كله من الإسلام» «كل نقص منه».

ونتأمل المعني والمغزي فالأستاذ البنا يري أن برنامج جماعته كله من الإسلام، فإن رأي إنسان، أو تجاسر أن يزعم، بأن ثمة خطأ في هذا البرنامج فإنه يعني أن الإسلام خطأ. وإن تجاسر بالقول بأن فيه نقصاً فإن ذلك يعني نقص الفكرة الإسلامية الصحيحة.

وكل تلاميذ الأستاذ البنا يفعلونها، فالأستاذ صالح عشماوي يقول « إن أي اضطهاد للإخوان هو إضطهاد للدين ذاته»(٢)

كذلك فعلها الأستاذ «عبد القادر عودة» إذ ألقت الحكومة القبض علي عدد من الإخوان في عام ١٩٥٤ فوقف صائحا في أحد المظاهرات «الإسلام سجين».

والأمر ليس مجرد حماساً لفظياً، ولو كان كذلك لهان الأمر ولما أعرناه اهتماماً. ذلك أن الجماعة ظلت علي الدوام ولم تزل مصممة علي الخلط بين «الدين المطلق الصحة وبين اجتهادها هي وهو اجتهاد إنساني ومن ثم فهو نسبي الصحة».

وإذ تعتبر الجماعة أن منهاجها هو الدين ذاته فإن كل من يري فيه عيبا يكون معاديا للإسلام ذاته، وكل من ينتقده يكون منتقداً للإسلام ذاته. ثم يكون ما يترتب علي ذلك من مفردات ومن اتهامات.

وينسون أو يتناسون قول علي بن ابي طالب «القرآن لا ينطق وهو مكتوب، وإنما ينطق به

البشر، وهو حمال أوجه»٠

فللقرآن عندهم فهم واحد، ووجه واحد٠٠ هو ما يقولون هم به، وعلي الجميع الخضوع لما يقولون٠٠ وإلا تم إخضاعهم٠

وللإخوان تقاليد قديمة في إخضاع المخالف، وهي تقاليد تبدأ بإتهامه بالمروق والإلحاد وتنتهي باستخدام القوة٠

والأمر لا خفاء فيه٠٠ فهكذا كان دوماً٠

وعندما إصدرت الجماعة مجلة النذير (١٣٥٨هـ -٣٦-١٩٣٧م) حرص الشيخ «عبد الرحمن الساعاتي» والد المرشد العام الأستاذ حسن البنا علي كتابه افتتاحية صاعقة قال فيها «استعدوا يا جنود، وليأخذ كل منكم أهبته، ويعد سلاحه، ولا يلتفت منكم أحد، وامضوا إلى حيث تؤمرون» ثم «خذوا هذه الأمة برفق فما أحوجها إلى العناية والتدليل، وصفوا لها الدواء فكم علي ضفاف النيل من قلب مريض وجسم عليل، واعكفوا علي إعداده في صيدليتكم، ولتقم علي إعطائه فرقة الإنقاذ منكم، فإذا الأمة أبت فأوثقوا يديها بالقيود واثقلوا ظهرها بالحديد، وجرعوها الدواء بالقوة، وإن وجدتم في جسمها عضواً خبيثاً فاقطعوه، أو سرطانا خطيراً فأزيلوه»٠

«استعدوا يا جنود فكثير من أبناء هذا الشعب في آذانهم وقر وفي عيونهم عمي»(٣)

هل تحتاج هذه العبارة إلى تفسير؟

- خذوا هذه الأمة برفق فما أحوجها إلى التدليل٠

- صفوا لها الدواء - أعدوه في صيدليتكم- تعطيه فرقة الإنقاذ منكم، أي هم وحدهم يصفون الدواء ويصنعونه ويجرعونه للأمة٠

فإن الأمة أبت؟، لا شئ سوي العنف٠

وهكذا نرى أن الخلط بين الدين والرأي الإنساني في أمور الدين هو أمر مخيف لأنه الخطوة الأولى في طريق العنف والإرهاب٠

وهو جوهر الإستعلاء بأفكارهم وممارساتهم واعتبارهم المصدر الوحيد للصحة المطلقة٠

ولأن أفكارهم هي وحدها ٠ كانت، وتكون، وستكون صحيح الإسلام فأنها دوما صحيحة٠ ولا يمكن مراجعتها. بل ويتعين إستعادتها٠

وهذا ما يجعل كتابتنا عن الاستاذ حسن البنا أمراً ضرورياً لأنها تقدم مرآة للماضي

والحاضر معا، بل والمستقبل أيضا.

فإذا قرأنا في وثيقة إخوانية كانت ضمن مضبوطات قضية سيارة الجيب، وهي مضبوطات تخص الجهاز السري للجماعة، وهو بالمناسبة الجهاز الحاكم في الجماعة والذي أفرز لها أكثر من مرشد عام (الأستاذ مصطفي مشهور والأستاذ مهدي عاكف). وإذا قرأنا عبارات اذهلت وكيل النائب العام المحقق في القضية المستشار عصام حسونه (وزير العدل فيما بعد) إذ تحدثت بصراحة مستندة إلى سرية الجهاز وسرية الوثيقة لتقول «إن القتل الذي يعتبر جريمة في الأحوال العادية، يفقد صفته هذه ويصبح فرضاً واجباً علي الإنسان، إذا استعمل كوسيلة لتأييد الدعوة، وإن من يناوئ الجماعة أو يحاول إخفات صوتها مهدر دمه وقاتله مثاب علي فعله»(٤)

إلى كل هذا التراث الفكري يستند الأستاذ مهدي عاكف المرشد العام الحالي إذ يصرح لمجلة المصور في كبرياء لا يعرفه الإسلام «الإخوان لا يعتذرون». وهي تساوي «أن الإخوان لا يخطئون» و« الإخوان معصومون» وما هذا بصحيح ولو بأقل قدر.

وإذا كان الأمر متعلقاً بهم وحدهم فهذا شأنهم. لكنه متعلق بالرؤية الصحيحة للإسلام، ومتعلق بالوطن وأمنه وإستقراره.

لأنهم إذ يرفضون أية رؤية نقدية لماضيهم ، فإنهم وفي نفس الوقت يمجدون ذلك الماضي ويسعون لإستعادته.

وتكون إستعادته وبالا علي الوطن كله.

وحتي في موضوع مثل «الجهاز السري الإرهابي» الذي شكله الأستاذ البنا وهو في أوج تقربه من الملك فاروق ونظامه.. فإنهم يكررون دون ملل أنه إنما أنشئ للمحاربة في فلسطين. وطبعا لا يمكن لأحد منهم أن يجيبك هل لم يزل هذا الجهاز موجوداً حتي الآن أم لا؟

وقد ظل الأستاذ البنا، وكذلك أتباعه حتي اليوم- يبررون وجود الجهاز السري المسلح بالاستعداد للحرب في فلسطين، لكن الأستاذ أحمد عادل كمال وهو واحد من قادة ومؤسسي الجهاز السري يكشف لنا في مذكراته عن حقيقة هذا الأمر، وكيف أن موضوع فلسطين كان مجرد غطاء يتخفي خلفه هذا النشاط الإرهابي.

فهو يروى قصة القبض علي مجموعة من أعضاء الجهاز السري في جبل المقطم خلال قيامهم بالتدريب علي استعمال الأسلحة.. «وكان الترتيب أن يكون هناك بصفة دائمة وفي مكان مرتفع من يراقب المجال بمنظار مكبر، وكانت هناك حفر معدة ليوضع بها كل السلاح والذخيرة

ويردم عليها لدي أول إشارة من الأخ الذي يتولي المراقبة وبهذا تبقي المجموعة في حالة معسكر عادي وليس معها ممنوعات، واستمر ذهاب المجموعات وعودتها بمعدل مرتين كل يوم ولمدة طويلة، ولكن حدث في ١٩ يناير ١٩٤٨ أن أغفل الأخ المكلف بالمراقبة أداء واجبه ففاجأ البوليس هذه المجموعة بسلاحها وقنابلها. وحتي حالة كهذه كان هناك إعداد لمواجهتها فقد أجاب إخواننا المقبوض عليهم بأنهم متطوعون لقضية فلسطين، وهي إجابة كان متفق عليها مسبقاً» (أي إنهم لم يكونوا يتدربون لحساب القضية الفلسطينية فلو كانوا كذلك لما احتاج الأمر إلى اتفاق مسبق علي هذه الإجابة)..

ثم تكتمل أدوات الخديعة إذ يقول «وفي نفس الوقت كانت هناك إستمارات تحرر بأسمائهم في مركز التطوع للقضية الفلسطينية، (أي إنهم لم يكونوا متطوعين فعلا).

ثم.. «كما تم الاتصال بالحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين وشرحنا له الأمر علي حقيقته وكان متجاوباً معنا تماماً فأقر في التحقيق بأن المقبوض عليهم متطوعون من أجل فلسطين، وأن السلاح سلاح الهيئة العربية العليا، وبذلك أفرج عن الإخوان، وسلم السلاح إلى الهيئة العربية العليا»(٥)

والحقيقة أن الأستاذ حسن البنا قد أتقن فن إقامة واجهات بريئة تختفي خلفها مكامن للإرهاب.. ونقرأ للأستاذ محمود الصباغ «ولم يقتصر تفكير النظام الخاص علي التدريب علي الأسلحة والقنابل التقليدية، بل فكر في صناعة المتفجرات التي لا تتوفر في الأسواق مثل قطن البارود، وقد تم إنتاجه بنجاح، وكذلك ساعات التوقيت التي تحدد وقت إنفجار العبوة الزمنية، فقد تم تطوير الساعات العادية إلى ساعات زمنية لتفجير العبوات» (٦)

ولكن كيف وأين تمت صناعة قطن البارود؟

يقول الصباغ «لقد إتجه تفكيرنا إلى إنتاج قطن البارود علي نطاق واسع، وكان لابد لذلك من مكبس هيدروليكي كبير من نفس الحجم المستخدم في صناعة البلاط، ومن ثم إتجه تفكيرنا إلى إنشاء مصنع للبلاط علي أساس تجاري يضمن له صفة الاستمرار، وفي نفس الوقت يستخدم مكبسه في إنتاج قوالب قطن البارود بالكميات التي تحتاج إليها العمليات. وقد قمت شخصياً بشراء المكبس الهيدروليكي من السوق، وتم إنشاء المصنع في ميدان السكاكيني بالقاهرة بصفته أحد مصانع شركة المعاملات الإسلامية. وتعين كل عماله من أعضاء النظام الخاص، وأخذ فعلا في إنتاج أجود أنواع البلاط، وأقوى أنواع قوالب قطن البارود»(٧)

ترى .. خلف أية واجهات بريئة يتخفي الآن الخطر الكامن في هذه الجماعة؟

* * *

وعلي أي حال ٠٠ فإنك إذا شددت عليهم النكير حول ما ارتكبته الجماعة من إرهاب ٠٠ فإنهم يبادرون بالقول بأن فضيلة المرشد المرحوم حسن البنا قد استنكر الأعمال الإرهابية٠ ثم يعودون إلى القول بأنهم لم يرتكبوا أي عمل عنيف منذ عام ١٩٦٥٠

ولنحاول فحص هاتين المقولتين ببعض من أمثلة مذكرين وملحين أنها مجرد أمثلة٠

ولنبدأ بحادث اغتيال المستشار احمد الخازندار٠٠ فالجميع الذين تحدثوا عن هذه الواقعة قالوا إن فضيلة المرشد قد بكي من فرط حزنه علي اغتيال المستشار، كما إنه أدلي بأكثر من تصريح يستنكر قتل القاضي٠

لكن تلميحات في مذكرات الإخوان من أعضاء الجهاز السري تشير إلى أن غضب الأستاذ البنا كان نابعاً من أن عبد الرحمن السندي قائد هذا الجهاز قد اعطي أمر القتل دون إذن من فضيلة المرشد٠

وعليه تشكلت محكمة إخوانية لمحاكمة السندي، ويروي لنا وقائع المحاكمة واحد من قادة الجهاز السري، وكان ضمن اعضاء المحكمة الإخوانية، وهو الأستاذ محمود الصباغ٠٠ ونقرأ ما يثير الدهشة ، وما هو أكثر من الدهشة٠

«قال عبد الرحمن السندي إنه تصور أن عملية القتل سوف ترضي فضيلة المرشد، ولأن فضيلة المرشد يعلم عن السندي الصدق فقد أجهش بالبكاء» وعلي أي حال فإن هذه المحكامة الهزلية قد انتهت بحكم هزلي هو أيضا فقد جاء فيه نصاً «تحقق الإخوان من أن الأخ عبد الرحمن السندي قد وقع في فهم خاطئ وفي ممارسة غير مسبوقة من أعمال الإخوان، ورأوا أن يعتبر الحادث قتل خطأ، حيث لم يقصد عبد الرحمن ولا أحد من إخوانه سفك نفس بغير نفس، وإنما قصدوا قتل روح التبلد الوطني في بعض أفراد الطبقة المثقفة من شعب مصر أمثال الخازندار، ولما كان هؤلاء الإخوان قد إرتكبوا هذا الخطأ في ظل إنتمائهم إلى الإخوان المسلمين وبسببه، إذ لولا هذا الانتماء لما اجتمعوا علي الإطلاق ليفكروا في مثل هذا العمل أو غيره، فقد حق علي الجماعة دفع الدية التي شرعها الإسلام كعقوبة علي القتل الخطأ»٠

ثم يمضي الحكم إلى ما هو أكثر هزلاً «وأن تعمل الهيئة كجماعة علي إنقاذ حياة المتهمين البريئين (!) من حبل المشنقة بكل ما أوتيت من قوة، فدماء الإخوان ليست هدراً يمكن أن يفرط

فيها أعضاء الجماعة في غير فريضة واجبة يفرضها الإسلام» ثم وبعد ذلك «ولما كانت جماعة الإخوان المسلمين جزءاً من الشعب، وكانت الحكومة قد دفعت بالفعل ما يعادل الدية إلى ورثة المرحوم الخازندار بك حيث دفعت لهم من مال الشعب عشرة آلاف جنيه، فإن من الحق أن نقرر أن الدية قد دفعتها الدولة عن الجماعة. وبقي علي الإخوان إنقاذ حياة الضحيتين(!) محمود زينهم وحسن عبد الحافظ»(٨)

فإذا أردنا مثالا آخر .. نأتي إلى محاولة نسف محكمة استئناف مصر كسبيل لتدمير أحراز قضية سيارة الجيب بكل ما فيها من وثائق تدين الجماعة.

فعلي أثر هذه المحاولة الفاشلة أصدر الأستاذ حسن البنا بياناً هاجم فيه مرتبكي الحادث هجوماً عنيفاً توجه بقوله إنهم «ليسوا إخوانا وليسوا مسلمين» وأمام حدة الهجوم صدق البعض أقوال المرشد.

لكن الأستاذ صلاح شادي وكان رئيس قسم الوحدات (وهو جهاز سري آخر يضم أعضاء الجماعة من رجال الجيش والبوليس) يسوق لنا في مذكراته وبنعومة شديدة ما يوحي بأن الأستاذ البنا كان هو الآمر بهذه الجريمة، فيقول:

«أبلغني الأخ عبد الحليم محمد أحمد إنه كان من ضمن الأشخاص المكلفين بعملية نسف محكمة الاستئناف. وأن المرحوم سيد فايز هو الذي أمرهم بنفسه بتنفيذها. ومن جهتي فإنني أثق تماماً في عمق إحترام سيد فايز لأوامر المرشد، كما أثق تماما في صحة أقوال الأخ عبدالحليم محمد أحمد التي أكدها أيضا شفيق أنس الذي قام بمحاولة النسف وهذه شهادة مسلمين عدلين»(٩)

وباختصار.. فإن الأستاذ صلاح شادي يحاول وبأسلوب رقيق ومغلف أن يتهم مرشده وإمامه بأنه الآمر بمحاولة إرهابية، ثم عاد فوصف مرتكبيها بأنهم ليسوا إخوانا وليسوا مسلمين.

أما الحجة الأخرى وهي أن الجماعة لم ترتكب عملا إرهابياً منذ عام ١٩٦٥ فهي مجرد محاولة للطعن بالتقادم. والتقادم معروف في القانون الوضعي الذي سنري أن الإخوان يرفضونه أو شئنا الدقة يعلنون التزامهم به علي مضض ومن قبيل أن «الضرورات تبيح المحظورات».

لكن الإسلام إذ يتطلب التوبة من الذنوب فإنه لا يخضعها للتقادم إذ أن مرتكب الخطيئة ما لم يتب توبة نصوحاً سيظل إثمه معلقاً في عنقه حتي يحاسب عليه يوم القيامة.

والحقيقة إن التوبة في الإسلام ليست مجرد توبة باطنية، فإن الخطأ إذا ما وقع علناً ودعا صاحبه الناس إلى أن يحذو حذوه، فإن التوبة الحقيقية تتطلب العلانية كي يرتفع عن الآثم إثم من إتبعوه إذ صدقوه وفعلوا فعلته.

لكن ما حيلتنا..«الإخوان لا يخطئون » ولهذا «فهم لا يعتذرون».

* * *

وقد أتقن الأستاذ البنا فنون المناورة بين القوي السياسية المختلفة، أو بالدقة تصور إنه أتقنها.

وكانت خطته في ذلك ثابتة لا تتغير. فما أن يشعر بأن أحد أركان النظام يعاني من ضغوط شعبية حتي يتقرب منه زاعماً أنه سيقدم له غطاء إسلامياً وجماهيرياً. ومن هذه العلاقة غير المتوازنة إستطاع البنا أن يحقق الكثير لجماعته.

ففي مطلع الثلاثينيات كان الملك فؤاد يعاني من غضب شعبي عارم لاعتماده علي حكومات الأقلية واعتدائه علي دستور ١٩٢٣، وخضوعه المهين للاحتلال وتقدم البنا ليمنح الملك المكروه شعبياً مبايعته وتأييده.

وسوف تشهد صفحات هذه الدراسة كيف قدم حسن البنا ورجاله كل التأييد والدعم للملك فاروق، وكيف شكلوا له سياجاً يحميه من جماهيرية حزب الوفد الذي كان يعارض تنامي سلطة القصر علي حساب ما يقرره الدستور.. لكننا في هذه المقدمة سنحاول فقط أن نكشف الغطاء عن حقيقة هذا التأييد. خاصة وأن جميع الباحثين بما فيهم المؤرخين المعتمدين من جماعة الإخوان قد أكدوا إنه خلال فترة «شهر العسل» هذه بين البنا والقصر إنتهز البنا الفرصة ليتخذ من هذه العلاقة غطاءً يخفي خلفه عملية تأسيس الجهاز السري المسلح.. والذي حاول أن يستخدمه فيما بعد لتقويض النظام الملكي الذي تظاهر بأنه يحميه.

ويحاول الأستاذ صلاح شادي أن يفسر لنا أسباب إقتراب الأستاذ البنا من الملك فاروق، وسعيه لمقابلة الملك عام ١٩٤٥، أي في زمن كان الشعب المصري يشن هجوماً ضارياً علي الملك وبطانته ويعتبره رمزاً للفساد والإفساد فيقول «لقد كانت فطنته تهديه دائما لتجنب العثار في هذه المسيرة المليئة بالأشواك من كل جانب، وكان يعتقد أن مسئولية الداعية نحو الناس لا تنقطع إلا بإنقطاع وسائل التبليغ» ومن ثم فقد كان «يعمل في كل وقت علي التأثير علي الملك حتي

يحمله علي إنتهاج سياسة إسلامية تتسق مع دعوته، وكان يظن أن لقاءه معه سيحقق له هذا الأمل».

إلى هنا والأمر لا يعدوا أن يكون اجتهاداً سياسياً، قد يكون خاطئاً لكنه إجتهاد علي أية حال. لكن الأستاذ صلاح شادي لا يلبث أن يكشف الغطاء عن مراوغة و اضحة فيقول «أن حسن البنا لم يحمل ولاءً للملك ولا للنظم القائمة» (١٠)

ونعود فنراجع كل أساليب التملق الذي ساقها حسن البنا تقربا إلى الملك وحاشتيه، ثم نفسرها بهذه العبارة.

فحسن البنا الذي أمر الآلاف من أتباعه كي يحتشدوا في ساحة قصر عابدين هاتفين «الله مع الملك» ومعلنين له «نهبك بيعتنا» لم يكن في نظر أحد أقرب المقربين منه «يحمل ولاءً للملك ولا للنظم القائمة».

وعندما كان الطاغية إسماعيل صدقي يجهد نفسه في محاولة ضرب الحركة الوطنية المصرية وفيما كانت الجماهير تغلي غضباً منه ومن جرائمه .. أعلن حسن البنا تأييده لصدقي ونال مقابل ذلك الكثير.

وعن هذه العلاقة الخاصة بين الأستاذ البنا وبين الطاغية إسماعيل صدقي يحاول صلاح شادي أن يجد مبرراً لما لا يمكن تبريره «ومهما قيل حول التصريح لجريدة الإخوان بالظهور، أو شراء أوراق طباعتها بالسعر الرسمي، أو إستعمال جوالة الجماعة للمعسكرات الحكومية، فلا يمكن أن يجري ذلك بدافع شراء موقف الإخوان إزاء سياسة الحكومة، حتي إذا قصدت الحكومة ذلك، لأن كل ما قدمته للإخوان لا يزيد شيئا عن الحق الطبيعي للجماعة»(١١)

لكن السؤال الذي يبقي معلقاً دون إجابة : إذا كان هذا هو الحق الطبيعي فلماذا اعطاه إسماعيل صدقي للاستاذ البنا وحده؟ ولماذا كانت جريدته هي الاستثناء الوحيد في الحصول علي ورق صحف بالسعر الرسمي بينما الصحف الأخرى كانت تشتريه بأكثر من خمسة أضعاف هذا السعر؟

وهذا مجرد إمتياز واحد من الامتيازات التي منحها صدقي للاستاذ البنا.

لكن من إعتاد علي المناورة، ومن إعتمد عليها، يبقي مغرماً بها. فبعد شهر عسل لم يدم طويلا بين البنا وإسماعيل صدقي، وقع الخلاف. وقرر البنا تخويف صدقي وإشعاره بقوة الإخوان. فقرر القيام بعدة عمليات إرهابية، وكلف الجهاز السري بذلك ويروي الأستاذ محمود الصباغ وكان واحدا من قادة الجهاز السرى في تفاخر مثير للدهشة تفاصيل ما قاموا به.

«قمنا بتفجير قنابل في جميع أقسام البوليس في القاهرة في يوم واحد هو ٣-١٢-١٩٤٦ حيث فجرت أقسام الموسكي والجمالية والأزبكية ومصر القديمة وعابدين والخليفة ونقطة السلخانة ومركز إمبابة».

ثم تمتد عملية التخويف إلى حلفاء إسماعيل صدقي في الحكم «وعمد النظام الخاص إلى إرهاب الحزبين اللذين منحا صدقي باشا الأغلبية البرلمانية، فألقي قنبلة حارقة علي سيارة محمد حسين هيكل باشا وقام بذلك الإخوان أحمد البساطي ومحمد مالك، وكان قد تقرر إلقاء قنبلة علي سيارة النقراشي باشا ولكن لم يتم التعرف علي السيارة»(١٢)

وهكذا ناور حسن البنا- أو خيل إليه- بين الجميع، وكسب من الجميع، لكنه وفي نهاية الأمر وعندما كانت محنة الشيخ ومحنة الجماعة إكتشف وإن كان متأخراً جدا..إنه إذ تصور إنه يتلاعب بالجميع كان الجميع يتلاعبون به.

والغريب أن تابعيه وتابعي تابعيه حتي الجيل الحالي من الإخوان لا يملون من تكرار هذه اللعبة غير المبدئية، والتي أثبتت دوما أنها لعبة خاسرة.

* * *

والحقيقة أن «الإسلام » الذي دعا الأستاذ حسن البنا رجاله إليه هو إسلام من نوع خاص جداً.

إسلام لا يستند إلى الدراسة والمعرفة، ولا حتي إلى حفظ القرآن الكريم، ولا إلي محاولة تفهم التعاليم والأوامر والنواهي. وإنما إلى مجرد قشور تكون مجرد المبرر للطاعة العمياء «في المنشط والمكره».

وحجتنا فيما نقول هو مسلك الأستاذ البنا ورجاله إزاء مسألة التعمق في دراسة الفقه الإسلامي.

الأستاذ محمود عبد الحليم في كتابه «الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ- رؤية من الداخل» وهو المرجع التاريخي المعتمد من جانب الجماعة. (لأن المولف واحد من أوائل المؤسسين للجماعة ومن أقرب المقربين من الأستاذ البنا). يقول «كان الكثيرون من أصدقائه

«حسن البنا»، ومن عارفي فضله من العلماء يحثونه علي تأليف كتب في التفسير وفي مختلف فنون الإسلام، ويلحون عليه في ذلك حرصاً منهم علي تزويد المكتبة الإسلامية بنظرات عميقة وأفكار غير مسبوقة، ولكنه كان يقول : دعوني من تأليف الكتب، فالمكتبة الإسلامية متخمة بالمؤلفات في جميع العلوم والفنون، ومع هذا فإنها لم تفد المسلمين شيئا(!) حين قعدت هممهم وثبطت عزائمهم وركنوا إلى الدعة والخمول. والوقت الذي أضيعه (لاحظ أضيعه) في تأليف كتاب، أستغله في تأليف مئة شاب مسلم يصير كل منهم كتاباً حياً ناطقاً عاملاً مؤثراً. أرمي به بلداً (لاحظ أرمي) من البلاد فيؤلفها كما ألف هو»(١٣)

ونحاول أن نتأمل هذه العبارات فهي كاشفة فالأستاذ البنا كان يقيم حزباً سياسياً مجرد حزب سياسي «يرمي» به البلاد، وما الإسلام إلا قشرةً جاذبةً.

ويعود الأستاذ محمود عبد الحليم ليؤكد رؤية الأستاذ البنا قائلا «إن الإسلام شقان : أحدهما للمعلومات(!) والآخر للتنفيذ والتطبيق. ولم يشغل الشق الأول بكل ما فيه من حياة الرسول (صلي الله عليه وسلم) وحياة الرعيل الأول معه إلا جزءاً من ألف جزء شغلها الشق الأخير»(١٤)

ولعلها المرة الأولي التي نشهد فيها هذه الاستهانة بدراسة التعاليم والفقه الإسلامي والذي اسماه سيادته «المعلومات».. كما أنه لم يفسر لنا كيف سيكون التنفيذ بدون «معلومات». ثم يؤكد «وما كان الصحابة رضوان الله عليهم، علي علو قدرهم، يعرفون من الأحكام الفرعية في الدين عُشر ما يعرفه لآن طلاب المراحل الأولي من الدراسة الأزهرية، ولكن حياتهم مع ذلك كانت ممارسة عملية لما تعلموه من المعلومات الأساسية القليلة من أحكام الدين، فكانوا يتحركون للدين ويسكنون للدين، ويفرحون للدين ويغضبون للدين» (١٥) ويمضي قائلاً «فالإسلام ممارسة وعلم وصبر وجهاد قبل أن يكون معلومات يتعمق في دراستها، ويتبحر في الخوض فيها» (١٦)

تحديدا هذا هو نوع «الأخ المسلم» الذي أراده الأستاذ حسن البنا..

أقل قدر من «المعلومات» عن الدين، ثم ممارسة عملية.

لكن الممارسة لابد لها أن تستند إلى مرجعية.. والمرجعية هي «الطاعة » للمرشد في المنشط والمكره. ولكي تكون الطاعة ممكنة فإنها تغطي بقشرة إسلامية ، أو ما يسمونها «المعلومات الأساسية القليلة من أحكام الدين» ثم يكفيه بعد ذلك أن يتحرك ، وبالدقة يجري تحريكه لصالح الجماعة بدعوي إنه يتحرك للدين.

ومن هنا كان بالإمكان إقناع شباب الجهاز السري للإخوان بأن الإرهاب هو من الدين

والقتل هو من الدين. وأن الغضب علي أعداء «الجماعة» هو غضب للدين.

فالجهل بالدين كان عند الأستاذ البنا مقصوداً لذاته فما كان بالإمكان أن يقبل شاب عارف بأحكام الشرع وعليم بتعاليم الدين أن يكون أداة في يد الأستاذ المرشد، مجرد أداة تدار فتستدير بزعم أنها «تغضب» للدين بينما هي في واقع الأمر تغضب لمصالح حزبية أو شخصية ضيقة.

وحتي حفظ القرآن لا ضرورة له.. بل لا قيمة له في نظرهم، وإذ نمضي مع الأستاذ محمود عبد الحليم لنقرأ ما يستثير ما هو أكثر من الدهشة «لقد أمد الله تعالي في عمر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حتي رأي أجيالا لاشك أنها كانت أحسن منا حالا وأقرب إلى الدين منا، ومع ذلك قال عنهم: أنزل القرآن عليهم ليعملوا به فاتخذوا دراسته عملا، أن أحدكم ليقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يسقط منه حرفاً، وقد أسقط العمل به»(١٧)

* * *

والآن وبعد الملاحظات السابقة يمكننا أن نحاول إستطلاع حاضر ومستقبل جماعة الإخوان عبر التطلع إلى عمق البئر الإخواني حيث تكمن أفكار وممارسات وتراث الأستاذ حسن البنا.

فلنحاول.

د. رفعت السعيد

القاهرة يونيو ٢٠٠٤

(١) حسن البنا - مذكرات الدعوة والداعية- ص ١٨٣٠

(٢) الدعوة - ٢٤-٤-١٩٥١ مقال للأستاذ صالح عشماوي٠

(٣) النذير - العدد الأول - أول المحرم ١٣٥٨هـ٠ افتتاحية بقلم الشيخ عبد الرحمن الساعاتي٠

(٤) عصام حسونه - ٢٣ يوليو وعبد الناصر - ص٤٦٠

(٥) أحمد عادل كمال- النقط فوق الحروف- ص ١٥٤٠

(٦) محمود الصباغ - حقيقة الجهاز الخاص ودوره في دعوة الإخوان المسلمين- ص ١٤٩٠

(مع ملاحظة أن الأستاذ مصطفي مشهور المرشد العام السابق للجماعة قد كتب مقدمة هذا الكتاب مقرظاً)٠

(٧) المرجع السابق- ص ١٠٥

(٨) المرجع السابق- ص ٢٦٥٠

(٩) صلاح شادي - حصاد العمر - ص١٣٠٠

(١٠) المرجع السابق- ص ٦٧٠

(١١) المرجع السابق- ص ٨٣٠

(١٢) محمود الصباغ - المرجع السابق- ص ٢٧٨٠

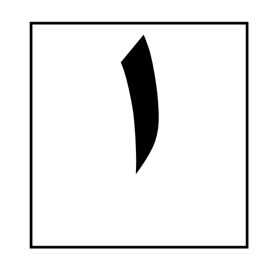
(١٣) محمود عبدالحليم- الإخوان المسلمون ، أحداث صنعت التاريخ- رؤية من الداخل - ج٢- ص ٣٤٥٠

(١٤) المرجع السابق٠

(١٥) المرجع السابق - ج٢ -ص٥

(١٦) المرجع السابق٠

(١٧) المرجع السابق - ص٥٠



مصر.. والشيخ

● مصر

فى السنوات الأولى من القرن العشرين، كانت مصر تتثائب، وتوشك أن تتنفس بعد مأساة هزيمة العرابيين. وباختصار.. كانت مصر تجد نفسها، تحقق ذاتها، أو على الأقل تجد القدرة لكى تقرر ذلك.

وهكذا شهد مطلع القرن العشرين تحركاً حضارياً عارماً، حاول أصحابه ـ كل فى مجاله ـ أن يوقظ قطعة من الأمل فى وجدان هذا الشعب.

فالأحزاب السياسية بمختلف اتجاهاتها ـ تتوالد سريعاً، وبكثرة: حزب الأمة، حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية، الحزب الوطنى، الحزب الوطنى الحر، حزب المقاصد المشتركة، الحزب الاشتراكى المبارك.. إلخ.

والصحافة تكاثرت وتنوعت، والمسرح شهد هو الآخر ازدهاراً، والتعليم ارتبط فى وجدان مصر بطموحها نحو الاستقلال، فنهضت القوى الوطنية بحركة تأسيس «الجامعة الأهلية» وبحركة التعليم الليلى والحرفى.

والتنوير كمعركة، وكطموح.. كان هو أيضاً سبيلاً أساسياً من سبل إيقاظ مصر، وبدأت عبارات مثل: حرية الفكر، حرية التعبير والإعتقاد، ترد على اللسان المصرى، ربما فى تردد لكنها كانت ترد على أى حال.. ولعل شبلى شميل، وهو واحد من رواد معركة التنوير ـ قد لخص طبيعة هذه المعركة فى عبارة واحدة، موجزة وقاطعة.. «الحقيقة أن تقال، لا أن تُعلم».

فالكثيرون كانوا يعرفون كيف يتلمسون طريقهم نحو الحقيقة لكنهم لا يعرفون كيف يفتحون فمهم بها، خشية المجابهة مع القوى الرجعية، وهى كثيرة وذات نفوذ.

وكانت مصر بحاجة إلى «هزة» عنيفة كى تستيقظ، وتخلع عن عينيها غشاوة الهزيمة والاستسلام اليائس، ثم تنهض وتمضى من جديد. وتقدم الكثيرون من المفكرين يحاولون الإسهام فى إحداث «الهزة» فى الوجدان المصرى. يقول شبلى شميل تعقيباً على الضوضاء الفكرية التى تلت صدور كتابه «فلسفة النشوء والارتقاء»: «فهذه الرجة التى حصلت اليوم هى المقصودة منى فى ذلك الحين، لإيقاظ الأفكار من نومها العميق، والحركة مهما كانت خير من السكون»(١).

ولم يكن ذلك الرعيل من رواد حركة التنوير بواهم أو بمبالغ فى قدراته أو فى قدرات مصر ذلك الحين، لكن هذه «الرجة» فى الأفكار كانت ضرورية، هكذا يؤكد شبلى شميل «فما كنت أطمع بأن أرد الناس إلىَّ فى هذا الزمن القصير، وأنا لا أجهل ما يحول دون ذلك من الصعوبات، بل إنى قصدت مباغتة الأفكار للفتها إلى غير مألوفها، وإن كنت لا أجهل أن إلقاء حجر فى المستنقعات الراكدة لا يقلق الضفادع المطمئنة. إلا أنى لا أجهل أيضاً فعل العجين المخمر، فإن أقل ما يعلق بالعقل حينئذ من أثر الأفكار المخالفة، ينمو فيها غالباً بسرعة الاختمار نفسه خصوصاً إذا صادف إستعداداً فى النفوس كامناً فيها لكثرة البواعث الضاغطة عليه»(٢).

وهكذا كان..

وإذا كان الحوار الفكرى بين المتعلمين أو مدعى العلم لا يزال منحصراً تماماً فى مجادلات سفسطائية تجاوزها الزمن من نوع «هل الأرض كروية؟.. وهل تدور؟» يكتب يعقوب صروف فى المقتطف قائلاً: «إن موضوع دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس صار أشهر من نار على علم وأوضح من الصبح لذى عينين، وتحققت صحته لكل ذى عقل سليم يطالع ويفهم»(٣). لكن الدنيا تقوم لهذه الكلمات ولا تقعد.. فقد تصدى له رجال الدين معلنين تكفيره ومروقه، وخاضوا ضده معارك قلمية وخطابية، وجذبت هذه المعركة الكثير من الأطراف، حاول بعضها دحض العلوم الحديثة أصلاً باعتبارها «كفر وبهتان» وتبلور فى المقابل تيار من المتعلمين، يحاول أن يدفع هذه الهجمة عن العلوم الحديثة، ووجدوا أن السبيل الوحيد، لذلك - كما يقول الأستاذ محمد عبدالغنى حسن - هو «إحكام المناورة لتأييد قضية الموافقة بين العلم والدين حتى لا يتعطل - بحركة المحافظين - سير العلم الطبيعى وتقدمه فى البلاد العربية التى كانت ولا تزال فى أشد الحاجة إليه»(٤).

وبينما «المحافظون» يشددون النكير على العلم الحديث وعلى حركة التنوير، و«المعتدلون» يلجأون إلى المناورة، إذا بفارس يقتحم الميدان شاهراً سيفه، ليقلب المائدة على الجميع.. طارحاً للنقاش موضوعاً جديداً تماماً لعل مجرد ذكره كان كافياً لأن يثير القشعريرة فى أبدان المتزمتين والمعتدلين على السواء: «نظرية النشوء والارتقاء».

وربما كان شبلى محقاً عندما أكد أن الأمر يحتاج إلى «رجة» فى الأذهان والعقول، لكن الشجاعة الحقيقية تكمن فى أن يتصدى هو لتحقيق هذه «الرجة» مقدماً نفسه للقارئ «إليك أكتب أيها القارئ العاقل، العاقل المتأمل، وما أطلب منك علماً واسعاً وفلسفة بديعة وحكمة عميقة، بل أطلب منك عقلاً حلت قيوده، وتفتحت منافذه وأقام التفكير مقام الاعتقاد، والبحث مقام المقرر،

يقدر مستنتجات العلم قدرها، ولا يبخس مستنبطات العقل حقها»(٥).

وعندما يصدر شميل كتابه «نظرية النشوء والارتقاء» يشهق الجميع فزعاً من كتاب طبع منه خمسمائة نسخة فقط. وتتركز هجمات الجميع، المحافظون والمعتدلون معاً، ضد المؤلف الذى استمر مصمماً على مواصلة إقلاق ساكنى مياه المستنقعات الراكدة، لكن شميل يرد عليهم فى هدوء «لست أخشى تخطئة الناس لى إذا كنت أعرفنى مصيباً، ولا يسرنى تصويبهم لى إذا كنت أعرفنى مخطئاً»(٦).

وتحدث «الرجة» المطلوبة، ويواكبها مفكرون كثيرون: «فرح أنطون» فى مجلة «الجامعة»، «سلامة موسى» بجهوده المتعددة الجوانب، «مصطفى حسنين المنصورى» بكتاباته المستنيرة عن الاشتراكية «ولى الدين يكن» بدفاعه عن الحرية، و«الشيخ عبدالرحمن الكواكبى» بنضاله ضد الطغيان وغيرهم.

والهدف واضح.. أن يشرق على مصر مطلع القرن العشرين عصر تنوير جديد. أن تقال «الحقيقة»، أن يقف المفكر والعالم والمثقف والكاتب من الحضارة والمجتمع والفلسفات والتقاليد موقفاً انتقادياً دون أن يتحسس رقبته مع كل كلمة يقولها.

ويتصدى البعض من رجال الدين لحركة التنوير هذه.. وتشهد مصر حركة إرهاب فكرى مخيفة، تناثرت فيها الاتهامات بالكفر والإلحاد، وأصبح التكفير هو السلاح الأساسى لإرهاب كل من يفتح فمه بكلمة جديدة، أو يحاول ذلك، ثم تتصاعد الحملة الشرسة لتصل إلى أسوأ مراحلها عندما تنتهز فرصة أن بعض دعاة حركة التنوير كانوا أقباطاً «سلامة موسى» أو مسيحين شواماً «شبلى شميل - فرح أنطون - نقولا حداد» لتلجأ - وبإيعاز من الحاكم «الماكر كرومر» - إلى شعارات الفتنة الطائفية بين المسلمين والأقباط من ناحية، وبين المسلمين والمسيحين الشوام من ناحية أخرى.

وتعود مصر لتسمع أصواتاً مسمومة تتبادل التهجم على الأديان، والطعن فى معتنقيها.

وتوشك إرهاصة التنوير أن تختنق، وأن تقع فريسة للمخطط الاحتلالى الرجعى، عندما تتصاعد حملات الهجوم الدينى المتبادل إثر اغتيال الوردانى لبطرس غالى باشا، ويحاول المتعصبون تحويل الأمر من مجرد قيام وطنى يسلك مسلك الإرهاب بإغتيال رئيس للوزراء يسلك مسلك الخيانة، إلى قيام مسلم بقتل قبطى.

وينفخ بعض رجال الدين من المسلمين والأقباط معاً فى نيران الفتنة، فهم المستفيدون أولاً وأخيراً، والضحية أولاً وأخيراً هى معركة «التنوير» التى كانوا يخشونها خشية الموت. وفى

مجابهة الخطر يتقدم دعاة التنوير خطوة فى الهجوم، وكتب شميل «فنرى مما تقدم أن الدين نفسه ليس العقبة الحقيقية فى سبيل العمران، بل رجال الدين أنفسهم» (٧). ويمضى شميل فى هجومه عنيفاً «ولكن الأديان تتحول من النفع العام حتى تصير وسائل للكسب فى يد أولئك الذين إتخذوها تجارةً من كل دين وملة، الذين علموا الناس حتى اليوم غير ما تأمرهم به الأديان. وكم قاموا يبيعون دينهم بدانق وفرطوا بمال الأيتام، وكم خدموا به أغراض عتاة حكامهم ليقتسموا معهم، ولو داسوا الدين بالأقدام». والإدانة من جانب شميل موجهة لدعاة الفتنة الطائفية من الجانبين «يا مقلنسى الجهل ومعممى الضلال أين رأيتم فى أديانكم ما يسمح لكم بأن تزرعوا رؤوس أتباعكم الجاهلين ببذور التفريق بين الناس إلى حد التباغض». بل هو يمضى فى هجومه إلى ما هو أشد «فلو قامت الإنسانية فى كل الدنيا ونسرت لحم رؤساء الأديان ـ الذين هم وحدهم المسئولون عن كل الفظائع التى ارتكبت ولا تزال ترتكب باسم الدين ـ نسرة نسرة لما وفت حق الانتقام لما جنوه اليوم على الإنسان»(٨).

ولم تكن المعركة معركة شميل وحده، بل معركة تيار متكامل يدعو للتنوير وللعقل.

فهناك كتابات ولى الدين يكن التى سارت على نفس النهج، والتى حظيت بنفس القدر من الهجوم العنيف علي الرجعيين من رجال الدين.. يقول ولى الدين يكن: «إن العامة تحب الشىء إذا حببه إليها زعماؤها، وتبغضه إذا بغضه إليها زعماؤها.. وزعماء العامة عندنا رجال الدين، وهؤلاء لا يرغبهم فى الشورى شىء مما هم منقطعون إليه.. فهم يحبون أن يظلوا متحكمين فى الرقاب، وأن يبقوا عيالاً على الأمة، وأن يلثم الناس أيديهم ويملأوا أكياسهم»(٩).

وعندما يتعرض الشيخ جميل الزهاوى لاضطهاد حاكم العراق لأنه دعا إلى تحرير المرأة ونزع حجابها، يكتب ولى الدين يكن.. «وبعد فيا أيها المسلمون.. أنا مسلم مثلكم.. يحزننى خسرانكم.. ويشركنى معكم مصرعكم إن هؤلاء الرجال الذين أثقلت هاماتهم العمائم أكثرهم لا يعقلون.. كان السلطان عبدالحميد يقتل الناس وينفيهم وينهب الخزائن.. وكل هذا حرام فى دينكم فما قام فى وجهه واحد منهم ناصحاً أو رادعاً.. ولكنهم اليوم وقد وسعتهم بلاد الحرية يكرهون أن يروا حراً يتكلم.. فهم يهاجمون كل من لا يكون من فريقهم.. يملأون الدنيا صخباً وضجة.. يكفرون الساعل والماخط والآكل والشارب، حتى لقد زهدونا بالحياة وهم أشد الناس بها تعلقاً، فلا تجعلوا لهم سلطاناً عليكم فيكسبوا من خسرانكم ويسعدوا بشقائكم، وأنتم لا تعلمون»(١٠).

ولعل هذه النماذج تكفى لتبين شراسة المعركة وعنفها،ولعلنا لسنا بحاجة إلى أن نوضح

أن رجال الدين من الطرفين المسلم والمسيحى قد ردوا على هذا الهجوم بما هو أعنف وأشد، ولعل الخاسر فى هذه المعركة الضارية كانت حركة التنوير فى مصر، ولعل الخسارة قد لامست الدين ذاته حيث صمم البعض من رجاله أن يضعوه ـ إعتسافاً ـ فى مواجهة كل جديد، وكل عقلانى، وكل علمى.

والمشكلة الحقيقية هى أن دعاة التنوير كانوا يجابهون وهم يخوضون معركتهم هذه سيلاً متراكماً من الكتابات «السلفية» التى تحيل الدين إلى أساطير تسحق كل ما فى العقل من قدرة على الفهم، وتحبط كل ما فيه من وعى أو علم.

الأستاذ محمود الشرقاوى يكتب مستجيراً(١١) «وأى شقاء فكرى وروحى يجده دعاة التقدمية الفكرية فى عالمنا العربى عندما يرون فى بعض الكتب التى يطالعها الناس ويتناقلون ما فيها.. أن «نوحاً» عليه السلام بنى سفينته من عظام حيوان يبلغ طوله مسافة ما بين السماء والأرض ويبلغ عرضه مسيرة عام كامل؟ وأى شقاء للروح والعقل أكثر من أن يقرأ دعاة التقدمية فى الفكر الدينى ما يقرأه الناس فى عالمنا العربى كله، فيجدون فى كتاب من كتب التفسير للقرآن الكريم «حديثاً» منسوباً لحذيفة، ومرفوعاً للنبى، صلى الله عليه وسلم، يقول: «إن يأجوج ومأجوج أمة،وكل أمة أربعمائة أمة، لا يموت الرجل منهم حتى ينظر إلى ألف رجل ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح، وهم من ولد آدم يعيشون فى خراب الأرض، وهم ثلاثة أصناف: صنف مثل شجرة الأرز، وصنف طوله وعرضه سواء عشرون ومائة،وهؤلاء لا تقوم لهم الجبال ولا الحديد، وصنف منهم يفرش إحدى أذنيه ويلتحف بالأخرى.. لا يمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير إلا أكلوه، ومن مات منهم أكلوه، مقدمتهم بالشام وساقتهم فى خراسان يشربون آبار الأرض وبحيرة طبريا، ومنهم من تنبت له مخالب فى أظفارهم، وأضراسهم كأضراس السباع»(١٢)

يخوض الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده معركة التنوير فإنه ينال هو أيضاً هجوماً ضارياً من رجال الدين المتشددين بما دفعه إلى الأنين وهو على فراش الموت:

ولست أبالى أن يقال محمد أبل

أم اكتظـــــت عليه المآتــــم

ولكنه ديـــن أردت صـــــلاحه

أحاذر أن تقضى عليه العمائم

وعلى أي حال، فلم تمض سوى سنوات قلائل حتى توجهت سهام الرجعيين إلى صدور أزهريين آخرين يتهمون لمجرد دعوتهم للتجديد والتنوير وإعمال العقل بالإلحاد والمروق.. «الشيخ

على عبدالرازق» بسبب كتابه «الإسلام وأصول الحكم»، والشيخ طه حسين لأنه عنى «بتطبيق منهج الشك الديكارتى على دراسته للأدب العربى، ولم يتردد فى أن يتشكك فى أصاله الشعر الجاهلى، بل، وأن ينثر الشكوك حول بعض المسلمات الدينية وذلك فى كتابه «فى الشعر الجاهلى» الذى أصدره عام ١٩٢٦»(١٣) وخرجت مظاهرات الأزهريين الغاضبة تطالب برأس الشيخ طه وبحرق كتابه، ولعل المظاهرات كانت من العنف بحيث إضطر زعيم مستنير كسعد زغلول أن يتراجع أمامها فيقول فى محاولة لتهدئتها «هبوا أن رجلاً مجنوناً يهذى فى الطريق فهل يضير العقلاء شىء من ذلك»(١٤).

ولكن كان الأمر قاسياً على طه حسين أن لا يجد الزعيم سبيلاً لإنقاذ رأسه من مقصلة المتعصبين إلا الدفع بجنونه.

وهكذا تقف الحركتان وجهاً لوجه وذلك بعد أن فقدت حركة التجديد والاستنارة واحداً من أهم فرسانها. الأستاذ الإمام الشيخ «محمد عبده»، الذى كان «أبداً داع إلى أن العقل يجب أن يحكم كما يحكم الدين، فالدين عرف بالعقل ولابد من اجتهاد يعتمد على الدين وعلى العقل معاً حتى يستطيع المسلمون أن يواجهوا الأوضاع الجديدة فى المدنية الحديثة مقتبسين منها ما يفيد وينفع، وإذا كان المسلمون لا يستطيعون أن يعيشوا فى عزلة فلابد لهم أن يتسلحوا بما يتسلح به غيرهم، وأكبر سلاح فى الدنيا هو العلم»(١٥).

* * *

وبينما كانت مصر تحاول أن تجد ذاتها.. وإذ ترتفع صيحة «تحيا مصر» وشعار «مصر للمصريين» يكون من الغريب أن يستقبل بعض المتدينين ورجال الدين هذه الصيحة بالنفور والغضب. إذ اعتقدوا أن «المصرية» هى نقيض «الإسلامية»، وأن استقلال مصر هو مجرد مؤامرة ملحدة ضد الباب العالى العثمانى حامى حمى الإسلام والمسلمين.

وحتى فى صفوف الحزب الوطنى أكثر التجمعات «الوطنية» راديكالية كانت مسألة «الخلافة الإسلامية» وتناقضها مع «المصرية» مسألة ملحة وفاعلة بل وتوشك أن تقسم الحزب ذاته.

وفى البداية أخذ مصطفى كامل فى المناورة بين السلطان العثمانى والإنجليز محاولاً أن يكسب لوطنه أى شىء. وكان يؤكد أنه «ما دامت الدولة العلية قوية سليمة دام أمل المصريين فى الخلاص كبيراً عظيماً»(١٦).

لكنه ما لبث أن أدرك وبوضوح أن استقلال مصر يعنى انتزاع حريتها ومقدراتها من الخليفة العثمانى ومن الإنجليز معاً، فصاح بأعلى صوته «رمانا الطاعنون بأننا نريد أن نخرج الإنجليز من مصر لنعطيها لتركيا، وماهذه التهمة إلا تصريح بأن معرفتنا لحقوق الأمم وواجباتها لم ترشحنا إلا أن نكون عبيداً أرقاء، فليعلم أعداء مصر أننا نطلب لها الاستقلال بأعلى أصواتنا وعلى مسمع من أمم الأرض كلها»(١٧).

لكن الشيخ عبدالعزيز جاويش أحد أقطاب الحزب، ورئيس تحرير مجلته لفترة طويلة، كان يرى رأياً آخر إذ كان يؤكد فى حسم أنه «لا وطنية فى الإسلام» ويتمسك بشعار «الجامعة الإسلامية» وهو اتجاه «ينادى بحق الأمة المصرية فى الحرية والدستور والجلاء فى ظل وحدة العالم الإسلامى ممثل فى الدولة العثمانية التى يتعين الحفاظ على وحدتها ومقاومة تمزيقها، فإن فى تمزيقها ضياع الوطن كله»(١٨).

«وكان الحزب الوطنى يعانى كثيراً من هذا التمزق.. بل كانت دعوة الشيخ جاويش هذه خليقة بأن تفقد الحزب تأييد عناصر كثيرة»(١٩). وكان محمد فريد خليفة مصطفى كامل يقاوم هذه الدعوة وينقدها نقداً شديداً، وهو يشير فى مذكراته إلى الشيخ جاويش قائلاً: «إن حبه للدولة العثمانية أدى به إلى نسيان مصر ومصالحها، فأصبح يقول إن مصر للمسلمين لا للمصريين وقد وصلت الحالة بالشيخ جاويش إلى أن ينصحنى بعدم حمل الدبوس الذى عملناه فى جنيف والمكتوب عليه «مصر للمصريين» والذى قررنا أن يكون شعار المصريون المخلصون، وقال أن منظره فى صدرى وصدر إخوانى يغيظ العثمانيين، كما تغيظهم محافظتى على قومية مصر»(٢٠)

وفى موضع آخر من مذكراته يقول محمد فريد: «إن جاويش لم يزل يحارب فكرة الوطنية فى الإسلام، وقد قال أخيراً فى برلين لأحمد بك أن يقلع عن فكرة الوطنية أو الجنسية المصرية قائلاً إنه لا وطنية فى الإسلام»(٢١).

ولا تبدو أفكار الشيخ جاويش بعيدة عن كلمات كتبها الشيخ حسن البنا بعد قرابة الربع قرن.. «إن كل قطعة أرض ارتفعت فيها راية الإسلام هى وطن لكل مسلم يحتفظ به، ويعمل له، ويجاهد فى سبيله»(٢٢).

وعندما قام «كمال أتاتورك» بثورته، فإنه لم يهز عرش السلطان الفاسد فحسب، بل هز وجدان الكثيرين ممن تعلقت أبصارهم وآمالهم بالخلافة العثمانية كحصن أول وأخير للمسلمين.

وإذا كان بعض الكتاب قد ألمح أن إنهاء الخلافة العثمانية قد مكن الكثيرين من دعاة

التجديد والإصلاح من محاولة تقديم فهم إسلامى إصلاحى، ومكن بعض رجال الدين من مزج «العقيدة الدينية بالفكرة الوطنية، ومن أن يعبروا عن دعوتهم إلى الإصلاح بعبارات أكثر وضوحاً وصراحة عن ذى قبل»(٢٣)٠ وألمح آخر إلى أن انهيار الخلافة العثمانية «قد دمر الأسس الواقعية والجغرافية للجامعة الإسلامية وشجع النزعات الوطنية والقومية»(٢٤). بل «وشجع إلى حد ما ولمرحلة معينة النزعات العلمانية ودفعها إلى السطح»(٢٥). فإن انهيار الخلافة قد أوجد لدى البعض نزوعاً للعمل الدائب دعوة لها» والأمل الذى لا يخبو فى استعادتها.

وقد أحاطت بالدعوة إلى الخلافة شبهات موضوعية تتعلق بطموح الملك فؤاد وحاشيته من شيوخ الأزهر، الأمر الذى دفع أحد كبار شيوخ الأزهر وهو الشيخ «الأحمدى الظواهرى» إلى أن يقول: «لم يكن التمهيد لانعقاد مؤتمر للخلافة بالقاهرة يحضره مندوبون من جميع الأمم الإسلامية أمراً بسيطاً هيناً كما ظن علماء الأزهر فى بادئ الأمر. فقد إمتد زمن الدعوة إليه من عام ١٩٢٤ إلى عام ١٩٢٦. أما سبب التأخير فيرجع إلى أنه قد دخلت نفوس بعض كبار المسلمين وأمرائهم فى الأمم الإسلامية الأخرى شكوك من جهة مصر، فقد ظنوا أن علماء الأزهر إنما يقصدون من مؤتمر القاهرة الذى يدعون إليه أمراً آخر له باطن غير ظاهره، وأنهم إنما يثيرون مسألة حماية الخلافة لا خوفاً على الخلافة وإشفاقاً على كلمة الإسلام كما يدعون، بل لغرض آخر فى فؤاد أم موسى هو نقل الخلافة من شاطئ البورسفور إلى شاطئ النيل، وضم أريكة الخلافة إلى أريكة الملك فى عابدين»(٢٦).

ويمضى الشيخ الظواهرى «ومن أجل ذلك كانت إجابات دول الإسلام على دعوة علماء الأزهر لعقد مؤتمر فى القاهرة إجابات فاترة، وكان معظمها استفساراً عن مرامى المؤتمر وغاياته، ومن الذى يراد تنصيبه خليفة بدلاً من الخليفة المعزول»(٢٧) وينعقد مؤتمر الخلافة ليفشل.. وليقرر المجتمعون أنه ليس بإمكانهم «وهم أقلية بين شعوب الإسلام أن يتخذوا قراراً فى شأن يهم المسلمين جميعاً»(٢٨).

وتكون قصة الخلافة سبباً فى معركة ضارية خاضها شيوخ أزهريون ضد شيخ أزهرى. ففى أبريل ١٩٢٥ أصدر الشيخ على عبدالرازق القاضى الشرعى بمحكمة المنصورة كتابه الشهير «الإسلام وأصول الحكم» مؤكداً أن مبدأ فصل الدين عن الدولة يتطابق مع تعاليم القرآن والسنة، وأن الدين هو فى جوهره روحى خالص ليست له أى علاقة بالسلطة السياسية، كما أنه مجرد من السلطة التنفيذية الزمنية، ويرى أن مبدأ الخلافة لا يرتكز لا على القرآن الذى لم يشر إليه على الإطلاق، ولا إجماع صحابة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فقد كانت رسالة محمد، دينية قبل كل شىء، وظلت بعيدة عن أى شكل من أشكال الحكم وعن أى سلطة تنفيذية»(٢٩).

وكان نصيب الشيخ رداً على كتابه هو ما نعرف من الاتهامات المقررة على كل داع للتجديد، وهى إتهامات أقلها المروق والكفر والإلحاد.. وقرار من هيئة كبار العلماء «حكمنا نحن شيخ الأزهر بإجماع أربعة وعشرين عالماً معنا من هيئة كبار العلماء بإخراج الشيخ على عبدالرازق أحد علماء الأزهر والقاضى الشرعى..ومؤلف كتاب «الإسلام وأصول الحكم» من زمرة العلماء. تعلن الأسباب بعد إعدادها فيما بعد»(٣٠)

وتظل فكرة الخلافة حلماً يداعب خيالات الكثيرين، ليس فقط ذلك الملك الساذج القابع فى قصر عابدين تحت رعاية المحتلين، ولا من تبعه من شيوخ الأزهر الذين غذوا أحلامه بأن يرث عرش الخلافة المنيع، وإنما أيضاً بعض الدعاة المتحمسين للإسلامية.. والذين تعلقت أبصارهم بفكرة «الخلافة» و«الجامعة الإسلامية» مؤمنين بأن الإسلام بذاته وطن،وأنه لا نجاة للمسلمين بغير خليفة لهم جميعاً.

ذلك أن الإسلام كعقيدة هو فى نظر البعض «محتوى سياسى والمجتمع الإسلامى هو ذاته الكومنولث الإسلامى أى «مجموعة الشعوب المسلمة»، والأمة الإسلامية هى أيضاً تكوين سياسى متكامل»(٣١).

وتكون من الصراعات ـ بالضرورة ـ واحدة من مكونات المناخ الفكرى الذى عاشه الفتى حسن البنا.

* * *

وكان هنالك أيضاً «التبشير» وجماعاته التى تناثرت فى أماكن عديدة من مصر.

ولقد قيل عن هذا الموضوع كلام كثير لعل أكثره صحة هو أن التبشير لم يكن أكثر من لعبة استعمارية تستهدف إستفزاز المشاعر الإسلامية والانحراف بها عن مسارات الكفاح الطبيعى لتحرير الوطن إلى مسارات تستهلك قواها فى صراعات داخلية تبعد الكفاح عن مساره الطبيعى ضد الاستعمار.

وعلى أى حال فقد حدث «فى نهاية العشرينات أن استفز النشاط التبشيرى مشاعر المسلمين فى مصر وكان لحوادث الغواية عن الدين أثر في إستفزاز مشاعر عديد من المسلمين».

وقد كان..

إذ تتالت ردود الفعل باتجاه طائفى ومتعصب وتوترت مشاعر الكثيرين وضخمت نتائج

عمليات التبشير بصورة مبالغ فيها، الأمر الذى يعنى أن الهدف الحقيقى من التبشير قد تحقق، فلسنا نظن أن أحداً قد تصور فعلاً أن التبشير كان خطة عملية أو منطقية تستهدف استقطاب أفراد من المسلمين باتجاه الديانة المسيحية.

فلا التجربة العملية، ولا الواقع الموضوعى، ولا الأرقام الفعلية، لا شىء من ذلك كله يشير مجرد إشارة لأى احتمال لنجاح حملات التبشير من هذه الزاوية.

والحقيقة أن قصة التبشير هذه قد استخدمت استخداماً مبالغاً فيه، وبهدف تأجيج المشاعر الإسلامية ضد النصارى الذين يحاولون تنصير المسلمين.. وقد قمت بالبحث طويلاً فى صحف هذه الفترة وخاصة مرحلة بداية الثلاثينيات حيث التهبت هذه القضية فلم أجد حديثاً عن تحول مسلم إلى المسيحية، وإن كانت هناك إشارات مبهمة حول حوادث اختفاء عدد من الشبان وإيماءات وإيحاءات باحتمال وجود سبب لذلك عبر عملية تغيير للدين لكنها حالات محدودة جداً.

وإن كانت هناك دلائل قوية حول عمليات نشطة لتحويل عديد من الأرثوذكس إلى الكاثوليكية أو البروتستنتية. وفى أماكن عديدة وخاصة فى مدن الصعيد المزدحمة بفقراء من الأرثوذكس انتشرت مدارس «الفرير ـ الفرنسسكان ـ السكركير ـالجزويت ومدارس للإرساليات الأمريكية البروتستنينية وغيرها، وعيادات ومستوصفات ومستشفيات استقطبت بخدماتها المجانية عديداً من المتعاملين معها.. ومن هنا يمكن القول إن أكثر عمليات التبشير كانت اختراقاً كاثوليكياً أو بروتستنتينياً للكنيسة الأرثوذكسية.

وقد نفخت الجيوب الصهيونية التى تواجدت داخل الجالية اليهودية فى هذه النيران بهدف إشعال الفتنة.

فشنت صحيفة «إسرائيل» التى أنشأها «ألبرت موصيرى» عام ١٩٢٠ كجريدة صهيونية صرفة حملات غوغائية استهدفت تأجيج فتنة طائفية. وتوالت على صفحاتها مقالات بعنوان «كيف حاولوا تنصيرى؟» ثم بدأت فى تقديم معلومات لا نعرف مدى صحتها عن محاولات لتنصير طلبة يهود كانوا تلاميذاً فى مدارس كاثوليكية.

ثم بدأت حملة جديدة حول محاولات لتنصير شبان من المسلمين، وبدأت حملات تهاجم الديانة المسيحية (٣٢).

ويبدو أن حركة التبشير قد استغلت حالة الأزمة الاقتصادية التى تفاقمت فى مطلع الثلاثينيات، كما يبدو أنها قد جرى استغلالها من أجل تحويل أنظار المصريين عن الأوضاع الاقتصادية والسياسية المتردية، كما جرى استغلالها من جانب العناصر السلفية لاستجلاب

حالة من الضغط على القوى الداعية للتحرر الفكرى والعقلى.

ويقول د.محمد جابر الأنصارى: «إن حركة المبشرين قد إشتدت أثناء الأزمة المالية والسياسية فحولت إليها كثيراً من سخط الناس، فوق ما أثارته من غيره الناقمين على الاستعمار»(٣٣).

ونطالع بعضاً من محاولات استغلال هذا الأمر.. «اجتاحت العالم الإسلامى موجة من الذعر، ومن الإحساس بالخطر دعته إلى التماسك، وإلى الاستجابة لنداء الداعين إلى الجامعة الإسلامية، وذلك على أثر إشتداد حملة التنصير فى ربوعه»(٣٤).

وكما هو متوقع سارعت جماعة الإخوان لاستغلال هذا الأمر فرفعت رسالة إلى الملك فؤاد تقول فيها: «إلى سدة صاحب الجلالة الملكية حامى حمى الدين ونصير الإسلام والمسلمين مليك مصر المفدى يتقدم أعضاء مجلس الشورى العام للإخوان المسلمين المجتمعين بمدينة الإسماعيلية بتاريخ ٢٢ صفر ١٣٥٢هـ والممثلون لخمسة عشر فرعاً من فروع جمعية الإخوان المسلمين برفع أصدق آيات الولاء والإخلاص لجلالة المليك المفدى وسمو ولى العهد المحبوب.. ويلجأون إلى جلالتكم راجين حماية شعبكم المخلص الأمين من عدوان المبشرين الصارخ على عقائده وأبنائه بتكفيرهم وتشريدهم،وإخفائهم وتزويجهم من غير أبناء دينهم. إن مصر زعيمة الشرق ورعية الملك المسلم العادل لا تقبل أن تكون يوماً من الأيام مباءة تبشير أو موطن تكفير، تستمد ذلك من غيرة مليكها وقوة إيمانها»(٣٥).

ويكشف المؤرخ المعتمد لجماعة الإخوان - محمود عبدالحليم - عن كيفية استغلال الإخوان لحركة التبشير فيقول بصراحة مثيرة للدهشة «ولولا حركة التبشير ما استطاع حسن البنا أن يجمع على العمل الإسلامى هؤلاء الرجال الذين لم تكن تجمعهم جامعة ولا تربطهم رابطة. وجزى الله الشدائد كل خير، وكان من ثمرات ذلك أيضاً إنشاء جمعية تسمى جمعية «الشبان المسلمين» وأسندت رئاستها إلى رجل مسلم غيور هو الدكتور عبدالحميد سعيد»(٣٦).

* * *

وفى خضم ذلك كله كانت تنمو فكرة التناقض بين الحضارتين الشرقيةوالغربية، وكان البعض يثير هذا التناقض من منطلق وطنى، والبعض يثيره من منطلق إسلامى.

هكذا «الميكادو» قد علمنا.

نجعل الأوطان أماً وأباً.

إنه فهم التيار الوطنى الذى يرفض «الغرب» ويتطلع شرقاً نحو حضارة تحقق الطموح الوطنى من خلال معطيات شرقية، كذلك كانت حركة «مصر الفتاة» تستلهم فى مطلع الثلاثينيات نهضة اليابان كنموذج للنهضة الشرقية المرجوة ومن منطلق معاد للاستعمار عموماً. كما تحدث سلامة موسي طويلاً عن الغاندية، وأسلوب مقاومة الاستعمار ببناء حركة اجتماعية ترفض استخدام منتجات الدول الاستعمارية، وأن تعتمد علي الذات في إنتاج ما تحتاج إليه.

أما التيارات الإسلامية فقد كانت ترى «الشرقية» كدعوة ذات طابع ومنطلق دينى، يستهدف حشد جهود مسلمى الشرق ضد الدعاوى الغربية ومظاهر الحضارة الغربية.. «كانت الإسلامية بالنسبة للشيخ حسن البنا طريقاً للوصول إلى الأمم الأسيوية المسلمة.. وكانت تتمثل قول كبلنج «الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا»(٣٧).

وكانت «الشرقية» بالنسبة للتيارات الإسلامية مدخلاً أو مخرجاً يتيح الهجوم على الغرب، وعلى كل ما هو غربى سواء فى ميادين الفكر أو الحضارة أو الثقافة أو غيرها.

وكانت هذه التيارات ترى «أنه لا خلاص للعرب والمسلمين.. ولا فرصة أمام الشرق كى يحترم نفسه ما لم يتخلص من كل معطيات الحضارة الغربية، وأن يعتمد على نفسه وعلى رحمة الله الواسعة، ومن ثم يكون على المسلمين أن يقاوموا الأفكار الغربية لأنهم ليسوا فى حاجة إليها»(٣٨).

ويواكب حسن البنا هذا التيار فيقول: «إن المدنية الغربية التى تتباهى بعلومها والتى استطاعت أن تسيطر على العالم، تعانى الآن من الإفلاس والانهيار ذلك أن أسسها السياسية قد انهارت تحت وطأة الديكتاتورية، وأنظمتها الاقتصادية تتداعى بفعل الأزمة، وكيانها الاجتماعى متآكل، والناس هناك يسيطر عليهم الطمع والقهر» ويؤكد لقد بدأت قيادة العالم شرقية، ثم أصبحت غربية، وها قد حان الحين لينهض الشرق من جديد»(٣٩).

وهكذا تختلط ـ وربما عن عمد ـ فكرة «الشرقية» بالإسلامية، كسبيل للهجوم على الغرب من منطلق غير صحى وغير صحيح.. فهو هجوم لا ينبعث من فهم واضح لمعنى الاستعمار، ولا يقود إلى أسلوب محدد لمجابهته.. فالاستعمار هو مجرد «صليبية ـ أوروبية»(٤٠).

ومن ثم فإن الهجوم على الغرب قد اتخذ اتجاهاً غريباً إذ تحول إلى الهجوم على كل من ينهل من ثقافة الغرب وعلومه، أو يدعو للتنوير مستفيداً من معطيات حركة التنوير الغربية، وتتوجه السهام الحادة إلى شخصيات مثل طه حسين والشيخ على عبدالرازق والشيخ خالد محمد خالد متهمة إياهم بأنهم «خضعوا بوعى أو بغير وعى لغواية الثقافة الغربية

الاستعمارية»(٤١).

هكذا فهمت «الشرقية» على وجهين، واستخدمت كسلاح ذى حدين لكنها كانت وفى ذلك الحين عنصراً فاعلاً فى تكوين المناخ الفكرى العام، إلى درجة تمكنها من أن توثر بلا شك فى وجدان ومشاعر ومنطلقات شاب سياسى ومتدين مثل حسن البنا.

* * *

وللسلفية والتجديد قصة تستحق وقفة هى الأخرى.. قصة تركزت حول موضوع الدين وتحديات العصر.

وكانت هذه القضية هى الشغل الشاغل لمصر.. لمجدديها، وسلفيياها، ثوارها ومعتدليها ورجعييها، وعلمائها ومفكريها ورجال الدين فيها، وذلك طوال الفترة من نهايات القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

وكانت العلاقة الشائكة والحتمية بين الدين وتحديات العصر تتبلور - فى كثير من الأحيان - فى موضعين.. العدالة الاجتماعية والموقف من العقل ومنجزات العلم الحديث.

والحقيقة أن الإسلام بطبيعته، وبطبيعة الوضع الطبقى لشيوخه قد استطاع أن يجد حلاً لمسألة العلاقة بين الدين والعدل الاجتماعى. وكان «رفاعة الطهطاوى» و«الأفغانى والكواكبى» رواد هذه المعركة على أرض مصر.

الطهطاوى فى كتابه الرائع «مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية» كان يصيح بأعلى صوته «الأرض للزارعين» ويقول: «إن الفضائل جميعاً تعود إلى أصل واحد هو العدل العمومى والإنصاف المشترك»(٤٢).

وهو ينتقد الملاك لأنهم يتمتعون «فى العادة بالمتحصل من العمل، ولا يدفعون نظير العمل الجسيم إلا المقدار اليسير الذى لا يكافئ العمل»(٤٣).

ويأتى بعده الأفغانى لترتفع صيحته أكثر فأكثر ولتتخذ ثوباً واضحاً تماماً «أما الاشتراكية فى الإسلام فهى ملتحمة مع الدين الإسلامى» و«أول من عمل بالاشتراكية بعد التدين بالإسلام هم أكابر الخلفاء من الصحابة»، وهو يقدم تعريفاً شاملاً وتقدمياً للاشتراكية «فالاشتراكية هى التى ستؤدى حقاً مهضوماً لأكثرية من الشعب العامل».

وتكون صيحة الشيخ الكواكبى، أعلى هى الأخرى.. «أن النظام الطبيعى فى كل

الحيوانات أن النوع الواحد منها لا يأكل بعضه بعضاً والإنسان يأكل الإنسان، ومن غريزتها أن تلتمس الرزق من الله أى مورده الطبيعى، والإنسان حريص على التماسه من أخيه»(٤٤).

ثم أن الكواكبى يمجد العلم والعلوم العقلية «فالمستبد لا يخاف من العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد لاعتقاده أنها لا ترفع غباوة ولا تزيل غشاوة وإنما يتلهى بها المتهوسون.. لكن ترتعد فرائض المستبد من علوم الحياة مثل الحكمة النظرية والفلسفة العقلية وحقوق الأمم أو سياسة المدنية.. وغيرها من العلوم الممزقة للغيوم.. المبسقة للشموس، المحرقة للرؤوس».

وهو يهاجم الأغنياء «فهم ربائط المستبد يذلهم فيئنون، ويستدرهم فينحنون، ولهذا يرسخ الذل فى الأمم التى يكثر أغنياؤها، أما الفقراء فيخافهم المستبد خوف النعجة الذئاب»(٤٥) وهو يدعو صراحة إلى الاشتراكية باعتبارها «السر فى نجاح الأمم المتمدنة»(٤٦) ويقول «إن الداء العام هو الفقر. ومن أعظم أسباب الفقر أن شريعتنا مبنية على أن فى أموال الأغنياء حقاً معلوماً للبائس والمحروم فيؤخذ من الأغنياء ويوزع على الفقراء.. لكن الحكومات الإسلامية قد قلبت الموضوع فصارت تجبى الأموال من الفقراء والمساكين وتبذلها للأغنياء، وتحابى بها المسرفين»(٤٧).

وتبقى القضية الأخرى ـ أى موقف الدين من العقل والعلم ومستجدات العصر، ولعل الأفغانى كان رائداً أيضاً.. فبعد كتابه «الرد على الدهريين» والذى هاجم فيه «النتشريين» (دعاة الطبيعة) والماديين، والذى اختص فيه نظرية التطور بهجومه وتهكمه وإدانته قائلاً: «إذا كان زعم داروين أن الإنسان كان قرداً، ثم عرض له التنقيح والتهذيب، صحيحاً.. فعلى زعم داروين هذا يمكن أن يصير البرغوث فيلاً بمرور القرون ومر الدهور، وأن ينقلب الفيل برغوثاً كذلك»(٤٨). بعد هذا نجده يراجع نفسه فى كتابه الآخر «خاطرات جمال الدين».

فقد سئل الأفغانى عن قول المعرى:

والذى حارت البرية فيه

حيوان مستحدث من جماد

وهل يقصد ما عناه داروين بنظرية «النشوء والارتقاء» فقال:

«لا أغالى ولا أبالغ إذا قلت: «ليس على سطح الأرض شىء جديد بالجوهر والأصول. أما مقصد أبى العلاء فظاهر واضح وليس فيه خفاء، فهو يقصد النشوء والارتقاء. مهتدياً بما قاله العرب قبله بهذا المذهب، إذ قال أبوبكر بن بشرون فى رسالته لأبى السمح، عرضاً، فى بحث الكيمياء: «إن التراب يستحيل نباتاً، والنبات يستحيل حيواناً، وإن أرفع مواليد التراب (ومنه

المعادن) النبات،وهو أدنى طبقات الحيوان، سلسلة تنتهى عند الإنسان»(٤٩).

لكن العطاء الحقيقى للأفغانى كان تلميذه محمد عبده. يقول مارسيل كولومب «وليس من السهولة أن نوضح أثر هذين الرائدين «الأفغانى ومحمد عبده» على الجيل الذى تلاهما. ومع ذلك فثمة شيء مؤكد، ذلك أنه عندما تبذل المحاولات لجعل الدين يتوافق مع العلم الحديث، وعندما تتقبل فكرة إعادة النظر فى الشريعة الإسلامية كضرورة، حتى تتسق مع مقتضيات العصر، فلابد أن ندخل فى اعتبارنا أن الأفغانى ومحمد عبده هما اللذان هيئا النفوس بالتدريج لتقبل مفهوم للدولة وللدين يختلف عن مفهومهما فى القرن السابق»(٥٠).

لكن محمد عبده كان يختلف عن أستاذه فى المسألتين الهامتين العدل الاجتماعى والموقف من العقل والعلم الحديث.

فى المسألة الأولى كان أكثر تخلفاً.. وفى الثانية كان أكثر تقدماً ولعل السبب واضح.

فالصراع الاجتماعى احتدم عنيفاً بعد أن طرد الأفغانى من مصر، وصار على كل مفكر أن يختار موقعه الاجتماعى والطبقة التى ينحاز إليها.. وما أصعب أن يختار مثقف برجوازى صغير موقع الدفاع عن الكادحين.

فالشيخ محمد عبده يهاجم التطرف لدى الثوار العرابيين، ويلومهم صراحة على انتمائهم للشعب والفقراء. بل هو يؤكد أنه انتقد حكومة رياض ومسلك الخديو توفيق «لكننى كنت ضد الثورة»، كنت أعتقد أنه يكفى جداً أن نحصل على دستور خلال خمس سنوات، وكنت أعارض أسلوب طرد رياض باشا، ومظاهرة عابدين،وكان سليمان باشا أباظة والشريعى باشا يؤيدانى ضد الثورة لكننا كنا جميعاً نطالب بالدستور»(٥١).

لكن الثورة قامت،ومس لهيبها شغاف قلب كل مصرى، واندفع الفلاحون ينخرطون فى سلك جيش من أصحاب الجلاليب المسلحين بأى شيء وهم يهتفون «الله ينصرك يا عرابى».

ولم يكن أمام الشيخ محمد عبده إلا أن يقف معها محاولاً ـ قدر الإمكان ـ أن يحد من ثوريتها. وفى ١٣ فبراير ١٨٨٣ أقامت جميعة «المقاصد الخيرية» حفلاً كبيراً ابتهاجاً بتشكيل وزارة العرابيين برئاسة محمود سامى باشا البارودي، وفى حشد كبير من الأعيان وقف محمد عبده ليحذر «الثوار» من ثوريتهم، وليحذر الأعيان من تساهلهم أو تغافلهم تجاه هذه «الثورية».. قال محمد عبده «أنه لم يعهد فى أمة من أمم الأرض أن الخواص والأغنياء ورجال الحكومة يطلبون مساواة أنفسهم بسائر الناس وإزالة امتيازاتهم واستئثارهم بالجاه والوظائف بمشاركة الطبقات الدنيا لهم فى ذلك، فكيف حصل فى هذه المرة، ومن أهل هذا المجتمع؟ فهل تغيرت سنة

الله فى الخلق،وانقلب سير العالم الإنسانى؟ أو بلغت فيكم الفضيلة حداً لم يبلغه أحد من العاملين.. حتى رضيتم واخترتم عن روية وبصيرة أن تشاركوا سائر أمتكم فى جاهكم ومجدكم وتتساووا بالصعاليك حباً بالعدالة والإنسانية؟ أم تسيرون إلى حيث لا تدرون وتعملون ما لا تعلمون؟»(٥٢).

وبرغم هذا الموقف المتخلف من القضية الاجتماعية فإن محمد عبده يبرز بعد عدة أعوام رائداً من رواد التجديد والتنوير وإعمال العقل. فالعقل والتنوير كانا يصعدان معركتهما،ومنجزات العلم الحديث تفرض نفسها وبإلحاح على حياة المجتمع والأفراد طالبة إجابة صريحة و«فتوى شرعية» فى كل أمر جديد، وكانت فتاوى محمد عبده تتألق دوماً باتجاه متقدم.

وهو يبدأ معركته بتجريد رجال الدين من كهنوتهم الذى يحاولون أن يفرضوه على البشر قائلاً: «ليس فى الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة.. والدعوة إلى الخير والتنفير من الشر، وهى سلطة خولها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم.. كما خولها لأعلاهم يتناول بها أدناهم» والحقيقة أن محمد عبده كان يجابه مهمة صعبة، فمع نهايات القرن التاسع عشر تم وضع مجموعة القوانين الجديدة، التى تغطى مجال المعاملات المدنية ونظام العقوبات وذلك نقلاً عن القوانين الفرنسية،وتم إنشاء هيكل قضائى حديث، وانتشر التعليم الحديث أيضاً..وهكذا كانت مصر وهى تقترب من روح العصر، وتتلامس مع المدنية الحديثة تتمايز فيها شخصيتان، ومؤسستان فى عديد من المجالات المهمة، موسسة دينية الطابع وأخرى مدينية التكوين والمحتوى.، مؤسستان للقضاء ومؤسستان للتعليم.. إلخ «مما فصل عن الأزهر أهم جانب من جوانب وظيفته الاجتماعية».. «ومع نهايات القرن التاسع عشر وضح الصدع أمام المبصرين وغير المبصرين جميعاً.. وتم صدع مماثل فى المؤسسات الاجتماعية والمؤسسات الفكرية،وفى البناء الأخلاقى والسلوكى للأفراد. أمام هذه المشكلة قامت دعوة محمد عبده تحاول رتق هذا الفتق الذى يتسع ويدعو لتنقيح الفكر الإسلامى ليستوعب الحاجات المدنية للمجتمع، وليمكن الفكر الإسلامى من أن يقدم الأساس الأخلاقى والمعنوى بهذه الحياة المتطورة. وكانت وسيلته إلى ذلك الدعوة لتطوير الأزهر وتنقيح مناهج التعليم فيه،وفتح باب الاجتهاد»(٥٣).

لكن الأزهر وقف من حركة محمد عبده موقف الرفض، بينما تلقفها التيار العقلانى وتمسك بها فى مواجهة دعاة التقليد، وهكذا ازدادت الهوة إتساعاً بين حركة التجديد.. وبين الأزهر.

والحقيقة أن محمد عبده قد استفاد كثيراً من إقامته فى أوروبا لفترة من الوقت. ولعل هذه الإقامة لم تكسبه إستنارة وسعة أفق، ورغبة نهمة فى الدفاع عن العقل والعلم فحسب، وإنما قدمت أمام عينيه نمطاً من السلوكيات ونموذجاً للحياة يختلف اختلافاً جذرياً عما يراه فى أرض وطنه، ولعل ذلك هو الذى دفعه إلى الإعراب عن دهشته لأن «الكفره يتصرفون كمسلمين بينما يتصرف المسلمون وكأنهم كفره»(٥٤).

ولعل هذا الموقف يتضح أيضاً من إعجابه الشديد بالفيلسوف الروسى «تولستوى»، فعندما كان محمد عبده مفتياً للديار المصرية كتب إلى تولستوى يقول: «أيها الحكيم الجليل مسيو تولستوى: لم نحظ بمعرفة شخصك، ولكننالم نحرم التعارف بروحك.. سطع علينا نور من أفكارك، وأشرقت فى آفاقنا شموس من آرائك ألفت بين نفوس العقلاء ونفسك.. فكما كنت بقولك هادياً للعقول، حاثاً بعلمك للعزائم والهمم، وكما كانت آراؤك ضياء يهتدى به الضالون،كان مثالك فى العمل إماماً يقتدى به المرشدون»(٥٥).

هكذا يتكلم مفتى الديار المصرية مع مفكر هو على أى حال غير مسلم، بل ومتهم من كنيسته بالإلحاد، وهكذا كان تقديره لحضارة الغرب وللأفكار الجديدة فيه. وكان المنطلق الأساسى لمحمد عبده هو تصميمه على «أن الإسلام لم يتعارض ولا يمكن أن يتعارض مع العلم فالعلم مثله مثل العقيدة يكشف للناس أسرار الطبيعة»(٥٦).

وبينما كان «السلفيون» وظلوا حتى ما بعد زمن محمد عبده بأمد طويل يتنكرون للحضارة الغربية والثقافة الغربية كان محمد عبده يرى أن مفتاح التقدم هو تبنى العلوم الغربية والثقافة. وقد أكد محمد عبده فى أحد مقالاته المبكرة «أن سر تفوق أوروبا يكمن فى تفوقها فى مضمار البحث العلمى، وإلى تقدم نظم التعليم فيها»(٥٧).

وبعد أن يؤكد محمد عبده على ضرورة التلامس مع الفكر الغربى الحديث، يخطو خطوة جديدة شائكة، لكنها حاسمة فهو يدعو إلى تحديث الفكر الإسلامى، فقد كان يرى أن الإسلام لا يمكن أن يرسخ أقدامه عبر الأزمان إذا ما استمر معتمداً على التقليد. وكم هاجم محمد عبده دعاة التقليد وكم أكد «أنه بدون استخدام العقل سوف يتعذر على المسلمين إحراز أى تقدم أو تطور»(٥٨). وذلك فى الوقت الذى كان يعانى فيه الآخرون من «عقدة» الخوف والرفض لكل ما هو قادم من الغرب. ولكل ما هو إعمال للعقل، باعتبار أنه تهديد أو إضعاف لنفوذ الإسلام. الأمر الذى أشعرهم بضرورة شن «هجوم مضاد» فتشبثوا بشعار الجامعة الإسلامية، وتهافتوا على إدانة كل ما هو عقلى وعلمى أو جديد.(٥٩).

وفى هذا المناخ يمضى الأستاذ الإمام محمد عبده مفتى الديار المصرية ليصدر سلسلة من الفتاوى الشرعية تحاول أن تيسر على المسلمين مجابهاتهم وتعاملاتهم مع حياة المدنية الحديثة. والحقيقة أن الأستاذ الإمام كان مطالباً بإصدار فتاوى شرعية فى مسائل معقدة مثل «أرباح الأموال المودعة فى البنوك وسعر الفائدة والتأمين على الحياة والشركات المساهمة وأرباحها.. وفى مسائل أخرى قد تبدو بسيطة لكنها من فرط بساطتها تلح على المسلم فى كل تعاملاته: «التصوير الفوتوغرافى» حلال أم حرام؟ واستخدام المعدات اللازمة للحياة العصرية حلال أم حرام؟ وهكذا وبصدر رحب وبعقل مفتوح مدرك لتبعات المفتى المستنير تجاه عصره، حاول محمد عبده أن يقدم إجابات توفق بين تعاليم الإسلام واحتياجات العصر.

وحتى فى المسائل الشديدة التعقيد والتى قد يتحرج شيخ مسلم من البحث عن الجديد تجاهها، مثل: المرأة وعلاقاتها بالمجتمع وتحريرها ومسألة الحجاب.. إلخ. تروج شائعات قوية عن إسهام الأستاذ الإمام فى إعداد كتاب صديقة الحميم قاسم أمين عن تحرير المرأة.

* * *

ويمضى الأستاذ الإمام بعد رحلة مجيدة ليترك تلاميذاً يختلفون اختلافاً شديداً حول تفسير تعاليمه.. ويقول الباحث مجيد خضورى: «إن البعض من تلاميذ الإمام قد حاول أن يطور تعاليمه، ويصل بها إلى نهايتها المنطقية، أى أن «ينفى» دور الإسلام كعقيدة تجاه المجتمع ككل، وأن يحصره تجاه الفرد وضميره ووعيه. وكان هذا البعض يرى أن الإسلام عقيدة حية ومن ثم يتعين عليها أن تتطور باستمرار، وأن النهاية الحتمية لهذا التطور هى علمانية المجتمع الإسلامى».

ويمضى خضورى قائلاً: إن هذه الآراء قد رفضت بشدة من جانب «مريدى الإمام من المحافظين وخصوصاً هؤلاء الذين كانوا - برغم ولائهم لشيخهم - إلا أنهم «كانوا يرون أنه قدم تنازلات غير ضرورية لصالح المدنية والتطور الحديث، وكان على رأس هؤلاء المحافظين المتشددين من أتباع محمد عبده صديقه وساعده الأيمن، الشيخ رشيد رضا»(٦٠).

وبرغم أن رشيد رضا كان أقرب المريدين إلى قلب الإمام إلا أنه كان أكثرهم حرصاً على تفسير تعاليمه تفسيراً محافظاً ومتزمتاً إلى أبعد الحدود(٦١).

وهكذا نجد أمامنا ثلاث مدارس .. وليس مدرستين فقط.

- التقليديون.. «المحافظون من شيوخ الأزهر».

- المجددون (الشيخ محمد عبده وتلاميذه المستنيرون».

ـ المجددون المحافظون (الشيخ رشيد رضا وتلاميذه).

وعن هذه المدرسة الأخيرة سنتحدث قليلاً لأنها ذات علاقة بموضوع بحثنا.

لقد قرر رشيد رضا فى بداية الأمر «أن يخوض معركتين لا معركة واحدة، معركة ضد علماء الأزهر الذين كان يريد أن ينتزعهم بعيداً عن نهجهم فى «التقليد» وعن تعصبهم المذهبى وأخرى ضد دعاة التفرنج وكان رشيد رضا يشير دوماً إلى خطورة كلا التيارين.. ويرفضهما معاً وبنفس الحدة»(٦٢).

وفى كتابه «الخلافة أو الإمامة العظمى» يهاجم الشيوخ «الذين إزوروا إلى زوايا مساجدهم أو جحور بيوتهم» ويتهمهم بأنهم عاجزون عن أداء واجبهم، وعن الإبقاء على نقاء أقدس التقاليد وأنبلها، ويهاجم فى نفس الوقت دعاة التفرنج قائلاً: «إنه من الجنون أن نسعى إلى انتزاع مقومات الأمة الإسلامية الدينية والتاريخية، واستبدال مقومات أمة أخرى ومشخصاتها بها»(٦٣).

ورويداً رويداً كان رشيد رضا يتخلى عن تعاليم الإمام، ويبتعد بهجماته العنيفة ضد دعوة «التجديد» عن معسكر أستاذه، بل لعله كان يقترب من معسكر خصوم الإمام من دعاة التقليد «فهو يدعو إلى العودة للمصادر الأولى وحدها، وبالنسبة له فإن العمل والجهد والأمل يتركز فى شىء واحد «الخلافة الإسلامية»، فهى الحكومة المثلى التى بدونها لا يمكن أن يتحسن حال البشرية»(٦٤). «والدولة الإسلامية الأصلية هى فى الواقع خير الدول ليس بالنسبة للمسلمين فحسب ولكن بالنسبة لسائر البشر فهى وسط بين الجمود وبين حضارة الإفرنج المادية التى تفتك بها ميكروبات الفسادوأوبئة الهلاك فهى عرضة للزوال»(٦٥) وهو يبتعد كثيراً عن نهج أستاذه عندما يؤكد أن السيادة المطلقة فى الدولة هى «لأولى الأمر الذين أمر الله بطاعتهم»(٦٦).

وهكذا تمضى دعوة الأستاذ الإمام على يد تلاميذ يضيقون بتجديده وليبراليته، فيتراجعون بها نحو «التقليد» و«المحافظة» ويستمر التراجع. فتلاميذ التلاميذ.. أكثر محافظة..وأكثر تمسكاً بضرورة العودة إلى التقليد.

وقد تأثر الشيخ حسن البنا بالأستاذ الإمام، لكنه تأثر أكثر بكثير برشيد رضا.. وبالنسبة لجماعة الإخوان المسلمين كان رضيد رضا بمثابة «الأب الروحى» وإن كان الإخوان يقدمون حسن البنا فى صورة «أفغانى» عصره(٦٧).

ولكن.. إذا كان أحد الإخوان قد قال إن الأفغانى كان مجرد «مؤذن أو هو مجرد صرخة» وأن رشيد رضا كان مجرد «مؤرخ أو هو مسجل» وأن المرشد كان «بنا»(٦٨). فإن

الشيخ حسن البنا يورد تقديراً محدوداً لهؤلاء الرواد جميعاً «فالأفغانى كان يرى المشكلات ويحذر منها .وكان محمد عبده يعلم ويفكر، ورشيد رضا يكتب أبحاثاً» لكنهم كانواجميعاً فى نظره مجرد «مصلحين دينيين وأخلاقيين يفقتدون الرؤية الإسلامية الشاملة»(٦٩). وربما كان أحدتلاميذ الشيخ البنا أكثر وضوحاً فى تقديم هؤلاء الرواد فهو إذ يمايز بين دعوة محمد عبده ودعوة حسن البنا يقول «إن دعوة الإخوان المسلمين تتميز عن غيرها بأنها تعنى الجهاد والنضال والعمل. وأنها ليست مجرد رسالة فلسفية»(٧٠).

ومع ذلك فإنه يتعين علينا ألا ننسى أن الشيخ أحمد عبدالرحمن البنا والد حسن البنا وأستاذه الأول كان تلميذاً من تلاميذ محمد عبده، وأن الطالب حسن البنا كان قارئاً مثابراً لمجلة «المنار»، ولعله مارس على صفحاتها أولى محاولاته فى الكتابة(٧١).

وإذ إستمر الشيخ رشيد رضا فى تراجعه عن «التجديد» حتى أصبح متمسكاً تمسكاً كاملاً «بالسلفية» مؤكداً أن السلف هم القادرون على فهم المغزى الحقيقى للمبادئ الإسلامية، كما أنزلت فى القرآن ووردت فى الحديث(٧٢). فإنه يستحق أكثر من غيره من الرواد - الذين كانوا أكثر منه تألقاً - مديح وثناء الشيخ البنا، الذى وصف مجلة «المنار» بأنها قدمت أجل الخدمات للإسلام فى مصر وغيرها من البلدان(٧٣). والذى تباهى بأن الشيخ رشيد رضا كان على وشك الانضمام لجماعة الإخوان المسلمين قبيل وفاته(٧٤).

وهكذا يحدد الشيخ حسن البنا موقفه كامتداد أكثر «سلفية» للتيار السلفى من بين تلاميذ محمد عبده.

ويلخص ألبرت حورانى الموقف كله فى عبارة تقول: «إذا كان التاريخ هو ما تعيه ذاكرة الإنسان عن الماضى، فإن هذا الماضى يظل بالنسبة للبعض أملاً يتعين الارتداد إليه، وبالنسبة لبعض المسلمين سيظل العصر الإسلامى الأول صورة وحيدة لما يجب أن يكون عليه العالم»(٧٥).

وقد فهم البعض الدين فهماً ميكافيلياً. وحاول وباستمرار استخدامه أداة فى لعبة السياسة والصراع السياسى والاجتماعى.

وثمة عبارة أوردها توماس هوبز صاحب «الليفياتان» أو «الوحش» حول هذا الموضوع (استميح القارئ ليس فقط فى أن أوردها بنصها، وأنما فى أن أطلب إليه أن يتذكرها من الآن فصاعداً، وهو يطالع صفحات هذا الكتاب. فلربما كانت هذه العبارة قادرة على تفسير الكثير من المواقف التى قد تبدو - فى إطار حسن النية - غير مبررة وغير منطقية.

ويقول توماس هوبز «الدين هو مجرد مانعة للصواعق الاجتماعية، والكنيسة قوة أخرى من قوات الأمن التى تستخدمها الدولة لحفظ الاستقرار الاجتماعى، لا تختلف عن البوليس والجيش فى طبيعتها، ولكنها أفعل منهما أثراً وأوسع مدى، وربما أقل تكلفة، إنها تقيم على كل إنسان شرطياً ملازماً له داخله»(٧٦).

وقد نختلف حول تفسير معطيات هذه العبارة، وقد نرفضها، لكنه يتعين علينا أن نستبقيها فى ذاكرتنا لتفسير مواقف الكثير من القوى الرجعية تجاه الدين، ومحاولاتها استخدامه واستخدام بعض رجاله ومنظماته كأدوات فى صراعها الاجتماعى.

وهكذا كان الأمر فى مصر منذ مطلع القرن العشرين، إذ استمرت المحاولات من جانب الاحتلال البريطانى، تارة، والقصر الملكى تارة أخرى، ثم أحزاب الأقليات ـ عندما نشأت ـ مرة ثالثة لاستقطاب القوى الدينية واستخدامها أداة «أقل تكلفة» من البوليس فى إحكام قبضتها على الإنسان المؤمن.. وإقامة «شرطى ملازم له فى داخله» يعمل دوماً على إخضاعه لصالحها فى كل مواقف الصراع السياسى والاجتماعى.

والأزهر قلعة الإسلام المكينة ورمزه الشامخ فى العالم أجمع، من الطبيعى أن يظل محطاً لمؤامرات هذه القوى وإغراءاتها، وهدفاً لاستقطابه فى خضم هذه الصراعات.

وقد حرص الملك فؤاد منذ أن كان سلطاناً على أن يحكم قبضته على الأزهر وعندما كانت لجنة الثلاثين تصوغ دستور ١٩٢٣ كانت عين فؤاد مركزة أساساً على موضوع العلاقة بين الملك وبين أهم مؤسستين فى ذلك الحين وهما: الأزهر والجيش.

وأتت نصوص المشروع الأول للدستور خالية من أى إشارة لسلطات الملك تجاه الأزهر الأمر الذى يعنى أن لجنة الدستور لم تر منح الملك أى سلطات استثنائية تجاه الأزهر، بل جعلت الإشراف عليه مثله مثل غيره من المؤسسات، للوزارة المسئولة أمام البرلمان(٧٧).. لكن مشروع لجنة الثلاثين قد خضع لتعديلات كثيرة، وبعد صراع مرير أسفرت المعركة عن نص يحال إلى قانون يصدر فيما بعد لينظم «الطريقة التى يباشر بها الملك سلطته.. فيما يختص بالمعاهد الدينية وتعيين الرؤساء الدينيين ،وبالأوقاف التى تديرها وزارة الأوقاف، وعلى العموم المسائل الخاصة بالأديان المسموح بها فى البلاد»(٧٨)، و«إذا لم توضع أحكام تشريعية، تستمر مباشرة هذه السلطة طبقاً للقواعد والعادات المعمول بها الآن»(٧٩)، وهكذا إستخلص الملك بهذا النص اعترافاً دستورياً بأن له سلطة خاصة فيما يتعلق بمسائل الأديان وإقراراً دستورياً ببقاء الوضع الراهن، حتى يصدر قانون جديد ينظم هذه السلطة.

ويعترف الشيخ الظواهرى ـ الذى عينه فؤاد شيخاً للأزهر ـ بأن الملك فؤاد «كان حريصاً على أن يعرف كل شىء عن الأزهر والمعاهد الدينية، فقد كان جلالته يعتبر هذه الناحية من الأمور المصرية الخاصة به يديرها جلالته بدون وساطة أحد من وزرائه»(٨٠).

ولقد حاول الملك فؤاد –ونجح إلى حد كبير– فى استقطاب الأزهر لصفه فى مسائل الصراع السياسى، وبالذات فى خصومته ضد سعد زغلول الزعيم المحبوب من شعبه، والذى كان من المستحيل مقاومة مثل هذا النفوذ الذى يتمتع به بغير استقطاب مؤسسة كالأزهر إلى الصف المعاكس له.

وقد بدأت محاولات السراى باستقطاب عدد من شيوخ الأزهر، ثم فى تبنى بعض مطالب الأزهريين وإظهار حكومة سعد بمظهر الرافض لها. وتطور الأمر إلى مطالبة بعض شيوخ الأزهر بما أسموه رفع الوساطة بين الملك وشيوخ الأزهر «كما لا وساطة بين جلالة الملك وبين رئيس الوزراء، إذ لا يليق فى عهد جلالتكم الميمون أن يحال بين كبير رجال الدين وبين كبير رجال الدنيا»(٨١)، وفى نوفمبر ١٩٢٤ تبرز ظاهرة جديدة، مظاهرة من طلاب الأزهر تتوجه لاستقبال الملك فؤاد لدى عودته من مصيفه بالإسكندرية وهى تهتف «يسقط سعد زغلول» «لا رئيس إلا الملك» وتستمر مثل هذه المظاهرات يشجعها الملك وبوليسه والشيوخ من أصدقاء السراى.

وتزخر ملفات البوليس السياسى بتقارير وافية عن هذه المحاولات، ولنورد واحداً منها كنموذج:

محافظة القاهرة.

إدارة الضبط فرع «ب»٠

الموضوع: تقرير عن حالة الأزهر الشريف يوم ٤ فبراير ١٩٢٧ (نمرة ١٩٠ سياسى سرى).

مطلوب رد٠

حضرة صاحب المعالى كبير الأمناء لحضرة صاحب الجلالة الملك: أتشرف بإخبار معاليكم أنه كان بالأزهر أمس عدد كبير جداً لمناسبة صلاة الجمعة. فألقيت فيه الخطب الكثيرة طوال النهار وفى الليل أيضاً، وقد كانوا يصيحون بالنداءات الآتية من وقت لآخر «يحيا جلالة الملك ـ يحيا حسن نشأت باشا ـ يسقط البرلمان والحكومة وسعد باشا».

وقد كان البوليس مرابطاً على بعد من الجامع الأزهر، ولم تحصل مظاهرات ولم تقع حوادث.

وهذا لمعاليكم للمعلومية.

وتفضلوا معاليكم بقبول فائق الاحترام.

تحريراً فى ٥ فبراير ١٩٢٧ ـ حكمدار بوليس مصر. (٨٢).

ويعقب د.عبدالعظيم رمضان على هذه العلاقة قائلاً: «استمرت علاقة التحالف بين القصر والأزهر طوال عهد الملك فؤاد وحتى نهاية حياته. ونظراً لأن القصر كان على علاقة تحالف أخرى مع الإنجليز، فلم يكن هناك مفر من أن يتأثر الأزهر بهذه العلاقة أيضاً. وحين إتجهت السياسة البريطانية فى ربيع ١٩٣٥ تحت ضغط الحركة الوطنية إلى تقديم بعض الترضيات للجماهير المصرية، فرضت على الملك إخراج الشيخ الظواهرى من منصب شيخ الأزهر، وتعيين الشيخ مصطفى المراغى مكانه ولم يجد مفراً من إجابة الطلب، وكان الشيخ المراغى على صلة بالسلطات البريطانية منذ أن كان موظفاً كبيراً فى السودان، وعندما نقل إلى مصر اتصل باللورد جورج لويد المندوب السامى البريطانى، وأصبح على علاقة وطيدة معه، إلى حد أنه لم يكن يمضى أسبوع دون أن يكون الشيخ مدعواً أو زائراً فى دار المندوب السامى، كما حكى محمد شفيق رئيس القسم العربى بدار المندوب السامى»(٨٣).

وهكذا إمتد التدخل فى شئون الأزهر وفى أمور الدين، من الملك العاجز، إلى أحزاب الأقليات الفاشلة، إلى الإنجليز المحتلين.

فقط.. لنتذكر الأسطر السابقة ونحن نتابع فى صفحات قادمة علاقات الشيخ حسن البنا بالقصر، وبالشيخ المراغى، ونتابع مواقفه المتشددة تجاه الوفد والمتساهلة، بل والصديقة تجاه أحزاب الأقلية.

هل اللعبة تتكرر؟

لسنا نريد إجابة سريعة، فلننتظر تسلسل الأحداث، ولنترك للاستقصاء العلمى وليس للعاطفة الحكم والقرار.

● الشيخ

المسرح الآن معد كى يظهر «البطل».

فبغير الصفحات السابقة يكون الحديث عن الشيخ حسن البنا حديثاً علمياً وموضوعياً أمراً مستحيلاً، ولقد تصور البعض بل وحاولوا كثيراً استخدام أسلوب السيرة الذاتية البحتة

فى التعريف بالقادة السياسيين ومنهم حسن البنا، ونعتقد أن هذا وأن كان أيسر السبل إلا أنه أكثرها بعداً عن الأسلوب العلمى لكتابة التاريخ.

فعملية التأريخ لقائد سياسى ليست ممكنة بغير تقديم «بانوراما» واسعة وعميقة للمكونات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية لشخصيته ومنهجه وسلوكه.

والآن من هو إذن حسن البنا؟

ربما كانت الإجابة الأكثر دقة هى أنه نبت لهذه الصراعات فى تلك الفترة:

- الصراع بين العلم وحركة التنوير عامة وبين القوى المحافظة.
- الصراع بين الوطنية المصرية وبين دعاة الخلافة الإسلامية.
- التبشير.. والتبشير المضاد.
- التناقض بين دعاة الحضارة الغربية والمتوسطية وبين رافضيها.
- الصدام بين «التجديد» و«التقليد».
- دور الدين ومؤسساته فى لعبة السياسة.

من هذه الصراعات والتناقضات وفى خضمها نبتت شخصية حسن البنا وتفاعلت وإتخذت مواقفها. ولهذا فإنه بغير بحثنا عن هذه الصراعات يوشك الحديث عن حسن البنا أن يكون مسطحاً وبغير عمق وأن يكون مجرد سرد لسيرة ذاتية معزولة عن أحداث مجتمعها.

وباختصار.. لقد كانت الصفحات السابقة حديثاً فى صلب موضوعنا وليست مقدمة له.

ولا يبقى أمامنا كى نتعرف تعرفاً مبدئياً على الرجل سوى قليل من الكلمات عنه (٨٤).

- الاسم: حسن أحمد عبدالرحمن البنا «الساعاتى».
- تاريخ الميلاد: أكتوبر ١٩٠٦.
- محل الميلاد: المحمودية - بحيرة.
- مهنة الوالد: مأذون الناحية وإمام مسجد القرية، وقد مارس أيضاً مهنة إصلاح الساعات ومن هناكان لقب «الساعاتى».

وكان الشيخ أحمد عبدالرحمن البنا واحداً من طلاب الأزهر على زمن الإمام محمد عبده، وهو واحد من الأزهريين الذين واصلوا طوال حياتهم الدراسة والبحث فى كتب الفقه.

وقد أنجب الشيخ أحمد خمسة أبناء أكبرهم «حسن» الذى حرص أبوه فيما بعد على أن

يؤكد أن مولده وطفولته قد أحاطت بهما هالات من الخوارق والكرامات، وعندما بلغ الطفل الثامنة من عمره دفع به أبوه إلى كتاب القرية حيث تتلمذ على يد أزهرى شديد التدين وهو الشيخ محمد زهران.

ويحاول الوالد ـ بعد وفاة إبنه أن يضيف إلى الصورة الباهرة له فى أذهان مريديه مزيداً من التفاصيل التى تبدو مبالغاً فيها، فالطفل ابن الثامنة ينزعج من منظر تمثال لامرأة شبه عارية فوق أحد زوارق النهر فى قريته فيلجأ للبوليس ويصمم على إزالة التمثال وينجح فيما أراد(٨٥) فهل هذا منطقى؟

ومن الكتاب إلى المدرسة الابتدائية فى سن الثانية عشرة، وهناك التقى بمدرس متدين آخر ضمه إلى جماعة بالمدرسة اسمها «جماعة السلوك الاجتماعي» وهى جماعة استهدفت ترويض نفوس أعضائها من التلاميذ وإلزامهم بالتحلى بالأخلاق الحميدة فى سلوكهم اليومى والتعفف عن الشتائم أو مخالفة تعاليم الدين، وكانت الغرامات المالية المرهقة بالنسبة لتلاميذ فقراء هى سلاح الإرغام فى يد الجماعة.

وسرعان ما أصبح الفتى المتدين ابن الشيخ المتدين تلميذ معلم الكتاب شديد التدين رئيساً للجماعة، ولكنه سرعان ما اكتشف أيضاً ضعف منطلقات الجماعة فأسس مع عدد من زملائه الأكثر حماساً «جماعة النهى عن المنكر» وكان هدفها فرض الالتزام بتعاليم الدين من خلال توجيه خطابات تهديد إلى من ترى أنهم من بين سكان المدينة، لا يلتزمون بهذه التعاليم.

وسريعاً تأتى الخطوة التالية.. فمن «جماعة النهى عن المنكر»، إلى جماعة صوفية اسمها «إخوان الحصافية».. وهكذا أصبح الفتى التلميذ بالمدرسة الابتدائية «صوفياً» يحضر حلقات الذكر ويهتز فى صفوفها مع رجال أكبر منه سناً بكثير، لكنه يلتقى فى حلقات الذكر بتلميذ صغير السن مثله هو أحمد السكرى، ولعل التلميذين على حداثة سنهما قد وجدا أن «التطوح» فى حلقات الذكر لا يكفى وأنه من الضرورى القيام بعمل ما للحفاظ على تعاليم الدين ولمقاومة النشاط التبشيرى الذى قيل أنه قد هبط إلى المدينة الصغيرة فأثار كثيراً من المشاعر فيها، وهكذا أسس التلميذان مع زمرة من زملائهما جمعية جديدة اسمها «جمعية الحصافية» ظلت تعتبر نفسها فرعاً من الجماعة الصوفية الكبيرة لكنها تتميز عنها بالعمل الجدى للحفاظ على تعاليم الدين، وعلى مقاومة البعثات التبشرية. وأصبح حسن سكرتيراً للجمعية، وكان لم يزل فى الثالثة عشرة من عمره.

ثم عام واحد أو عامان ـ إذن ـ قفز فيهما الفتى الصغير من «جماعة السلوك الاجتماعى»

إلى «النهى عن المنكر» إلى حلقات الذكر الحصافية.. إلى «العمل الجاد» دفاعاً عن الإسلام.

عام آخر.. ويلتحق الفتى ابن الرابعة عشر بمدرسة المعلمين الأولية فى دمنهور حيث ينغمس أكثر فأكثر فى النشاط الدينى وفى حلقات الذكر للحصافيين الأمر الذى يمكنه فى عام ١٩٢٢ من أن يصبح عضواً عاملاً فى صفوفهم. ويبلغ به الحماس إلى درجة ارتدائه لبعض الوقت العباءة البيضاء والعمامة ذات الذؤابة.. وبدأ فى دراسة كتب الفقه الإسلامى، وفى هذه الأيام يصطدم الفتى بكتاب أبوحامد الغزالى «إحياء علوم الدين» ويصطدم بما يقوله الغزالى من أن التعليم يجب يقتصر على ما هو ضرورى «لتحقيق الواجبات الدينية واكتساب الرزق» ويتساءل الفتى فى حيرة عن مدى فائدة استمراره فى الدراسة بمدرسة المعلمين الأولية. وبعد تردد واصل الفتى دراسته فى الدراسة بمدرسة المعلمين الأولية حتى تركها فى عام ١٩٢٣ ليلتحق بدار العلوم.

وهكذا يصل الفتى الحصافى الانتماء الريفى النزعة إلى قاهرة العشرينيات(٨٦). التى كانت تموج بصراعات حزبية مريرة، وبتيارات علمانية عارمة، وباتجاه قوى نحو المدنية الحديثة.. وفى أثناء ذلك كانت الثورة الكمالية تلهم الليبراليين ودعاة التجديد المزيد من الشجاعة، والمحافظين ودعاة الخلافة المزيد من السخط والتشدد. وتلفت الفتى حوله بعين متشكك يرى فى كل ما حوله «إضعافاً لشأن الدين» (٨٧). وعن هذا الخضم العارم يكتب البنا عن حيرته هو وزملائه «والله وحده يعلم كم أمضينا من ليال لبحث حال الأمة، نحلل العلة ونفكر فى وسائل العلاج الممكنة ولقد بلغ بنا القلق درجة وصلنا معها إلى حد البكاء»(٨٨) ولا ملاذ لفتى ريفى شديد التدين يشعر بالغربة القاتلة فى مدينة القاهرة سوى «الصوفية»· ومن جديد يعود الفتى للاتصال بجمعية الحصافية وإلى جوارها ينضم إلى جمعية أخرى تنظم المحاضرات الإسلامية هى «جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية»(٨٩).

هو إذن صوفى يأخذ نفسه بالجد فى العبادات كغيره من أبناء جماعته، وهو باحث عن المعرفة الإسلامية يستمع إلى محاضراتها. ولكن ذلك لا يصلح حال القاهرة المتمردة أمام عينيه، تلك المدينة التى يشعر تجاهها بغربة قاتلة، وتجاه تصرفات جمهورها برفض قاطع. هنا تتكون النفحة الأساسية التى حركت وجدان الفتى طوال ما بقى من حياته «المسجد وحده لا يكفى»، فلابد من رجال يهبون حياتهم «للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر»· ومنه ومن عدد من أصدقائه الطلاب فى دار العلوم، والأزهر تكونت مجموعات للوعظ والإرشاد فى المساجد والمقاهى وغيرها من التجمعات الشعبية. وكان هدف البنا المحدد هو سد هذه الهوة التى تفصل بين الحياة الفعلية للإنسان المسلم وبين التعاليم الإسلامية، وذلك بحث المسلم على أن يتكيف بحياته ويحصرها فى

إطار هذه التعاليم. ومن القاهرة إلى الريف انطلق الشبان الذين أصبح من الممكن اعتبارهم النواة الأولى لجماعة الإخوان المسلمين(٩٠).

وفى هذه الأثناء كان الفتى الشيخ حائراً يبحث عن مشورة لدي الجيل الأكبر سناً من رجال الدين. وفى المكتبة السلفية تعرف على مديرها محيى الدين الخطيب، ثم تعرف على الشيخ رشيد رضا، وفريد وجدى وأحمد تيمور باشا محاولاً أن يستلهم من هؤلاء طريقاً جديداً للعمل من أجل الإسلام.(٩١).

والتقى أيضاً بمشايخ الأزهر فلم يعجبه منهم استسلامهم أمام التيارات غير الدينية. وبدأت علاقاته بهذه الفئة من الموظفين الدينيين - كما أسماهم هو - تؤرقه. فإذا كان شيوخ الأزهر على هذا الحال من الاستسلام فماهو السبيل؟

كان الفتى يدرك أنه لابد من عمل ما. لابد من طريقة ما لنشر الدعوة الإسلامية ومقاومة هذه التيارات الجارفة للمدنية الحديثة وللدعاوى العلمية والعلمانية.

لكن واحداً ممن قابلهم لم يسد له نصحاً وافياً ولا إجابة شافية.

وفى السنة النهائية بدار العلوم طُلب إليه كتابة مقال مدرسى موضوعه «تحدث عن الآمال الكبيرة التى تراودك بعد إتمام دراستك. وبين كيف ستعد نفسك لتحقيق تلك الآمال».. وعبر الفتى عن طموحه ومشاعره فى هذا المقال قائلاً: «إن أفضل الناس هم أولئك الذين يحققون سعادتهم بتوفير سبل السعادة للآخرين والتفانى بالعمل الصادق فى خدمة الإنسانية، عن طريق التعليم وإسداء النصح.

ويسكب الفتى على الورق كل ما فى نفسه من مرارة «أننى أعتقد أن شعبى قد إبتعد عن أهداف إيمانه نتيجة للمراحل السياسية التى مر بها، والتأثيرات الاجتماعية التى تعرض لها، وتحت تأثير الحضارة الغربية والفلسفة المادية والتقاليد الإفرنجية». وهكذا فقد أصبح إيمان الشباب فاسداً وسادت بينهم «مشاعر الشك والحيرة، وبدلاً من الإيمان تفشى الإلحاد». وبعد كل هذا القدر من النقد لمجتمعه يقرر الفتى الشيخ إطار مستقبله «أن يكون ناصحاً ومعلماً، وأن يكرس نفسه لتعليم الأطفال بالنهار وآبائهم بالليل، مبصراً إياهم بأهداف الدين والمصادر الأصلية لرفاهيتهم وسعادتهم فى الحياة ويتعهد بأن يمنح لهذه المهمة أقصى ما يمكنه من مثابرة ونكران ذات، ومن فهم ودراسة، «واهباً لذلك جسداً يشوق لمواجهة المصاعب وروحاً نذرها لله». ثم يختم مقاله بعبارة: «هذا عهد بينى وبين ربى» (٩٢).

بهذه المشاعر يتخرج الفتى الشيخ حسن البنا من كلية دار العلوم عام ١٩٢٧، ويعين

مدرساً للغة العربية بمدرسة ابتدائية فى مدينة الإسماعيلية.

وهكذا أعد المسرح.. وتهيأ البطل.

ولا يبقى أمنامنا سوى أن نتابع الأحداث.

* * *

وفيما سبق من صفحات ألقينا حزمة ضوء مختصرة على صورة مصر «ذلك الزمان» وحزمة أخرى على نشأة الشاب حسن البنا. فماذا لو التقطنا لهما معاً صورة واحدة؟

هنا سنكتشف أننا أمام رجل جديد.

والجديد فى الأمر أنه رجل جديد تماماً، مختلف تماماً.

فحسن البنا جاء مختلفاً عن كل من سبقوه من مفكرين إسلاميين من رفاعة إلى محمد عبده، وهو أيضاً مختلف عن كل من عاصره من السياسيين.

وهو الذى لم يهتم بأن يثقف رجاله بأصول الشريعة وأحكامها كما فعل الآخرون، ومع ذلك فقد استطاع أن يقنعهم أو يوهمهم ـ سيان ـ أنهم حماة الدين ودعاته. وأنهم الأعلى إيماناً، والأكثر إسلاماً.. وأنهم «رهبان الليل وفرسان النهار».

وفيما كانت مصر منهمكة فى مفردات محددة: الاستقلال الوطنى، الدستور، العدالة الاجتماعية وتخوض حول هذه المفردات معارك ضد الاحتلال تارة وضد الملك تارة، وتارة أخرى ضد الطبقات الغنية. قفز هذا الشاب بمفردات مختلفةوربما نقيضه فى بعض الأحيان.

الحزب تقابله كلمة «الجماعة» والاختيار لكلمة الجماعة اختيار مدروس وربما كان ماكراً فهنا يمكن الخلط بين «الجماعة» كمنظمة أو جمعية وبين «الجماعة» كمجموع المسلمين.

وهنا ـ وعند الضرورة ـ يمكن الاستناد إلى الحديث الشريف «من خرج على الجماعة فاضربوه بحد السيف»، وهكذا فعل الأستاذ البنا تماماً، فلدى أول انشقاق ضده أمر بضرب المنشقين «علقة ساخنة» استناداً إلى الحديث الشريف.

والتحرك الحزبى يطلق عليه «الدعوة» والانضمام للجماعة هو «الهداية».

والنضال سواء كان وطنياً أو سياسياً أو اجتماعياً حلت محله كلمة «الجهاد».

والصواب والخطأ حل محلهما الحلال والحرام.

هذه النغمة الجديدة صنع منها حسن البنا بناء أعاد إلى الأذهان ما كان فى الزمان القديم من تسييس للدين، أى استخدام للدين فى الصراع السياسى. ذلك الصراع الذى نشب منذ عثمان وبين على ومعاوية والذى تسترت المصالح القبلية والشخصية فيه برداء الدين وبادعاء أن هذا الطرف هو صحيح الدين وأن الآخر هو «الكافر».

طوى حسن البنا صفحات عديدة من التاريخ، وتجاهل كل الشعارات والمواقف والقيم السائدة. وتبدى جديداً. لكنه جديد سلفى. جديد يعود إلى الوراء، جديد يتخذ من الدين رداءً يتراوح به وبجماعته بين الجماعة الدينية والحزب السياسى والجيش المسلح.. حسب الحاجة. وفى البداية صاح البنا «نحن سلفيون من أتباع الشيخ رشيد رضا» لكن سلفية الشيخ رشيد رضا أتت فى أوعية فكرية، وعبر صراعات قلمية، أما سلفية الأستاذ البنا فقد تحولت إلى ما سنراه عبر الصفحات المقبلة.

الهوامش

(١) د.شلبى شميل ـ فلسفة النشوء والارتقاء ـ الطبعة الثانية ـ مطبعة المقتطف (١٩١٠) .

(٢) المرجع السابق ـ ص٢٨.

(٣) المقتطف ـ مجموعة عام ١٨٧٦.

(٤) محمد عبدالغنى حسن ـ عبدالله فكرى ـ سلسلة أعلام العرب – ص١٩ وما بعدها.

(٥) مجلة البصير ـ مجموعة عام ١٨٧٨ ـ مقال :«القضاء على القضاء.

(٦) د.شبلى شميل ـ المرجع السابق ص ٢٧.

(٧) د.شبلى شميل ـ الجزء الثانى ـ من مجموعة كتاباته (١٩٠٨) ص٦٢.

(٨) الأخبار ـ مجموعة عام ١٩٠٩مقال : ضحايا الجهل لشبلى شميل.

(٩) ولى الدين يكن ـ المعلوم والمجهول ـ الجزء الثانى – ص ١٥٩.

(١٠) ولى الدين يكن ـ التجاريب– ص٢٣.

(١١) مجلة الهلال ـ مجموعة ١٩٦٨.

(١٢) تفسير الخطيب الشربينى ـ الجزء الثانى ـ ص٣٢٨ ـ ٢٣١.

(١٣) مارسيل كولومب ـ تطور مصر ١٩٢٤ ـ ١٩٥٠ ـ ترجمة زهير الشايب (١٩٧٢ ص١٥٩.

(١٤) الكاتب ـ يناير ١٩٧٤ ـ مقال صلاح عيسى ـ بعنوان: طه حسين ومحنة العقلانية فى مصر.

(١٥) الأخبار ـ ١٩٧٣/٢/٢٧ مقال الشيخ أحمد حسن الباقورى بعنوان : هذا الرجل لماذا يظل هدفاً للمهاجمين؟

(16) Kamel -M- Egyptians et Anglais _ Paris, 2em edition (1906) P.181.

(١٧) على فهمى كامل ـ سيرة مصطفى كامل ـ الجزء الأول ـ ص٣٧٨.

(١٨)أنور الجندى ـ عبدالعزيز جاويش ـ ص٨٣.

(19) Ahmed J -The Intellectual Origins of Egyptian Nationalism- Oxford. (1960) P.78

(٢٠) محمد صبيح ـ مواقف حاسمة فى تاريخ القومية العربية ـ ص٣٨٩.

(٢١) المرجع السابق.

(٢٢) حسن البنا ـ قومية الإسلام «مقال».

(23) Khadduri, M-Political Trends in the Arab World- London (1972) p.55

(24) Berger, M.-The Arab World Today - New York (1964) p.318

(25) Khadduri, Ibid -p.70

(٢٦) من مذكرات شيخ الإسلام الظواهرى ـ السياسة والأزهر ـ مطبعة الاعتماد (١٩٤٥) ص١١.

(٢٧) المرجع السابق ـ ص١٢٣.

(٢٨) المرجع السابق ص٢١٧.

(٢٩) على عبدالرازق ـ الإسلام وأصول الحكم ـ القاهرة (١٩٢٥).

(٣٠) آخر ساعة مجموعة عام ١٩٧٠ مقال محمود عوض بعنوان: اتهام ملكى للشيخ بالإلحاد.

(31) Von Grunebaum- Modern Islam, the Search For Cultural Identity- New york, p.65.

(٣٢) إسرائيل – أعداد ـ ١٧ ـ ٣١ يوليو ١٩٣١ ـ ٥ فبراير ١٩٣٢.

(٣٣) د.محمد جابر الأنصارى ـ تحولات الفكر والسياسة فى الشرق العربى، (١٩٣٠ ـ ١٩٧٠) – ص١١٦.

(٣٤) د.محمد محمد حسين ـ الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ـ جـ٢ ـ ص١٥٣

(٣٥) حسن البنا – مذكرات الدعوة والداعية ـ ص١٤٧.

(٣٦) محمود عبدالحليم ـ الإخوان المسلمون ـ أحداث صنعت التاريخ ، رؤية من الداخل ـ جـ١ ـ ص٣٦.

(٣٧) محمد شوقى زكى ـ الإخوان المسلمون والمجتمع المصرى (١٩٥٤) ص٦٠.

(38) Mitchell, R. -The Society OF Muslim Borthers -Oxford - London (1969)

(٣٩) حسن البنا ـ الرسائل الثلاث ـ ص٨٧ وما بعدها.

(٤٠) الشهاب ـ ١٤ نوفمبر ١٩٤٧.

(٤١) الشيخ محمد الغزالي ـ من هنا نعلم ـ ص١٦٥.

(٤٢) رفاعة الطهطاوى ـ مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية ـ الطبعة الثانية ص١٣١.

(٤٣) المرجع السابق ـ ص٩٣.

(٤٤) عبدالرحمن الكواكبى ـ طبائع الاستبداد فى مصارع الاستعباد ـ مطبعة الدستور

العثمانى (١٣١٣ هـ) ص٥٩.

(٤٥) المرجع السابق - ص٥٠.

(٤٦) المرجع السابق ص٦٩.

(٤٧) عبدالرحمن الكواكبى: أم القرى - طبعة محمود أفندى طاهر صاحب جريدة العرب ص٤١.

(٤٨) جمال الدين الأفغانى - الرد على الدهريين - ترجمة محمد عبده وعارف أبى تراب - الطبعة الرابعة (١٩١٤).

(٤٩) جمال الدين الأفغانى - خاطرات جمال الدين - أملاه على محمود باشا المخزومى - بيروت (١٩٣١).

(٥٠) مارسيل كولومب - المرجع السابق - ص١٥٧.

(51) Blunt, W. -Secrret History of Egypt - London (1907),P.493.

(٥٣) د.على الحديدى - عبدالله النديم - ص١٧٧.

(٥٣) الكاتب - أغسطس ١٩٧٤ - مقال طارق البشرى بعنوان : الأزهر بين القصر والحركة الوطنية.

(54) New Middle East, January - February 1975.

Egypt in Search of Religicus and Political Communety. Article by Desmond Stewart.

(٥٥) مجلة الإذاعة والتليفزيون - ١٩٧١/٧/١٠ . مقال د.عثمان أمين بعنوان : «صفحة مجهولة من تاريخنا الفكرى.

(56) Khadduri - Ibid -P.63.

(57) Adams - Islam and Modernism in Egypt-p.39 and 135.

(58) Khadduri - Ibid - p-61.

(59) khadduri -Ibid - p.56.

(60) Ibid -p.65.

(٦١) لمزيد من التفاصيل حول العلاقة بين تعاليم الشيخ محمد عبده وأفكار رشيد رضا

راجع: سامى الدهان، قدامى ومعاصرون - القاهرة (١٩٦١) ص١٧٣ وما بعدها. وأيضاً إبراهيم العدوى - رشيد رضا.

(٦٢) مارسيل كولومب - المرجع السابق ص١٨٦.

(٦٣) رشيد رضا -الخلافة أو الإمامة العظمى - مطبعة المنار بمصر (١٣٤١هـ) - ص١٠١

(٦٤) المرجع السابق ص١١٦.

(٦٥) المرجع السابق - ص١٢٨.

(٦٦) رشيد رضا - كتاب الوحى - ص٢٣٩.

(67) Smith, Wilfed Cantwell - Islam in the Modern history (1957) p.51.

(٦٨) الدعوة - ٢٠ - ٢- ١٥٩١.

(٦٩) حسن البنا - مذكرات الدعوة والداعية - ص ٥٨.

(٧٠) أحمد أنس الحجاجى، الرجل الذى أشعل الثورة (١٩٥٢) ص٤٣.

(71) Mitchell - Ibid P.322.

(72) Kaadduri - Ibid. P.67.

(٧٣) مذكرات الدعوة والداعية – ص٢٧٢.

(٧٤) لمزيد من التفاصيل حول المقارنة بين أفكار رشيد رضا وحسن البنا راجع:

Safran, Nadav - Egypt in Search of Political Commuity. (1960). P.291

(75) Hourani, Albert - Arabic Thought in the Liberal Age. 1789 - 1939 - Oxford (1970)

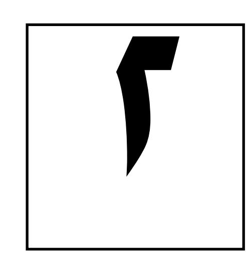
(٧٦) نقلاً عن د.لويس عوض - تاريخ الفكر المصرى الحديث - الجزء الثانى - كتاب الهلال عدد أبريل ١٩٦٩ - ص٢٨٢.

(٧٧) دستور ١٩٢٣ م - ١٥٣.

(٧٨) الكاتب - أغسطس ١٩٧٤ - مقال طارق البشرى، بعنوان: الأزهر بين القصر والحركة الوطنية.

(٧٩) من مذكرات شيخ الإسلام الظواهرى - المرجع السابق - ص٧٩.

(٨٠) الأخبار - ٤ - ١ - ١٩٢٤.



الرجل.. والجماعة

نحن الآن نقترب من نهاية العشرينيات.. ويمسك الشيخ البنا بقلمه ليصف هذه الفترة قائلاً: «إنه الوقت الذى تأرجحت فيه الأمة المصرية فى حياتها الاجتماعية بين إسلامها العزيز والذى ورثته وحمته وألفته، وعاشت به وإعتز بها أربعة عشر قرناً كاملة، وبين هذا الغزو الغربى العنيف المسلح المجهز بكل الأسلحة الماضية الفتاكة من المال والجاه والمظهر والمتعة ووسائل الدعاية»(١).

وكانت محاولات الاستفزاز للمشاعر الإسلامية مستمرة، وتتداخل فيها عناصر مريبة، وقد رأينا كيف أن صحيفة «إسرائيل» لصاحبها «ألبرت موصيرى» وكانت جريدة صهيونية صرفة تجاهر بصهيونيتها(٢) شنت حملاتها حول موضوع «التبشير» فنشرت سلسلة من المقالات التحريضية تحت عنوان «كيف حاولوا تنصيرى» تتحدث فيها عن محاولات تنصير التلاميذ اليهود والمسلمين فى المدارس الكاثوليكية(٣) وتتصاعد فى نفس الوقت الموسيقى المصاحبة من الجانب الآخر، حيث تمارس جماعات مشبوهة محاولاتها للتبشير، بل وشرذمة واستقطاب عدد من المسيحيين الأرثوذوكس نحو الكاثوليكية أو مذاهب لم تكن معروفة فى مصر.

وكانت التجربة الدستورية تتعثر. والبناء الرأسمالى يتعثر أيضاً، والأزمة الاقتصادية العالمية تنعكس آثارها عنيفة على مصر لتشعر الجميع بالإحباط.. ويحاول البعض أن يجد فى «الإسلامية» مخرجاً من هذه الأزمات المتلاحقة.

وفى ١٩ سبتمبر ١٩٢٧ يبدأ العام الدراسى، ويكون على المدرس الشاب أن يرحل إلى مدينة جديدة تماماً، وهو يعترف بأنه لم يكن يعرف موقعها على الخريطة، وكل ما كان يعرفه عنها أنها ترتبط بقناة السويس، وأن فيها معسكرات للمحتلين الإنجليز(٤).

وفى الإسماعيلية يهب الشاب حياته لتنفيذ الفكرة التى آمن بها والتى سجلها كتابه فى موضوع بحثه الذى قدمه لدار العلوم والذى أشرنا إليه سابقاً. كان يعلم الأطفال نهاراً، وآباءهم ليلاً ومعظم هؤلاء الآباء عمال وموظفون صغار وتجار بسطاء(٥)، ومن المدرسة إلى المسجد يلقى خطباً ومواعظ، ومن المسجد إلى المقاهى يتحدث ويخطب ويناقش، ومن خلال ذلك كله

ينتقى أكثر الناس اهتماماً ليكون منهم مجموعة خاصة يمنحها المزيد من وقته وجهده.

ويحدد المدرس الشاب أسهم اتجاهه.. إنه يريد أن يمسك بمصادر النفوذ فى المدينة وقد حدد هذه المصادر:

١ـ العلماء.

٢ ـ مشايخ الطرق الصوفية.

٣ـ علية القوم.

٤ ـ النوادى(٦).

وكانت المدينة تعانى من السيطرة الأجنبية الكاملة، كل شىء للاحتلال ولشركة قناة السويس، حتى لافتات الشوارع مكتوبة بالإنجليزية. أما المصريون فلا يخصهم فى هذه المدينة سوى «البؤس» وعلى أى حال فإن دعوة حسن البنا «لم تكن موجهة إلى كبار موظفى شركة القناة وإنما إلى العمال المطحونين وإلى الفقراء، وهؤلاء الذين عاشوا الحرمان فى مواجهة الامتيازات الصارخة للمجتمع الأوروبى فى المدينة، كانوا على أتم استعداد للإنصات لدعوة البنا»(٧).

ولعل هذه المفارقة ذات مغزى، فالبنا يبحث عن الأعيان فيأتيه العمال.. وأغلب الظن أنهم أتوا إليه عبر الطرق الصوفية.

وبرغم انهماك حسن البنا فى عمله الجديد فى الإسماعيلية، وبرغم إحساسه بخصوبة التربة فى الإسماعيلية وسرعة عطائها، إلا أنه لم يقطع علاقاته بالقاهرة. تلك المدينة التى لم ينس لها أبداً خطاياها.

وفى عام ١٩٢٧ أيضاً كانت هناك فى القاهرة ـ ولنفس الأسباب التى حركت وجدان الشيخ الشاب فى الإسماعيلية ـ حركة متقدة بين بعض الدعاة الإسلاميين انعكست «فى تشكيل جمعيات دينية ذات طابع اجتماعى، تعمل على تربية الجيل الجديد، وفقاً للتعاليم والأخلاقيات الإسلامية، ودونما خوض فى الواجبات الملحة تجاه المجتمع ككل، وكانت أهم هذه الجمعيات «جمعية الشبان المسلمين»(٨). وقد أسهم فى تأسيس هذه الجماعة العديد من الشخصيات الإسلامية بعضها من رجال الحزب الوطنى «عبدالحميد بك سعيد والشيخ عبدالعزيز جاويش» وبعضها من تلاميذ الشيخ محمد عبده «أحمد تيمور باشا، ومحب الدين الخطيب ومحمد الخضر حسين»(٩). والحقيقة أن جمعية الشبان المسلمين برغم أنها «قد رفعت شعارات دينية صريحة إلا أنها لم تهتم فى نشاطها العملى بتعميق التعاليم الإسلامية، كذلك فإنها قد توجهت

أساساً إلى الشبان ودوائر المتعلمين ولم تبذل أى جهد للتوجه نحو الجماهير، وكانت الحاجة ملحة فى الدوائر الإسلامية إلى التركيز على العمل الدينى فى مواجهة التيارات العلمانية.. وهكذا تكونت جماعات عدة ذات واجهات إسلامية لكن أحداً منها لم يستطع أن يعمق جذوره، وأن يكسب تأييداً كذلك الذى كسبته جماعة الإخوان المسلمين»(١٠).

وهكذا فإن حسن البنا، برغم اتصاله بجماعة الشبان المسلمين، وبرغم أنه كان مراسلاً فى الإسماعيلية لمجلة «الفتح» التى أشرف على تحريرها محب الدين الخطيب أحد قادة الشبان المسلمين إلا أنه كان يشعر بالحاجة إلى تأسيس جماعة من نوع جديد.

وكانت اتصالاته فى الإسماعيلية تتبلور فى عدد محدود، وبرغم جهده المكثف واتصالاته الواسعة.. تبلور الأمر فى البداية فى ستة من العاملين بالمعسكرات البريطانية.

كان ذلك فى مارس ١٩٢٨.. عندما إجتمع البنا بالرجال الستة.. وقد حرص البنا على أن يروى لنا قصة الاجتماع الأول، وأن يرويه بأسلوب درامى يوحى بأن الدعوة قد نبعت من نفوس أتباعه وأنه لم يفرضها على أحد. لقد تجمع الرجال الستة.. وتوجهوا لحسن البنا، وبعد أن شكروه على ما بذله من جهد فى تعليمهم وتعريفهم بأمور دينهم قالوا: «لقد سمعنا ووعينا وتأثرنا، ونحن لا نعرف السبيل العملى للوصول إلى عزة الإسلام وخدمة ورفاهية المسلمين.. لقد سئمنا حياة الذل والقيد هذه.. وعار علينا أن نرى العرب والمسلمين بلا منزلة ولا كرامة إذ أنهم ليسوا أكثر من أجراء وتابعين للأجانب. ونحن لا نملك شيئاً إلا دمنا وأرواحنا.. وقليل من المال، وإنا لنشعر بالعجز عن تفهم الطريق إلى العمل كما تفهمه أنت، ولا نعرف الطريق إلى خدمة الوطن والدين كما تعرفه أنت. وكل ما نرغب فيه الآن هو أن نقدم لك ما نملكه حتى نصبح فى حل من المسؤولية أمام الله. ولكى تصبح أنت مسئولاً أمامه عما يجب أن نقوم به، فإذا تعاهدت مجموعة أمام الله وبإخلاص على أن تحيا فى سبيل دينها وأن تموت فى سبيله، وعلى ألا تسعى إلا إلى ما فى رضاه، فسوف تضمن نجاحها وفلاحها مهما قل عدد أعضائها»(١١).

وتبدو الصورة الدرامية واضحة من فخامة الأسلوب وعمق الفكرة. ولعلها تبدو كذلك أيضاً عندما يؤكد الشيخ البنا فى حرص على أن الدعوة قد جاءته ولم يطلبها، والبيعة قد أتته ولم يذهب إليها، وأنه حمل على كتفيه - دون أن يطلب لنفسه - مسئولية القائد.

وتبدو هذه العبارات الفخمة والحماسية مثيرة للحيرة إذا ما علمنا حقيقة أصحابها. ونطالع للأستاذ البنا: «وفى ذى القعدة ١٣٤٧هـ (مارس ١٩٢٨) فيما أذكر زارنى بالمنزل أولئك الإخوة الستة حافظ عبد الحميد (نجار) أحمد الحصرى (حلاق) فؤاد إبراهيم (مكوجى)

عبدالرحمن حسب الله (سائق) إسماعيل عز (جناينى) وزكى المغربى (عجلاتى)، وجلسوا يتحدثون إلىّ وفى صوتهم قوة، وفى عيونهم بريق، وعلى وجوههم سناً الإيمان والعزم وقالوا: »(١٢).

فهل يمكن أن تكون هذه ألفاظ وعبارات صادرة من هؤلاء؟ إن الأستاذ البنا قد أتقن دوماً فن إخراج المواقف والإيحاء بقوتها وفخامتها، لكننى أعتقد أنه لم يتقن فن صياغة الألفاظ وفق المستوى الثقافى والمعرفى واللغوى لأصحابها. لكن ذلك كله يمكن أن يفهم فى إطار التعبئة الروحية التى أتقن فنونها والتى اعتاد الإخوان أن يتقبلوها دون تردد، بل ودون تمحيص.

ويكاد «ريتشارد ميتشل» أن يقرر ذات الفكرة فهو يتوقف أمام العبارات المتقنة المنسوبة لهؤلاء العمال قائلاً: «لا يمكن التحقق مما قالوه بالفعل فى تلك المناسبة، أما ما نسب إليهم فهو جدير بالاهتمام لسببين أولهما: تلخيصه الدرامى الذى لا يخلوا من دقة لمطامح الحركة وروحها، وثانيهما تعبيره بوضوح عما أصبح مصدراً رئيسياً لقوتها وهو طبيعة العلاقة بين القائد والأتباع»(١٣).

وفى هذا الإطار يحرص البنا على أن قيادة الدعوة وسيطرته عليها وإمامته لها قد جاءته دون أن يطلبها، أو يسعى إليها، وهو ما نشك فيه كثيراً.

وتكتمل الصورة الدرامية عندما يتحدث البنا عن تأثره العميق بكلمات الرجال الستة، وتهيبه من تحمل المسؤولية التى ألقيت على عاتقه، وكيف أنهم أقسموا جميعاً على أن يكونوا «جنداً لرسالة الإسلام» وتباحثوا فى اسم للجماعة فقال البنا «نحن إخوة فى خدمة الإسلام ومن ثم فنحن الإخوان المسلمون»(١٤).

وبرغم اختلاف الشيخ البنا مع رؤية الجماعات الدينية السابقة إلا أنه قد أعلن عن نفسه فى البداية كجماعة دينية خالصة هدفها «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر»(١٥).

ويلاحظ أن البنا قد أكد أن جمعيته لم تكن فى البداية سوى امتداد للجمعية «الحصافية الخيرية» التى دعت إلى مكارم الأخلاق ومقاومة المنكرات وحملات التبشير «وقد كافحت الجمعية فى سبيل رسالتها مكافحة مشكورة وخلفتها فى هذا الكفاح جمعية الإخوان المسلمون»(١٦) وكان البنا يؤكد في البداية أن هدف جمعيته يتلخص فى «الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله، وتطهير العقول من الخرافات والأوهام، وإرجاع الناس إلى هدى الإسلام الحنيف»(١٧).

ويلاحظ أحد الباحثين أن هذه الأهداف لم تكن لتختلف مطلقاً عن هدف أي جماعة إسلامية خيرية(١٨) ويعزز استنتاجه هذا برؤية لأحد مؤسسى الجماعة هو د.عبدالرحمن حسب

الله فى ذكرياته التى يؤكد فيها أن الجماعة كانت فى البداية تمثل جمعية خيرية(١٩).

لكن البنا يعود وبعد فترة ليؤكد «أيها الإخوان: أنتم لستم جمعية خيرية ولا حزباً سياسياً ولا هيئة موضوعية الأهداف محدودة المقاصد، ولكنكم روح جديد يسرى في قلب هذه الأمة ينجيه بالقرآن، ونور جديد يشرق فيبدد ظلام المادة بمعرفة الله»(٢٠) إنها كلمات مطاطة لا يمكن لأى باحث أن يمسك بها.

ويلاحظ باحث آخر أن البنا كان يقدم لأتباعه مزيجاً من «التقاليد الصوفية المتجردة، مع الفكر العقائدى ولكن دون محتوى نظرى ولو حتى فى إطار إسلامى بحت»(٢١).

وربما كان ذلك بسبب حرص البنا على عدم التمذهب بجماعته، بمعنى عدم إعلان انتماء جماعته أو تفضيلها لمذهب من المذاهب الأربعة أو لغيرها من المدارس أو الحركات التى ظهرت على الامتداد التاريخى للعمل الإسلامى. فالمذاهب الأربعة واجبة الاحترام والاختلافات بينها يتعين النظر إليها بعين الحب والإخاء. فقد حرص البنا على ألا يدع مجالاً للاختلاف بين المسلمين إزاء دعوته(٢٢).

وعلى أي حال فقد «نجحت جماعة الإخوان فى تقديم نفسها كحركة دينية واعتبرت نفسها البديل عن تعثر الاتجاهات العلمانية وتعثر أنماط وأنظمة الحكم والقيم الأوروبية «المستوردة» وقدمت نفسها إلى أنها القادرة على تقديم الحلول المحددة للقضايا الأيديولوجية والتناقضات الاجتماعية التى واجهت المجتمع المصرى فى ذلك الوقت، مؤكدة أن القرآن هو الأساس القوى لقيام مدينة فاضلة»(٢٣).

وقبل أن نحاول فحص هذه المقولة تفصيلاً تلح علينا ملاحظة أوردتها باحثة فى تاريخ الفكر السياسى المصرى إذ لاحظت ذلك الحماس غير المعتاد الذى استقبلت به جريدة كـ«الأهرام» جماعة الإخوان المسلمين. فمنذ نشأة الجماعة و«الأهرام» تتابع بصورة غريبة نشاط الجماعة مقرظة ومؤيدة. فقد نشرت فى يناير ١٩٢٩ صورة للمؤسسين وعددهم أثنى عشر عضواً. وفى فبراير ١٩٢٩ خبر عن تأسيس فرع للجماعة فى أسيوط ثم خبر عن افتتاح فرع القاهرة فى شارع القصر العينى، وبعدها أخبار عدة عن تأسيس فروع فى نجع حمادى وبنها.. إلخ(٢٤).

ثم تعاود جريدة «الأهرام» التى اشتهرت بتحفظها التقليدى تجاه الجماعات الدينية وخاصة الإسلامية منها، إهتمامها بل ودعايتها للجماعة: «إن الإخوان يقدمون للبيئة المصرية معهداً علمياً متكاملاً بإنشائهم قسماً ليلياً للغات الحية وآخر للفنون الجميلة نذكر منها

الموسيقى الشرقية، وفن التمثيل من الناحية الأخلاقية، وأنشأت قسماً للحفر، بالإضافة إلى القسم الرياضى، وبجانب هذه الأقسام إهتمت الجماعة بتكوين مكتبة عامرة بالمؤلفات النفيسة والمطبوعات، مما جعلها مرجعاً وافياً بحاجة الأعضاء»(٢٥).

ونتجاوز هذه الملاحظة.. ونتركها كعلامة استفهام.

ونحاول أن نتقدم فى بحثنا.. وأمامنا خطوتين مهمتين

أن نلقى نظرة على الرجل.. وأخرى على الجماعة.

فقط يتعين علينا أن نحذر من أن مجرد محاولة فصل الرجل عن الجماعة تشبه محاولة الجراح استخدام مشرطه بين عضلتين فى عضو واحد.

● الرجل

ماذا يمكن أن يحدث عندما ينصهر فى بوتقة واحدة ولاء الصوفى لشيخه، وبيعة المريد لإمامه، بوفاء السياسى لزعيمه؟

● الإجابة.. يحدث ذلك النوع الغريب من الحب الذى ربط كل إخوانى بالشيخ حسن البنا.. «أرم بنا حيث شئت، فوالله لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك»(٢٦) هكذا حدثه أحد أتباعه.

● «كان كل منا يشعر أنه يقف منه موقف المريد من شيخه، وقد أسلم له القياد ليأخذ بيده إلى الله»(٢٧) وهكذا تحدث عنه واحد من كبار قادة الإخوان.

● «كان يجلس على الحصير إذا كان المجلس أرضاً.. وفى آخر الصفوف إذا اصطفت المقاعد للجلوس، منكمشاً فلا يكاد يرى، متواضعاً فلا يكاد يعرف، يلبس فى غالب أحيانه الجلباب العادى من أرخص الأقمشة»(٢٨) هكذا وصفه زعيم إخوانى آخر.

● ويتحدث عنه كاتب أمريكى فيقول: «زرت هذا الأسبوع رجلاً قد يصبح من أبرز الرجال فى التاريخ المعاصر، وقد يختفى إذا كانت الحوادث أكبر منه، وذلك هو الشيخ حسن البنا زعيم الإخوان، كان الرجل خلاب المظهر، رقيق العبارة، بالرغم من أنه لا يعرف لغة أجنبية، لقد حاول أتباعه الذين كانوا يترجمون بينى وبينه أن يصوروا لى أهداف هذه الدعوة وأفاضوا فى الحديث على صورة لم تقنعنى، وظل الرجل صامتاً حتى إذا بدت الحيرة على وجهى قال لهم: قولوا له شيئاً واحداً هل قرأت عن محمد؟ قلت نعم، قال هل عرفت ما دعا إليه وصنعه؟ قلت نعم، قال هذا ما نريده. لقد نظرت إلى هذا الرجل، سمته البسيطة، ومظهره العادى، وثقته

التى لا حد لها بنفسه، وإيمانه العجيب بفكرته، وإنى أتوقع أن يجئ اليوم الذى يسيطر فيه هذا الرجل على الزعامة الشعبية، وليس فى مصر وحدها، بل فى الشرق كله»(٢٩).

ويمضى الكاتب الأمريكى: «لقد حمل حسن البنا المصحف ووقف به فى طريق رجال الفكر الحديث» «وكان الرجل القرآنى يؤمن بأن الإسلام قوة نفسية قائمة فى ضمير الشرق وأنها تستطيع أن تمده بالحيوية التى تُمكن له فى الأرض».

وهكذا يمكننا أن نجد العشرات والعشرات من الآراء التى تثير دهشة القارئ لما قد يلمحه فيها من مبالغة، والعجيب أن هذا القدر من الإفراط فى الحب لدى أتباع الشيخ يقابله مثله، وربما أكثر ـ من الخصومة والرفض لدى مناوئيه.

أى رجل هذا؟

نعود مرة أخرى.. إلى فحص ملفه.

مدرس لغة عربية فى مدرسة ابتدائية بالإسماعيلية، وعندما بدأ نشاطه الواسع فى صفوف العمال والحرفيين خاض غمار هذا النشاط بحماس يفوق الوصف، وكان حماسه هذا يأسر أتباعه وخصومه معاً. كان لا يعرف اليأس ولا التعب، يقحم نفسه على المجلس، أى مجلس، محتمياً بدعوته إلى القرآن والدين.

قرر يوماً أن ينشئ فرعاً لجماعته فى «أبو صوير» فسافر إلى البلدة وحيداً، ولم يكن يعرف فيها أحداً ومضى فى الشارع يتفرس فى وجوه الناس فى الطرقات والمقاهى والحوانيت حتى رأى صاحب دكان «وقوراً مهيباً سمحاً فيه صلاح وله منطق ولسان. ورأيته يبيع ويتحدث إلى زبائنه فتوسمت فيه الخير فسلمت عليه وجلست إليه وإلى من معه فى الدكان، وقدمت له نفسى والغرض الذى من أجله زرت «أبو صوير» وأننى توسمت فيه الخير ليحمل أعباء هذه الدعوة.وأخذت فى حديثى ألفت نظر الجالسين إلى نقاط أساسية: إلى سمو مقاصد الإسلام وعلو أحكامه وإلى ما فى المجتمع من فساد وشر وسوء، وإلى أن ذلك ناتج عن تركنا لأحكام الإسلام. وإلى وجوب الدعوة إلى تصحيح هذا الوضع وإلا كنا آثمين. لأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وبذل النصيحة فريضة واجبة. وإلى أن الطريقة الفردية وحدها لا تكفى»(٣٠).

ويمكن القول إن رحلة أبو صوير هذه قد تكررت مئات بل وآلاف المرات، والشيخ الشاب يحمل حقيبة صغيرة فيها ملابسه يتجول من قرية لقرية، ويقصد أعيان القرى يقيم فى مضايفهم، يتحدث ويناقش ويدعو، فإن لم يجد صدراً رحباً فالمسجد موجود فيه يستريح، وينام ويدعو الناس.

«وكان أعجب ما فى الرجل صبره على الرحلات فى الصعيد، هذه الرحلات التى لا تبدأ إلا فى فصل الصيف حيث تكون بلاد الوجه القبلى فى حالة غليان، وفى أحشائها ينتقل الرجل بالقطار والسيارة والدابة وفى القوارب وعلى الأقدام. وهناك تراه غاية فى القوة واعتدال المزاج. لا الشمس اللافحة ولا متاعب الرحلة تؤثر فيه ولا هو يضيق بها». «وقد أمدته هذه الرحلات فى خمسة عشر عاماً زار خلالها أكثر من ألفى قرية، وزار كل قرية بضع مرات، بفيض غزير من العلم والفهم للتاريخ القريب والبعيد للأسر والعائلات والبيوتات وأحداثها وأمجادها وما ارتفع منها وما انخفض، وألوانها السياسية وأثرها فى قراها، ورضا الناس وبغضهم لها. وما بين البلاد أفراداً وأحزاباً وهيئات وطوائف من خلافات أو حزازات. وكان يزور أحياناً بلداً من البلاد بلغت فيه الخصومة بين عائلتين مبلغها، وكل عائلة تود أن تستأثر به لتنتصر على الأخرى فيقصد إلى المسجد مباشرة، أو يغير طريق سفره فلا يستقبله أحد إلا بعد أن يكون قد قصد إلى دار عامل فقير فى البلد. وكنت إذا قلت له فلان «الحسنى» مثلاً أو «الحديدى» أو «الحمصانى»، قال لك: إن هذا الاسم تحمله خمس أسر أو أربع إحداها فى القاهرة والثانية فى دمنهور والثالثة فى الزقازيق والرابعة فى.. فأيهما تقصد؟. وقد حدثنى أنه كان يدخل بلداً من البلاد أحياناً لا يعرف فيه أحداً فيقصد إلى المسجد فيصلى مع الناس ثم يتحدث بعد الصلاة عن الإسلام.. وأحياناً ينصرف الناس عنه فينام على حصير المسجد وقد وضع حقيبته تحت رأسه والتف بعباءته»(٣١).

وكانت هذه الشبكة الواسعة جداً من العلاقات الشخصية هى مصدر زعامة حسن البنا وهيمنته على الجماعة، فإن عشرات الآلاف من أعضاء الجماعة كانوا يفخرون بأنهم أصدقاء شخصيون للمرشد(٣٢) ومن هذه الصداقات وبها أقام المرشد جماعته وهيمن عليها. وعندما كانت الجماعة بصدد شراء المبنى الذى أصبح مركزاً عاماً لها وأشفق البعض من ضخامة الثمن المطلوب قال البنا ببساطته المعهودة: «إننى أعرف شخصياً عشرة آلاف من الإخوان المسلمين، كل منهم مستعد أن يعطينى أى شىء أطلبه منه. وقد غطى المبلغ خلال أسبوع».

وإذا كان البنا يجذب مريديه ببساطته وعلاقاته الشخصية.. فإن أتباعه قد بالغوا إلى حد كبير فى إضفاء هالات من الزعامة حوله. فإذا كان هو قد اختار لنفسه لقب «مرشد» فإن أتباعه كانوا يطلقون عليه أسماء عدة منها «رجل الساعة ـ القائد الإسلامى – الأخ الروحى – المناضل العربى ـ المصلح الاجتماعى ـ المؤمن القوى الرجل النورانى والرجل القرآنى»(٣٣) وإذا كانت دراسات عديدة قد أفاضت فى أسباب وبواعث قوة جماعة الإخوان المسلمين فإن كتاب ومفكرى الجماعة أنفسهم قد أكدوا أكثر من مرة «أن سر نجاح الحركة كان يكمن فى شخصية

البنا»(٣٤) بل إن كاتباً آخر من مؤرخى الإخوان يقول: «إن سيطرة البنا على أتباعه كانت مطلقة وكاملة إلى درجة تصل إلى السحر»(٣٥).

وقد وصف الشيخ «أبو الحسن الندوى» طبيعة العلاقة بين المرشد وأتباعه قائلاً: «إذا عطس المرشد فى القاهرة قال له الإخوان فى أسوان يرحمكم الله» وعندما مات البنا كتب أحد أتباعه قائلاً: «سأحيى وأموت مقيماً على ولائى لك»(٣٧).

لقد كان البنا زعيماً حقاً لا جدال فى ذلك. ولقد أعد نفسه منذ البداية ليكون كذلك. فهو يقول «يجب أن يكون الزعيم تربى ليكون كذلك، لا زعيماً خلقته الضرورة وزعمته الحوادث فحسب، أو زعيماً حيث لا زعيم. أن زعماء خلقتهم الظروف، أرادوا أن يستعجلوا النتائج قبل الوسائل وخدعتهم غرارتهم بقيادة الشعوب ومكائد السياسة فظنوا السراب ماء»(٣٨) ترى هل تذكر البنا هذه العبارة أثناء محنته، وإذ إنفض الكثيرون من حوله؟

ومنذ البداية صمم المرشد على أن يعوّد أتباعه على الطاعة المطلقة. «أليست هى البيعة فى المنشط والمكره»؟ وعندما كان المرشد يستعد لمغادرة الإسماعيلية منقولاً إلى القاهرة مدرساً بمدرسة «عباس» بالسبتية اختلف مع بعض أعضاء الجماعة هناك حول من يخلفه فى قيادة الشعبة. ولاين البنا المختلفين معه لكنهم صمموا على اختلافهم وأبلغوا ضده النائب العام على أساس أنه قد بدد أموال الجماعة. فلما خرج من التحقيق بريئاً حاولوا ملاحقته بالاتهام لدى ناظر مدرسته بالقاهرة.. وهنا ظهرت لأول مرة قوة الردع المتستر بالدين فى الجماعة حيث تجمع عدد من أصدقاء المرشد «واعتدوا على المنشقين بالضرب وقبض عليهم وقدموا للمحاكمة»(٣٩).

والغريب أن البنا يورد الواقعة دونما تحرج أو استنكار لأسلوب «التعدى» على الخصوم السياسيين. وبعد حادث مدرسة عباس الابتدائية بالسبتية. بدأ الضرب والاعتداء البدنى على خصوم الجماعة أسلوباً معتمداً من الإخوان.

ويتحدث البنا عن هذا الاختلاف قائلاً: «الواقع أن هذا المظهر كان جديداً وغريباً على أوضاع الإخوان التى لم تعرف إلا الوحدة الكاملة والاندماج الكامل، فرأى أحدهم هو رأى جميعهم» بل هو يؤكد أن المخالفين له قد تلبسهم الشيطان وزين لهم ذلك، ثم لا يلبث أن يسميهم بالخوارج، ثم يؤكد ضرورة أخذهم بالحزم «فإن من يشق عصا الجمع، فاضربوه بالسيف كائناً من كان» لكنه يتأسف «لأننا تأثرنا إلى حد كبير بالنظم المائعة التى يسترونها بألفاظ الديمقراطية والحرية الشخصية»(٤٠).

ولنتأمل هذه العبارة فهى تلخص كل فلسفة الشيخ فى العمل التنظيمى وفى حقوق

المختلفين معه فى الرأى، وهى تشرع للإخوان الحق فى أن يضربوا المختلفين معهم فى الرأى «بالسيف». ولعلهم قد أطاعوا شيخهم كثيراً فى هذا الصدد.

وعلى أية حال فإن المرشد لم يكن ليخفى سيطرته المطلقة على الجماعة بل لعله كان حريصاً على إبرازها فهو يقول: «إن فرعى جمعية الإخوان بالمحمودية وشبراخيت سوف لا ينفعان كثيراً لأنهما أنشئا بغير أسلوبى ولا ينفع فى بناء الدعوة إلا ما بنيت بنفسى وبجهود الإخوان الحقيقيين والذين يرون لى معهم شركة فى التهذيب والتعليم وهم قليلون»(٤١).

والأخ المثالى فى نظر المرشد هو من لا رأى مستقل له «والأخ الشيخ، له أساليبه الخاصة، وهو ينظر لى كأخ وزميل فلا يصغى لآرائى إلا قليلاً، ومن هذه الناحية يكون توحيد الفكر ضرباً من التعسر، فالاعتماد عليه مخاطرة كذلك»(٤٢)، وهو يشكو من رجاله «أننى أتمنى أن يكون إلى جانبى رجال يفهمون ويدبرون، وفأسلم إليهم هذا العمل وأرتاح بهم قليلاً؛ وأطمئن إلى مقدرتهم، ولكن أين هم»؟(٤٣)

وهنا نجد أنفسنا ونحن نعود إلى قول مهم للبنا فإذا كانت مجموعة الإسماعيلية قد تكونت من عدد من العمال، فإن البنا يؤكد لنا أن مؤسسى الجماعة هم أربعة من أخلص أصدقائه ويقول: «وليت وجهى شطر الأصدقاء والإخوان ممن جمعنى بهم عهد الطلب، وصدق الود والشعور بالواجب، فوجدت استعداداً حسناً وكان أسرعهم مبادرة إلى مشاركتى عبئ التفكير، وأكثرهم اقتناعاً بوجوب العمل فى أسراع وهمة هم «الأستاذ أحمد أفندى السكرى (وهو صديق طفولته وشريكه فى كل ما كان فى المحمودية)، «والأخ المفضال المرحوم الشيخ حامد عسكرية، والأخ الشيخ أحمد عبدالحميد، وكان عهد، وكان موثق، أن يعمل كل منا لهذه الغاية حتى يتحول العرف العام فى الأمة إلى وجهة إسلامية صالحة»(٤٤).

وبعد قليل قال الشيخ حسن ما قال فى حق أخلص خلصائه.

ففرع المحمودية لاينفع رغم أن مسئوله ومؤسسه هو الصديق المخلص «أحمد السكرى»، وكذلك فرع شبراخيت فإن مؤسسه ومسئوله هو الشيخ «المفضال» حامد عسكرية.

والأستاذ البنا لا يخفى السبب الحقيقى ولعله يورده ليكون رادعاً للآخرين فالأخ الشيخ عسكرية «ينظر لى كأخ وزميل، فلا يصغى لآرائى إلا قليلاً، ومن هذه الناحية يكون توحيد الفكر ضرباً من التعسر».

لا مجال فى الدعوة لصداقة قديمة، ولا لإخوة تتطلب المساواة أو حتى ما يقترب منها، بل هى الطاعة وحدها. والخضوع وحده.

لكن أغرب ما كتبه البنا فى هذا الصدد عبارة تستحق التأمل لأنها توضح طبيعة تقييمه للمتعاونين معه من رجاله فهو يشكو من أنه يجد نفسه بين «ضعف الأمين وخباثة القوى» ونتأمل هذه العبارة، ولانملك إلا الدهشة.

وكان البنا هو المنظم الأساسى للجماعة وصاحب نظريتها التنظيمية فصاغ الجماعة «فكراً وتنظيماً بما يجعلها مرتبطة به شخصياً، وما يجعله المسيطر الأوحد عليها، الممسك بأعنتها والموجه لنشاطها وقد استغل فى ذلك عاملين أولهما: الغموض المحيط بأهدافها وبطبيعتها وبمنهاجها العملي كدعوة سياسية، وثانيهما: بناء تنظيم الجماعة بطريقة تجعله صاحب الأمر وحده وتجعل سائر أجهزة التنظيم ومستوياته ولجانه كيانات استشارية يملك عليها الأمر، ويجب عليها له السمع والطاعة»(٤٥).

وعندما اجتمع المؤتمر الثالث للإخوان ليحدد الهيكل التنظيمى للجماعة ويشكل هيئاتها المختلفة فإنه ينتهى إلى فقرة تقول: «وقد ترك المجتمعون لفضيلة المرشد العام تحديد مهمة كل هيئة من هذه الهيئات ووضع البيان الذى يوضح ذلك التحديد»(٤٦) وهكذا منح المؤتمر تفويضاً شاملاً للمرشد بالسيطرة على كل أجهزة الجماعة وهيئاتها.

وكانت الهيئة التأسيسية لجماعة الإخوان تتكون من ١٥٠ عضواً «وهى بمثابة مجلس الشورى العام، والجمعية العمومية لمكتب الإرشاد وتضم من سبقوا للعمل للدعوة، وهى من يمنح العضوية لنفسها بمعنى أنها شكلت أولاً بالاختيار، ثم تتولى هى اختيار الأعضاء لها، وينبنى الهيكل الأساسى للتنظيم على مبدأ الاختيار من أعلى»(٤٧).

وكان مكتب الإرشاد «يتكون من ١٢ عضواً، ٩ أعضاء من القاهرة، ٣ من الأقاليم»(٤٨). ويشير بعض معارضى البنا إلى أن مكتب الإرشاد كان فى بداية الأمر مكوناً من عشرين عضواً فلما ثارت أزمة صهره عبدالحكيم عابدين والتهم الأخلاقية التى وجهت إليه استخدم البنا سلطته فى تخفيض عدد أعضاء مكتب الإرشاد إلى ١٢ عضواً ليسهل سيطرته على المكتب بعد أن يتخلص من خصوم صهره(٤٩). وعلى أية حال فإن كل تاريخ الجماعة يؤكد أن سلطات المرشد كانت مطلقة.

وعندما بدأ عبدالمجيد حسن «قاتل النقراشي» يدلى باعترافاته قال: «قد أخبرنى عبدالسميع الغنيمى الذى استقال من جماعة الإخوان أن سبب خروجه من الجماعة هو أن الأستاذ حسن البنا كان يفرض إرادته على مكتب الإرشاد العام»(٥٠).

وثمة شاهد آخر هو «صالح عشماوى» فهو يكتب قائلاً: «عند أول عهدى بعضوية مكتب

الإرشاد ثار البحث: هل الشورى فى الإسلام ملزمة أم غير ملزمة؟ أى هل يتقيد فضيلة المرشد العام برأى مكتب الإرشاد أم أن المكتب هيئة استشارية للمرشد له أن يأخذ برأيها أو يخالفه إذا شاء؟. وكان رأى الإمام الشهيد أن الشورى، ليست ملزمة، وللمرشد أن يأخذ برأى المكتب ويجوز له أن يخالفه»(٥١). والغريب أن عشماوى يورد هذا الأمر مدحاً فى فضيلة المرشد الذى ما ضاق أبداً بمطالبة البعض بالديمقراطية، وأن كان قد حرمهم منها بحزم.

ولكن هناك شاهد ثالث من كوادر الإخوان سجل فى صراحة – فريدة من نوعها – معارضته بل وتهكمه لأسلوب المرشد فى السيطرة على الجماعة. يقول هنداوى دوير أحد قادة الجهاز السرى للإخوان فى شهادته أمام محكمة الشعب، «الأستاذ البنا ترك ١٠٠ شخص أو أكثر كلهم قد بعض ولا يدينون لأحد بالولاء. والأستاذ البنا كان غاوى بترينات.. يعنى المحل مثلاً فى الظاهر والبترينة فى شارع فؤاد.. ومعنى ذلك أنه كان يضم إلى الجمعية التأسيسية أناساً لا صلة لهم بالإخوان المسلمين، فمثلاً جه واحد من النيابة خرج برشوة، وبصينا لقيناه عضو فى الجمعية التأسيسية، والواقع أن الشيخ حسن البنا كان يضعهم فى الظل لأنه رجل عملاق. فلما الأستاذ البنا أخذ بهذه الصورة لم يكن للهيئة التأسيسية قوة إرادية أو أى صفة»(٥٢).

ولم يكن ذلك غريباً على منطق الإخوان. فقد كانت أدبياتهم تؤكد أنه «يجب على الأخ أن يعد نفسه إعداداً تاماً ليلبى أمر القائد فى أية ناحية، وأن الدعوة تتطلب منا أن نكون جنوداً طائعين لقيادة موحدة لنا عليها الاستماع للنصيحة، ولها علينا الطاعة كل الطاعة فى المنشط والمكره»(٥٣).

وفى رسالة «التعاليم» التى صاغها المرشد جاء أنه يتعين على العضو «الثقة بالقائد والإخلاص والسمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكرة»(٥٤) وقد كتب أحد قادة الإخوان مخاطباً المرشد قائلاً: «إن لك علينا الطاعة، على هذا بايعنا وعاهدنا، ولنا فيك الثقة الكاملة وعندك الطمأنينة الشاملة»(٥٥).

ولكنه من حق الشيخ علينا أن نعود بالأمر إلى جذوره الأصلية. فالجوهر فى كل ذلك هو فكرة البيعة، وقسم البيعة عند الإخوان يقول «أعاهد الله العلى العظيم على التمسك بدعوة الإخوان المسلمين والجهاد فى سبيلها والقيام بشرائط عضويتها، والثقة التامة بقيادتها، والسمع والطاعة فى المنشط والمكرة. وأقسم بالله العظيم على ذلك وأبايع عليه والله على ما أقول وكيل»(٥٦) والبيعة فى رأى المفكر الإسلامى ابن خلدون «هى العهد على الطاعة، كان المبايع يعاهد أميره على أن يسلم له النظر فى أمر نفسه وأمور المسلمين، لاينازعه فى شىء من ذلك

ويطيعه فيما يكلفه من الأمر فى المنشط والمكره»(٥٧).

وتستند فكرة البيعة إلى حديثين شريفين، الأول يقول: «من مات وليس فى عنقه بيعة فقد مات ميتة جاهلية» ويقول الثانى «من بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه أن استطاع فإن جاء آخر ونازعه فاضربوا عنق الآخر».

ويحاول «أبو الأعلى المودودى» وهو واحد من أشهر المفكرين الإسلاميين فى نظر الإخوان المسلمين أن يضع الإطار النظرى لفكرة الخضوع المطلق للإمام فيقول: «لا ينتخب للإمارة إلا من كان المسلمون يثقون به وبسيرته وبطباعه وخلقه، فإذا انتخبوه فهوولى الأمر المطاع فى حكمه ولا يعصى له أمر ولا نهى ويعتمد عليه فى تنفيذ الأوامر اعتماداً كاملاً» والمودودى لا يعتد برأى الأغلبية «فالإسلام لا يجعل من كثرة الأصوات ميزاناً للحق والباطل، فإنه من الممكن فى نظر الإسلام أن يكون الفرد أصوب رأياً وأحد بصراً فى مسألة من المسائل من سائر أعضاء المجلس، فإن كان الأمر كذلك فليس من الحق أن يرمى برأيه لأنه لا يؤيده جمع غفير، فالأمير له الحق أن يوافق الأقلية أو الأغلبية فى رأيها، وكذلك له الحق فى أن يخالف أعضاء المجلس كلهم ويقضى برأيه»(٥٨).

ولم يفعل البنا أكثر من أنه قد سار على هذا النهج.

وهكذا استمد البنا قوته المهيمنة على الجماعة.. من النظرية التى ألبست فكرة البيعة ثياب الخضوع المطلق. ومن إمساكه بزمام كل أمور الجماعة ما خفى منها وما ظهر. فقد علم عن المرشد أنه كان يخفى لنفسه وحده كثيراً من المصادر والشخصيات التى يستمد منها العون كلما أراد وبحيث «يكون فى خفاء بعض علاقاته خفاء لبعض جوانب شخصيته عن الآخرين وخفاء لبعض مصادر قدرته ومصادر معرفته»(٥٩) ويذكر السادات أن حسن البنا كان يجمع خلال الحرب السلاح ويخزنه بغير أن يطلع أقرب الناس من كبار الإخوان على ذلك. ويقول السادات: «إن حسن البنا وحده كان الرجل الذى يعد العدة لحركة الإخوان المسلمين ويرسم سياستها ثم يحتفظ بها لنفسه، وإن أقرب الناس إليه لم يكن يعرف من خططه شيئاً، ولا من أهدافه شيئاً»(٦٠).

وكان الجهاز السرى والسلاح مصدرين جديدين من مصادر القوة الطاغية للشيخ. كذلك فإنه فى تنظيم كجماعة الإخوان المسلمين تكون الغيبية هى الأخرى سلاحاً فى إطلاق يد الإمام أو الشيخ.

يقول طارق البشرى فى إشارة إلى هذه المسألة: وعندما يغيب عن الفرد الفهم وتصبح

صور الماضى هى الرصيد الوحيد لديه. وإذا كان الهدف غير واضح فستكون وسيلته هى العمل الخارق للعادة غير المستند إلى فهم الواقع. وتتعلق الأبصار بالفكرة القديمة فكرة المهدوية والإمام الذى سيملأ الأرض عدلاً ونوراً بعد أن امتلأت ظلماً وجوراً، ويفصل الأمل فى التحرر عن الواقع. وتكون غاية الإنسان هنا لا أن يشارك فى صنع مستقبله، ولكن أن يكل إلى غيره زعيماً أو إماماً رسم المستقبل وصنعه، ولهذا يبايعه على السمع والطاعة ويدرب نفسه على الانصياع لأوامره ونواهيه، ويجد تحقيق ذاته فى هذا الانصياع»(٦١).

وتأتى هذه الهيمنة على الفرد من خلال تداخل الجماعة وعقيدتها فى شئون الفرد ودخائل حياته وتسللها إلى كل وقائعها فهى تضع مئات من الأوامر والنواهى تحكم حركته وتصرفاته فى حياته اليومية، فهى تنصحه بإلتزام طريقة معينة فى التحدث والضحك وهى تلزمه بتعلميات معينة متعلقة بصحته «المكيفات ـ التدخين ـ النظافة ـ الرياضة ـ الطعام» وبتعليمات متعلقة بثقافته «ماذا يقرأ ومتى وكيف؟» وتعليمات متعلقة بتعامله مع الناس «الحياء ـ التأثر ـ الشجاعة ـ الصدق ـ الوفاء.. إلخ» وتعليمات متعلقة بتعاملاته المالية، وتعليمات حول علاقته بربه، وأخرى حول علاقته بالدعوة، وثالثة تحدد له واجبات ما قبل النوم ورابعة تحدد له واجبات لحظات الاستيقاظ.

وكنموذج لهذا النوع من السيطرة قدم إلبنا لأعضاء جماعته ما أسماه «ورد الرابطة» وفيه يتلو الأخ الآية الكريمة فى تدبر كامل «قل اللهم مالك الملك، تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير» ثم يدعو الدعاء المأثور بعد ذلك، «اللهم إن هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك، وأوان دعائك فاغفر لى» ثم يستحضر صور من يعرف من إخوانه فى ذهنه، ويستشعر الصلة الروحية بينه وبين من لم يعرفه منهم، ثم يدعو لهم بمثل هذا الدعاء: «اللهم أنك تعلم أن هذه القلوب قد اجتمعت على محبتك، والتقت على طاعتك، وتوحدت على دعوتك، وتعاهدت على نصرة شريعتك، فوثق اللهم رابطتها وأدم ودها، واهدها سبلها واملأها بنورك الذى لا يخبو، واشرح صدرها بفيض الإيمان بك، وجميل التوكل عليك، وأحيها بمعرفتك، وأمتها على الشهادة فى سبيلك، أنت نعم المولى ونعم النصير. اللهم آمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم»(٦٢).

والحقيقة فإن من يصدق كلمات كهذه ويرددها يومياً ويترسب بعض منها ولو بأقل قدر فى نفسه، يتحول إلى طاقة مسخرة لخدمة الهدف السياسى الذى رمى الشيخ للوصول إليه، طاقة طيعة خاضعة يحركها وهم أن طاعة الإمام هى طاعة الله، وأن الإيمان بالجماعة هو جزء من الإيمان بالله، أما استحضار صور الإخوان خلال تلاوة الورد فإنه من الطبيعى أن تكون

صورة الإمام هى الأولى وربما الوحيدة.

وهى صورة تحدث عنها الكثيرون من الإخوان ، تحدثوا فى مبالغة غير محمودة وربما غير مقبولة ـ فالأستاذ عبدالحليم يقول: «جاء حسن البنا فى وقت كانت فيه مصر مستكينة للاحتلال، وادعة مسترخية، والحكام يسبحون بحمد الاحتلال، والشعب يسبح بحمد الحكام، والأمة ميتة لا حراك بها، وفقد الجميع الإحساس بالظلم» ولعل المتتبع لوقائع الحياة المصرية فى فترة نشوء حسن البنا يتذكر مفردات مثل : ثورة ١٩١٩ –زعامة سعد زغلول المهيبة – الصراع ضد القصر والاحتلال. فما كانت مصر نائمة ولا الأمة ميتة، لكن المثير لما هو أكثر من الدهشة أن يمضى الأستاذ محمود عبد الحليم قائلاً «لم أقدر النبوة حق قدرها إلا لما رأيت هذا الرجل، وجلست إليه ولازمته وعاشرته»(٦٣).

ولست أدرى كيف يمكن لمسلم أن يصل فى تمجيده لقائد سياسى أو حتى دينى إلى مستوى يضاهى «النبوة»؟

وبعد أن يواصل امتداح البنا بمبالغات شديدة يقول: «كان حسن البنا هو الداعية الذى أهله الله تعالى بكل هذه المؤهلات، فأدى دوره أحسن أداء ثم ذهب إلى ربه بعد أن بهر العالم بإيمانه وصبره ولسانه وقلمه وعلمه وسعة أفقه، وقدرته على تكوين وصنع الرجال، وترك وراءه دعوة قد اكتمل شبابها ورسخت أقدامها، وأتت أكلها كل حين بإذن ربها»(٦٤).

ويقول أحمد عادل كمال (أحد قادة الجهاز السرى للجماعة) «كان الإمام حسن البنا فى أحاديثه يرتفع إلى سماوات علا من الروحانية، وكان يقدم من نفسه نموذجاً سامياًومثلاً عالياً للرجل الربانى».. «فنكون إزاء إمام قل نظيره بين أئمة الهدى النادرين، فهو ولى من أولياء الله، وكان رضى الله عنه حاضر البديهة متمكناً من علمه، تسعفه الآيات يزفها، يؤيد ما يذهب إليه، فنسمعها ندية طرية كأنما يتنزل بها الوحى»(٦٥) ومرة أخرى نتوقف فى دهشة أمام «كأنما يتنزل بها الوحى».

وعندما يعود البنا من الأراضى الحجازية يكتب أحد أتباعه «عاد الرجل الذى تلتقى عند ساحته آمال الأمة الإسلامية وآلامها، وترجو على يديه استرداد عزها ومجدها. وترنوا إليه متحفزة أبصارها، وتسلمه وتسلس له قيادها، نعم عاد الرجل الذى تعلق عليه أمة النيل كل أمل فى انتشالها من وهدة العبودية، ولم يبق فى كنانتها إلا هو.. نعم عاد صانع الرجال ومدرب الأبطال، الداعى إلى الرشاد والهادى إلى السداد، رافع المشعل، وارد المنهل. نعم عاد أستاذنا الأجل وقائدنا المطاع»(٦٦)

ويقول إخوانى آخر «ولو علم النيل أنه سيسقى قرية المحمودية بمائه العذب الذى سينبت به الشيخ الطاهر النقى الورع الحصيف والزاهد المجاهد حسن البنا لكان له من براهين التيه على الزمان أعلى وأسمى مما قاله هيرودوت»(٦٧).

كهذا حرص البنا، وحرص أتباعه على إقامة علاقة بينه وبينهم تتسم بالمبالغة الشديدة فى تكريمه وفى الولاء له، ولاء يستولى على العضو، ويملك عليه نفسه فيجعله مطيعاً طاعة عمياء.. متصوراً أنه كلما ازداد طاعة وخضوعاً أزداد إيماناً، وازداد قرباً من طاعة الله.

وهكذا تحيط الجماعة بالفرد وتقيم من تعليماتها سياجاً يحصره تماماً فى إطارها وتهيمن على كل نثريات حياته. وبالتدريج يشعر هو وكأنه يستمد وجوده المادى من الجماعة.. ومن إمامها. وإذ تحاصره فإنها تحتم على العضو «أن يتخلى عن صلته بأى هيئة أو جماعة لا يكون الاتصال بها فى مصلحة الدعوة»(٣٧).

ويتم هذا كله فى مناخ يسوده عبق سلفى وتهويمات غيبية تحيط بالإمام والجماعة ومنشآتها وأفرادها. ويروى حسن البنا فى مذكرات الدعوة والداعية كيف أن أحد الشيوخ قد نصحه بأن يعمق عبق السلفية فى جماعته قائلاً: «يا أخى سم، فأقول وما أسمى ياسيد محمد؟ فيقول: سم إخوانك وأصحابك ومنشآتك قل لهذا أنك تشبه أبا بكر، ولهذا أنك تشبه عمر فإن هذا يبعث فيهم الحمية..وسم منشآتك معهد حراء للبنين، مدرسة أمهات المؤمنين للبنات، نادى الخندق» وأتقن الشيخ البنا فن إطلاق التسميات بصورة بعثت الفخر فى نفوس رجاله الذين أسماهم «رهبان الليل وفرسان النهار».

وفوق هذا كله كان الرجل خطيباً قادراً على أن يدير رؤوس أتباعه بحلو كلامه وبساطته وعمقه. وأن يحيط نفسه وكلماته برحيق إسلامى يؤثر فى نفوس هؤلاء الأتباع.

وكان «حديث الثلاثاء» وسيلة للهيمنة المباشرة على قلوب أتباعه.

«ومنذ عام ١٩٣٩ بدأ حسن البنا يعقد مساء كل ثلاثاء لقاءات مع أعضاء الجماعة فى المركز العام» (٦٨) ليحدثهم عن أمور الدعوة. وتاريخ الإسلام، وليحدثهم عن المشكلات الاقتصاديةوالاجتماعية من وجهة نظر إسلامية(٦٩) وكان قادراً دوماً على أن يخلق رباطاً روحياً بينه وبين مستمعيه(٧٠) وبحديث الثلاثاء الذى واظب حسن البنا عليه.. أصبح البنا بشخصه أقوى أداة تثقيف وإعلام فى الجماعة(٧١).

وقد ظل يوم الثلاثاء ذا تأثير خاص فى نفوس أعضاء الجماعة جميعاً، يحتشدون بالآلاف فى فناء المركز العام ثم يطلع عليهم الإمام «فى جلبابه الأبيض، وعباءته البيضاء

وعمامته الجليلة بينما تنطلق الحناجر بالهتاف.. الله أكبر ولله الحمد»(٧٢).

وفى خطبه كان البنا يقدم ردوداً سهلة وبسيطة فى ظاهرها، ولكنها تستهدف الإمعان فى تعميق المناخ السلفى، بل ويصل الأمر إلى تشبيهه نفسه فى بعض الأحيان بالرسول.. وقد سأله واحد من الحاضرين يوماً - وربما فى محاولة لإحراجه - من أين ينفق؟ - وكان قد ترك وظيفته الحكومية - فقال فى هدوء «كان محمد يأكل من مال خديجة، وأنا آكل من مال أخى خديجة يقصد صهره»(٧٣).

وبالنسبة للبنا كانت الخطابة سلاحاً مهماً. بل لعلها كانت أحد الشروط التى حددها كضرورة يتعين توافرها فى أى كادر من كوادر الجماعة، بل لقد كان يشرف بنفسه على تعليم هؤلاء الكوادر فنون الخطابة الإسلامية. وفى عام ١٩٣٨ أشرف البنا بنفسة على أول «مدرسة للكادر» نظمتها الجماعة لتلقين الكوادر «الدعوة والإرشاد»(٧٤).

ونواصل فحصنا لملف الشيخ بحثاً عن مختلف جوانب شخصيته، فنجد أنه استخدم المناورة أسلوباً لتعامله السياسى. فهم الحياة السياسية على أنها مناورات ودسائس، يتعين على كل من يخوضها أن يتقنها وأن يمارس هذه الأساليب بل وأن يتفوق على غيره فى هذا الصدد.

وربما قاده ذلك إلى بعض «اللامبدئية» يلاحظها كل من تابع خطوات تحالفاته السياسية وتقلب تقلباته دون مبرر مقبول اللهم إلا المصلحة الذاتية.

و«اللامبدئية» مغرية، تستدرج السياسى إلى الأسهل والأقرب لكنها تقوده فى النهاية إلى مواقع الخطر. وهى مغرية بمعنى أنها عندما يتلمسها الإنسان تحتويه وتقوده فى كل تصرفات حياته ابتداءً من العلاقة مع السلطة والرؤساء إلى أبسط نثريات الحياة.

يحكى صالح عشماوى، وهو واحد من المقربين من المرشد، أنه هاجم ذات مرة إحدى الهيئات الرسمية فطلبت إليه الحكومة أن يعتذر كتابه أو تقدمه إلى المحاكمة فرفض الاعتذار، ولكن الشيخ البنا نصحه قائلاً: «أكتب يا صالح ما يطلب منك»، ويمضى صالح قائلاً: «لقد عرفت عن الإمام قوله: أوصى الذين يتعرضون للعمل العام ويرون أنفسهم عرضة للاحتكاك بالحكومات ألا يحرصوا على الكتابة فذلك أروح لأنفسهم وللناس، وأبعد عن فساد التعليل وسوء التأويل»(٧٥) أنه «الغموض» كمدرسة وخطة فى العمل السياسى سوف نرى آثارها فى صفحات قادمة. كذلك فإن قولته لصالح عشماوى هذه «أكتب يا صالح ما يطلب منك» تقودنا إلى أحد مفاتيح شخصية الشيخ. وتذكرنا أنه هو نفسه قد كتب ذات يوم ما طلب منه. كتب يدين رجاله وهم رهن القيد ويصفهم بأنهم «ليسوا إخواناً وليسوا مسلمين» مؤملاً وبموقف «لا مبدئى» أن ينقذ بعضاً من بقايا الجماعة فى محنة ١٩٤٨. لكن الواقع أثبت أن خصومه كانوا أكثر منه ذكاءً، إذ أيقنوا أن خطوة

واحدة إلى الخلف من القائد سوف تدمر الجيش كله وتدفع السجناء إلى الانهيار. والاعتراف. وقد كان.

ومرة أخرى نعود إلى ملف الشيخ.

كانت الجماعة فى أيامها الأولى بالإسماعيلية تحاول أن تجمع تبرعات لبناء أول مقر لها، وجاءت أولى التبرعات من شركة قناة السويس خمسمائة جنيه «وتلك علامة استفهام نسجلها ونمضى» ويفزع بعض المخلصين من أتباعه ويتساءلون حول جواز قبول تبرع من شركة استعمارية كشركة قناة السويس، وحول جواز بناء مقر للجماعة ومسجد بهذا المال، ويجد الشيخ المخرج السهل «هذا مالنا لا مال الخواجات، والقناة قناتنا والبحر بحرنا، والأرض أرضنا، وهؤلاء غاصبون أغتصبوا حقوقنا فى غفلة من الزمن»(٧٦).

وكان البنا يستخدم فى بعض الأحيان وسائل فى الإقناع تكشف عن نفس النهج. أغضبه الموقف السلبى لشيوخ الأزهر من جماعته ودعوته. فوجه حديثه إليهم قائلاً: «إن لم تريدوا أن تعملوا لله فاعملوا للدنيا وللرغيف الذى تأكلونه، فإنه إذا ضاع الإسلام فى هذه الأمة ضاع الأزهر وضاع العلماء فلا تجدون ما تأكلون ولا ما تنفقون. فدافعوا عن كيانكم إن لم تدافعوا عن كيان الإسلام».. ونتأمل هذه الكلمات ولا نملك إلا الدهشة.

والشيخ يتخذ من التعليم الحديث موقفاً شديد «السلفية»، بل هو يرتد بموقفه هذا إلى مواقف تناساها حتى السلفيون أنفسهم.. وفى خطابه الأول فى مسجد الإخوان بالإسماعيلية حرص على الدعوة لإقامة دور للتعليم الدينى مهاجماً مدارس التعليم الحديث واصفاً إياها بالمدارس المبتدعة التى يخرج منها الأبناء «وقد تسممت عقولهم بالأفكار الخبيثة الأفرنجية وحشيت أدمغتهم بالآراء الإلحادية وشبوا على التقليد والإباحية»(٧٧).

ونعود إلى علاقة الإتباع بالمرشد التى تترجم إلى مبالغات يتوقف عندها الباحث لا ليتساءل عن مدى صحتها، وأنما عن هذا الحماس فى المبالغة فى الحديث عن الشيخ ونقرأ: «لقد كانت شخصية حسن البنا جديدة على الناس، وعجب لها كل من رآها واتصل بها. كان فيه من الساسة إدعائهم، ومن القادة قوتهم ،ومن العلماء حججهم، ومن الصوفية إيمانهم، ومن الرياضيين حماسهم، ومن الفلاسفة مقاييسهم، ومن الخطباء لباقتهم، ومن الكتاب رصانتهم، ثم هو فوق كل هذا «يعرف لغات الأزهريين والجامعيين والمهندسين والصوفية وأهل السنة، ويعرف لهجات الأقاليم فى الدلتا وفى الصحراء وفى مصر الوسطى والعليا وتقاليدها، بل إنه يعرف لهجات الجزارين والفتوات وأهالى بعض أحياء القاهرة.. وكان فى حديثه إليهم يروى لهم من القصص ما يتفق مع ذوقهم وفنهم، بل كان يعرف لغة اللصوص وقاطعى الطريق والقتله وقد ألقى إليهم ذات مرة

وإذا كان الشيخ البنا يرى أن فشل الأزهر فى رسالته يرجع إلى أنه يهتم بتخريج علماء حفظوا مواد العقيدة عن ظهر قلب ولم يستوعبوها روحياً(٨٣) فإن محمد الغزالى قد تطرف إلى درجة القول بأنه «يعرف رجالاً من شيوخ الأزهر يعيشون كما تعيش ديدان البلهارسيا والانكلستوما من دماء الفلاحين والبؤساء»(٨٤).

أما «الصوفيون» فقد لاينهم الشيخ البنا، فهو منهم أولاً وأخيراً ومنهم عدد كبير من مريديه، وإن كان حذر منهم تحذيرات خفية. وأتى الشيخ الغزالى ليكمل كعادته حلقة الهجوم فالصوفية فى نظره أو فى نظر جماعة الإخوان المسلمين «من بقايا عصور الإقطاع تستخدم لتخدير الجماهير»(٨٥).

وكأن الشيخ لم يكفه كل ما حازه من نفوذ وهيمنة على نفوس أتباعه، فقد لجأ بالإضافة إلى كل ما سبق إلى نسج هالات من الغموض والقداسة والخوارق حول نفسه. ولم يكن المرشد بالرجل الذى يقول ذلك بطريقة فجة قد تأتى بعكس النتائج المرجوة، بل يقول هذه المسائل عرضاً ودون تكلف، ولهذا كانت تأتى فعلها فى نفوس الأتباع وتخلق حوله هالات من التقديس.

فكل الأمور مهما تعقدت تحل فى سهولة ويسر، وحلول المشكلات تأتيه عفو الخاطر بإلهام سماوى. حتى أسم الجماعة يأتيه بنوع من الإلهام. وكثيراً ما يستطيع روية المستقبل «رأى فى نومه وهو طالب أنه يراجع صفحات سئل فيها فعلاً فى امتحان الغد» بل إنه يحكى عن نفسه قصصاً تفوق الخيال، حول تلك العناية غير المرئية التى أحاطت به دوماً تنجيه وتنقذه وترعاه، «وقع بيت عليه وعلى أخيه فلم ينجهما منه، إلا استناد السقف على حاجز السلم، وأنه وقع من ارتفاع ثمانية أمتار فأنجاه سقوطه فى ملطم المونة، وأنه امتد حريق إلى ثيابه وهو صغير فأغاثه رجال المطافئ، وجمحت به فرس تحت حاجز كاد أن يطيح برأسه فألهمه الله فاستلقى على ظهره حتى اجتاز الحاجز»(٨٦).

وإذا لم يكن من حق الباحث أن يتساءل عن مدى صحة كل هذه الروايات والمعجزات، فإن من حقه أن يتساءل بأى هدف حرص الشيخ البنا أن يروى كل هذه القصص لأتباعه؟ وهذا سؤال مهم لأنه يحدد نوعية العلاقة التى أراد الشيخ أن يقيمها بينه وبين أتباعه. فأى شىء كان الشيخ يريد من رواياته هذه أن لم يكن تعمده إضفاء هالات من التقديس حول نفسه؟.

أليس هو الرجل «الذى كان يحقق سيرة رسول الله، فى نفسه» كما قال عنه أخوه عبدالرحمن؟(٨٧)، ولم يكن الشيخ حسن وأخوه عبدالرحمن وحدهما فى هذه المحاولة فأبوه أيضاً يروى قصصاً خيالية عن كرامات ابنه، الذى كان رضيعاً فى الشهر السادس من عمره

يستغرق فى النوم مع والدته وتجثم بجواره أفعى ممدودة الرأس إلى رأسه «وينجيك الله يا ولدى من شرها لإرادة سابقة فى علمه وأمر هو فيك بالغة»(٨٨).

وليس بإمكان أى باحث أن يتصور أن كل ذلك كان محض مصادفة.

وقبل أن ننتهى من فحص ملف الرجل.. نعتقد أن من حقه علينا أن نؤكد أنه كان يعرف من البداية أنه يسيرهو وأتباعه فوق الشوك، وأن الذين لاينهم ولاينوه سوف يصطفون جميعاً ضده وضد دعوته. ولعل وعيه بهذه الحقيقة يحسب له، ولعله يفسر لنا أيضاً بعض أسباب إصراره على الغموض والخفاء والعمل السرى والسلاح، وإحكام قبضته على الجماعة.

يقول حسن البنا فى حديثه لأتباعه «سيقف جهل الشعب بحقيقة الإسلام عقبة فى طريقكم، وستجدون من أهل التدين من العلماء الرسميين من يستغرب فهمكم للإسلام، وينكر عليكم جهادكم فى سبيله، وسيحقد عليكم الرؤساء والزعماء وذوى الجاه والسلطان، وستقف فى وجوهكم كل الحكومات على السواء، وستدخلون بذلك ولا شك فى دور التجربة والامتحان، فتسجنون، وتعتقلون، وتنقلون، وتشردون، وتصادر مصالحكم وتفتش بيوتكم»(٨٩).

وقد كان.

وحتى بعد اغتياله يظل طيفه ملحقاً فوق الجماعة وفوق أصدقائها وخصومها معاً، ويظل الموقف منه معيار الموقف من الحركة كلها.

فعندما قامت ثورة يوليو وخلال شهر العسل الطويل نسبياً بينهاوبين الإخوان المسلمين كان الموقف من حسن البنا هو الدلالة والمؤشر.

ففى الأيام الأولى للثورة زار اللواء محمد نجيب قبر الإمام الشهيد ووقف أمامه باكياً.

كذلك فقد قررت الثورة فتح ملف قضية اغتيال البنا.. وفى المحكمة وقف البكباشى «محمد التابعى» نائب الأحكام ليمجد الإمام الشهيد ويطالب برأس قاتليه قائلا: «إن للمغفور له الشيخ حسن البنا دعوة استشهد فى سبيلها، تقوم على الإصلاح وترمى إلى التخلص من الاستعمار باعتباره رأس الفساد ومصدره»(٩٠) لكن زمناً قليلاً يمضى، ثم تشهد نفس القاعة محاكمة الإخوان المسلمين وهجمات المدعى العام ضد الدعوة وضد مؤسسها.

وعندما يبدأ «شهر العسل» فى الانتهاء يحاول جمال عبدالناصر أن يستخدم «الشيخ» ضد «الجماعة» ووسط حملات العنيفة ضد «الهضيبى» المرشد الجديد وضد الجماعة ككل يتوجه جمال عبدالناصر فى صحبة عدد من أعضاء مجلس الثورة وعدد من الإخوان المسلمين الموالين له لزيارة قبر «الإمام الشهيد» مترحماً ومشيداً بالرجل وبأعماله».(٩١).

وتبقى شخصية الإمام الشهيد، برغم كل الاستفاضة فى البحث، محلاً لتساؤلات تبحث عن إجابات.والإجابات مستعصية، ليس لأنها صعبة، وأنما لأن الشخصية مركبة، وصاحبها قادر دوماً على أن يقول ما يمكن أن يفهم على أكثر من وجه، وقادر دوماً على أن يفعل الشىء ونقضيه، وأن يلاين الخصوم ويغمض القول مع الأصدقاء، وبالنسبة للآخرين جميعاً فإنه لا يمتلك صداقة دائمة ولا خصومة مستمرة.

* * *

● الجماعة

وكانت الظروف ناضجة تماماً كى تنهض هذه المجموعة الصغيرة، وتنطلق، وتصبح كما أسميت بحق كبرى الحركات الإسلامية فى العصر الحديث.

كانت مصر تتململ، وترفض قبضة الحكم الأوتوقراطى «وحكومات عميلة تماماً تزيح مستندة إلى نفوذ السراى والاحتلال حقوق حزب الأغلبية وتهدد الدستور الوليد، وحتى حزب الأغلبية يخضع هو أيضاً لأسلوب التهادن والتردد، والأزمة الاقتصادية تستحكم، والقضية الوطنية بغير حل. والناس جميعاً يستشعرون الرفض والحيرة معاً. وكان تكالب السياسيين المحترفين على الحكم بأى ثمن وما أتبعه من كراهية الكثيرين للنموذج الدستورى القائم فرصة أمام الإخوان المسلمين لكى يجذبوا إلى صفوفهم مئات الآلاف من الأتباع»(٩٢).

ومن هذا الإحساس العارم بالرفض وعدم الرضاء بما هو قائم نجحت دعوة الإخوان المسلمين(٩٣).

وكانت المعركة بين السراى والحكومة حول الأزهر تحتدم ثم «ولفترة قصيرة (١٩٢٩ - ١٩٣٠) تنتزع الوزارة من السراى منصب شيخ الأزهر» (٩٤) ثم يعود القصر فينتزع الهيمنة على الأزهر، ويتداخل الاحتلال أيضاً في هذه الهيمنة، وهكذا يبدو رجال الدين التقليدين فى مظهر العاجز، الأمر الذى يحث المسلم المتحمس على البحث عن محتوى جديد.

«والحقيقة أن المجتمع الحديث والدولة الحديثة قد وضعت المسلم المتدين وسط متناقضات عديدة»(٩٥) هكذا يقول أحد الباحثين ويستخلص من ذلك أحد أسباب نجاح دعوة الإخوان وانتشارها.

«وربما كانت جماعة الإخوان المسلمين أولى الهيئات المنظمة التى قدمت تصوراً يستهدف تغيير النظام السياسى التقليدى فى مصر تغييراً شاملاً»(٩٦).

هكذا أكد باحث آخر. واستخلص من ذلك أحد أسباب انتشارها.

لكن الإخوان المسلمين لم يحاولوا مجرد تعديل أو إصلاح النظام «بل قدموا أنفسهم كبديل قادر على أن يلعب دور ما يمكن أن يسموا بالسياسيين العلمانيين، ومن ثم كبديل لكل النموذج «المستورد» من أوروبا لتنظيم المجتمع والحكومة، ورفضوا بشكل قاطع كل منجزاته ومؤسساته»(٩٧) ولعل ذلك قد خلق الكثير من الصعوبات أمامهم.

وبعد هذه الأسطر التى عكست آراء عدد من الباحثين فى وضعية جماعة الإخوان المسلمين نعود إلى المجموعة الصغيرة من الرجال التى التفت حول الشيخ البنا فى الإسماعيلية، ونحاول أن نسير معها خطوة خطوة.

كانت البداية كما قلنا فى شهر ذى القعدة من عام ١٣٤٧ هـ (مارس ١٩٢٨)(٩٨) واتخذت الجماعة مقراً لها فى أحد المنازل القديمة بالإسماعيلية.

وفتح البنا باب التبرع لبناء مقر لجماعته وكان أكبر المتبرعين وأسرعهم هو مدير شركة قناة السويس وقد تبرع بمبلغ كبير بمقاييس هذا العصر وهو خمسمائة جنيه.

وكان قبول البنا لتبرع شركة القناة مثاراً لأقاويل وخلافات وانشقاقات. وفى البداية أعلن البنا أن الهدف من جميع التبرعات هو بناء مسجد ومقر للجماعة ومدرسة. وبالفعل تقابل البارون دي بنوا مدير شركة قناة السويس مع حسن البنا، وطلب منه رسماً ومذكرة بالمشروع. وقدم البنا الرسم. وجاء التبرع.

وهنا ثارت تساؤلات بعض المتشددين، الذين كان البنا أول من لقنهم فنون التشدد ضد الغرب والغربيين، والمسيحية والمسيحيين وكل ما يأتى منهم. وكان السؤال عن مدى شرعية بناء مسجد بمال الخواجات؟

وقد واجه حسن البنا العاصفة كما اعتاد فيما بعد متمسكاً برأيه، مصمماً على موقفه وحتى لو وقف الجميع ضده.

ويقول «لقد أثار هذا التبرع كثيراً من الأقاويل وانطلقت الشائعات تملأ الجو: الإخوان المسلمون يبنون المسجد بمال الخواجات وآزرتها الفتاوى الباطلة ممن يعلم وممن لايعلم. وأخذنا نقنع الجمهور بأن هذه خرافة، فهذا مالنا لا مال الخواجات، والقناة قناتنا، والبحر بحرنا، والأرض أرضنا وهؤلاء غاصبون فى غفلة من الزمن» لكنه ما يلبث أن أكد ولا أدرى كيف «أن «المسجد لم توضع فيه أموال الخواجات وإنما وضعت فى دار الإخوان بالذات»(٩٩).

وتطايرت الشكاوى ضد البنا حتى وصلت إلى رئيس الوزراء وكان آنذاك الطاغية

إسماعيل صدقى الذى سارع بطلب التحقيق فى أمر هذا الشيخ وأمر هذه الجماعة. وقام بالتحقيق فى الأمر ناظر المدرسة التى يعمل فيها البنا، وقاضى المحكمة الأهلية ووكيل النيابة ومأمور المركز. وهو تحقيق عرفى انتهى بأن البنا موال للنظام وللحكومة ولجلالة الملك. وقال التقرير «أنه تم الاطلاع على كراسات التلاميذ فوجدوا أن أول قطعة إملاء أمليت على التلاميذ كانت عن زيارة الملك فؤاد إلى القناة فى رحلة من بورسعيد إلى الإسماعيلية وفيها ثناء على الملك وتعداد لمآثره وأرفق بالتقرير كراسة لأحد التلاميذ».(١٠٠)

ويتوقف بعض الباحثين عند وثوب الدكتاتور صدقى إلى رئاسة الوزراء(١٩٣٠) كعلامة طريق مهمة فى تاريخ الجماعة، فمن ناحية كان إجهاض التجربة الدستورية على يد صدقى «كفيلاً بنشوء النزاعات السياسية المتطرفة التى ترفض النموذج السياسى القائم ككل»(١٠١) ومن جهة ثانية كانت فكرة الداهية صدقى فى تشجيع الجماعة وحثها للتعاون معه ومع السراى فى مواجهة الوفد.

والحقيقة أن الشيخ البنا لم يخف هذه العلاقة التى نشأت بينه وبين إسماعيل صدقى وأن كان قد أكد أنه تلقى من صدقى عرضاً بمساعدة مالية مغرية مقابل إعلان الإخوان المسلمين تأييدهم له ومناهضتهم لحزب الوفد. وأنه قد رفض هذا العرض الذى قدم له من خلال شقيقه عبد الرحمن.(١٠٢).

والشىء المهم هنا فى نظر الباحث أن الداهية صدقى قد التقط الخيط، وسواء نجح فى إقامة علاقة خاصة مع الإخوان أم لم ينجح، فإن نجاحه الحقيقى كان يكمن فى مجرد الفكرة التى أصبحت محل اهتمام وتنفيذ لاحق من قبل أجهزة السلطة المختلفة.

وبعد إجازة العام الدراسى ١٩٣٢ انتقل حسن البنا إلى القاهرة بناء على طلبه، ليجد أن له مجموعة من الأعضاء تحاول هى الأخرى أن تنشط وليجد أن شقيقه الأصغر عبدالرحمن يرأس جماعة صغيرة أسمها «جماعة الثقافة الإسلامية» وتندمج المجموعتان معاً لتؤسسا أول شعبة للإخوان المسلمين بالقاهرة.

وهكذا تدب حياة جديدة فى صفوف الجماعة بتواجدها فى قلب الحركة الإسلامية والسياسية فى العاصمة.. وأن كان تواجداً محدداً للغاية.

وأعلنت شعبة الإسماعيلية ـ بعد أن تخلصت من المنشقين ـ انتقال المركز العام للجماعة إلى القاهرة حيث يوجد الإمام. ويشهد المقر المتواضع بالقاهرة نشاطاً جماً كان محوره وعموده الفقرى الشيخ البنا. كان يومه ويوم الجماعة يسير كالتالى: فى الصباح الباكر يتوجه الشيخ إلى

المركز العام، ثم يتوجه إلى المدرسة ليمارس نشاطه الوظيفى ثم يعود من المدرسة إلى المركز العام. ثم يرتاح فى منزله قليلاً ليعود مرة أخرى إلى المركز. وطوال هذا الوقت كان الشيخ يوجه أعمال الجماعة التنظيمية والإدارية والثقافية، ويلقى المحاضرات، ويتحدث إلى الزوار الذين كانوا يأتون إلى المقر بدافع الرغبة فى المعرفة أو حتى بدافع الفضول. وقد خصص الشيخ الفترة ما بين صلاة المغرب وصلاة العشاء لإلقاء محاضرات في تفسير القرآن، وكان معظم مستمعيه من سكان الحى من الحرفيين والتجار الصغار وبسطاء القوم الذين يصفهم أحد قادة الإخوان بأنهم كانوا قوماً «بلا تعليم وبلا رغبة فى التعلم»(١٠٣) لكن هؤلاء القوم سرعان ما استجابوا لدعوة الشيخ وتكون منهم الوعاء الأساسى لعضوية الإخوان المسلمين.

وقد جذبت الجماعة أول ما جذبت «سكان المناطق الفقيرة الذين كانوا يعانون من الوحدة والغربة فى مدينة القاهرة، والمهاجرين الوافدين إلى العاصمة الذين وجدوا الراحة النفسية فى اجتماعاتها، وفى تأدية الصلوات جماعة. وقد قامت فروع الجماعة بالنسبة لهؤلاء مقام التجمعات الصوفية وطوائف العمال القديمة»(١٠٤).

ويمكن القول بأن القاعدة الأساسية للجماعة كانت فى هذه المرحلة مكونة أساساً «من أصحاب الحرف الذين ينتمون إلى الطبقة الوسطى الدنيا ومن صغار التجار»(١٠٥).

وبعد عام واحد من انتقال المركز العام إلى القاهرة كان للجماعة شعب عديدة فى مختلف أرجاء مصر(١٠٦).

لكن الباحثين فى تاريخ الجماعة يلاحظون أن هذا الاتساع قد صاحبه تغيير فى التركيب الاجتماعى «الطبقى» لعضوية الجماعة، فمع التطورات السياسية والاقتصادية التى طرأت على المجتمع المصرى فى الثلاثينيات، ومع اتسام تصرفات قيادة حزب الوفد بالتهادن - إلى حد ما - فيما يتعلق بالقضية الوطنية (١٠٧) اندفعت قوى كانت فى الأساس من جماهير الوفد إلى صفوف الجماعات الأكثر تشدداً مثل الإخوان المسلمين ومصر الفتاة والشيوعيين. ويصف أحد الباحثين جمهور الحاضرين فى حديث الثلاثاء في ذلك الوقت فيشير إلى وجود القوى التى أشرنا إليها فيما سبق والتى يميز أصحابها بأنهم يرتدون «الجلاليب» لكنه يؤكد «أن الغالبية الساحقة من الحاضرين كانت من الطلاب والموظفين والمدرسين والمهنيين»(١٠٨).

وهكذا تغير الزى السائد من «الجلابية» إلى «البدلة» وكان ذلك إيذاناً بتطور جديد فى علاقات الجماعة وأساليب عملها.

ورويداً رويداً تستقر الجماعة، وتنتقل بمقرها وجمهورها من أزقة القاهرة الضيقة إلى

مناخ أرحب وجمهور أوسع، ويمتلئ المركز العام بالموظفين المتفرغين بعد الظهر، والذين يتلقون مرتبات نظير تفرغهم هذا. وهو ما يوحى باتساع نشاط الجماعة.

لكننا لم نزل بحاجة إلى بعض التأمل المتأنى فى أسلوب البناء، وصعوباته، ففى بطئ شديد اجتهد البنا فى بناء الجماعة باذلاً فى ذلك جهداً خارقاً.

ومن الإسماعيلية إلى أبوصير. ثم إلى المناطق المحيطة بالإسماعيلية ومنطقة القنال «فافتتح شعبة فى بورسعيد»، ثم فى بعض قرى ومدن البحر الصغير فى المنزلة والجمالية وجديدة المنزله. ويلاحظ أن هذا الشعب كان يتصدرها وجهاء الريف وأغنياء القرى بل والإقطاعيين وبعض خريجى الأزهر. فرأس شعبة المنزلة الشيخ مصطفى الطير وهو شيخ أزهرى وتأسست شعبة الجمالية فى منزل آل عبداللطيف، وجديدة المنزلة فى بيت آل الطويلة وهم من وجهاء الريف»(١٠٩).

ويكمل البنا «وتوالت الزيارات بعد ذلك لهذا الإقليم وكثرت شعبه برعاية كرام الناس»(١١٠) ويورد كأمثلة آل سويلم ببرمبال، وآل قداح بميت سلسيل وآل الهوارى بالكفر الجديد.

ونتوقف هنا أمام ملاحظتين الأولى هى: مساندة عدد من وجهاء الريف للبنا، وهو ما يعنى أن بعض العلائلات الريفية، قد إنشقت عن الوفد سواء انحيازاً لأحزاب الأقلية، أو طلباً لحماية الحكومة لها من مخاطر الرهونات التى انهالت على أراضيها لتهددها بالإفلاس، وهى حماية أتقن إسماعيل صدقى فن استخدامها سعياً وراء تفتيت المقاومة الوفدية لسياساته، قد اقتربت من هذه الجماعة.

وبرغم كل ذلك ظلت حركة جماعة الإخوان مجمدة تقريباً، وضعيفة إلى حد كبير، فقد كان «الوفد» هو الحزب القادر على التأثير الواسع فى نفوس المصريين سواء من أبناء الطبقات الوسطى ريفاً وحضراً أو من عامة الشعب، كذلك كانت الجماهير لم تزل تتشكك فى هذا الشيخ وفى أتباعه، ونقرأ «وقد استمر الإخوان فى فترة الثلاثينيات فى حالة تجمد أو نمو بطئ جداً، رغم كل المظاهر والأساليب التى حاول بها حسن البنا أن ينقل الدعوة إلى طور جديد. ومن هذه الأساليب إصدار مجلة «النذير» وإصدار شارة خاصة بالإخوة، والاتصال بالتجمعات المهنية وخاصة نقابة معلمى الإلزامى، وعقد المؤتمرات الإخوانية»(١١١).

وظلت الجماعة تنتقل بمقرها من جحر إلى جحر فى أضيق حارات القاهرة «حارة الروم - سوق السلاح - عطفة نافع - حارة الشماشرجى - وكان أستاذنا المرشد حفظه الله يقول على

سبيل التندر والتفكه أننا نسكن فى أحشاء القاهرة وكنت أزيد بقولى وفى الأحشاء الدقاق يا فضيلة الأستاذ»(١١٢) هكذا تحدث شقيقه. وتتبدى الصورة أكثر تواضعاً عندما يتحدث ذات الشقيق عن نشاط مبكر للجماعة قائلاً: «لا أنسى حارة الروم وزاوية المغاربة التى كنا نضع فيها المئة كرسى وكرسى. وهذه الكراسى كراسى بلدى من القش ثمن الواحد منها تسعة قروش، ولم نستطع دفع ثمنها مرة واحدة، بل على أقساط وكان الثمن تسعة جنيهات وأخذنا كرسياً «على البيعة» ولم يكن لنا فى المنزل إلا فنائه الكبير نضع فيه الكراسى كل يوم اثنين ثم نجمعها لنخزنها فى زاوية المغاربة بحارة الذهنى بحارة الروم»(١١٣).

ثم خطوة أخرى إلى الأمام إذ حاول البنا عبثاً أن يصل إلى الجماهير. فإستأجر مقراً فى الناصرية بالقرب من ميدان العتبة الخضراء أى فى قلب القاهرة. ويقول أحد قدامى الإخوان «وكان الإخوان إلى ما قبل الانتقال إلى هذا المقر الجديد من الضآلة فى العدد ومن الاختفاء فى المكان بحيث لم يكن يحسب لهم حساب ولا يكاد يحس بوجودهم أحد، وكانوا ذائبين فى المجتمع، وكانت صلتهم بالقاهرة التى يعيشون فيها شبه مقطوعة، ووجودهم مقصور على شعبهم القليلة فى منطقة القنال وما حولها، وقد حاول الأستاذ المرشد سدى أشعار القاهرة بوجود الإخوان بمحاضرات يعلن عنها بدعوات وبمنشورات حتى وصل به الأمر أن انتهز فرصة إقبال شهر ربيع الأول فأعلن عن محاضرات يلقيها كل ليلة بالمركز العام بالناصرية، وطبع آلاف الإعلانات عن هذه السلسلة من المحاضرات. وكنا نذهب جميعاً كل ليلة إلى مسجد السيدة زينب نؤدى صلاة العشاء ثم نخرج من المسجد ونصطف صفوفاً يتقدمنا الأستاذ المرشد ينشد نشيداً من أناشيد المولد النبوى ونحن نردده من بعده فى صوت جهورى جماعى يلفت النظر. وكانت الفاصلة التى نرددها هى هذا البيت:

صلى الإله على النور الذى ظهرا

لنا بشهر ربيع الأول اشتهرا

وكان الناس يجتمعون فعلاً علينا ويسيرون معنا فى الطريق ونحن ننشد بنغمة محبوبة، وأفراد منا يوزعون المنشورات على الناس والمحلات على الجانبين حتى إذا وصلنا إلى دار المركز العام لم يدخل معنا فيه إلا عدد قليل لا يسمن ولا يغنى من جوع»(١١٤).

ولعل واحداً من أسباب هذه العزلة الخانقة ما يورده الأستاذ عمر التلمسانى قائلاً: «أهداف الإخوان المسلمين ظلت غامضة على أعضاء الجماعة ولم يتبنوا أهدافها ومراميها إلا فى أواخر الثلاثينيات»(١١٥).

لكن نهايات الثلاثينيات شهدت تطوراً نوعياً، وقفزة هائلة فى نشاط الجماعة، وفى علاقاتها بقمة النظام وجماهير الشعب على السواء.

إنها مسألة تحتاج إلى معالجة خاصة ذلك أن الكثيرين يفسرون ذلك بتقارب الجماعة مع القصر الملكى ومع الثالوث الذى سيطر على الملك الشاب آنذاك، ثالوث «على ماهر - الشيخ المراغى - كامل البندارى باشا».

وستكون هذه العلاقة محلاً للدراسة فى صفحات قادمة. فلنبق حيث نحن نحاول أن نتابع عملية بناء الهيكل التنظيمى للجماعة.

«بدأت القاهرة ومدن القطر المختلفة تشهد رجالاً يرتدون زياً جديداً عبارة عن «شال» يضعونه فوق الكتفين وعليه شارة الجماعة، وفى البداية كان لون الشارة أخضراً ثم ما لبث أن أصبح أبيضاً، وكثيراً ما كان «الدعاة» من أعضاء الإخوان المسلمين يزودون هذا الشال بجيب كبير يتدلى على الصدر يوضع فيه مصحف ظاهر»(١١٦).

وإذا كان هذا الزى - بما يتكلفه من مال ومن مظهر وقور - قد اقتصر على الميسورين من أعضاء الجماعة، فإن تعليمات الجماعة لأعضائها كانت تحتم فى مطلع الثلاثينيات أن يضع العضو فى خنصر اليد اليمنى خاتماً من الفضة ذى عشرة أضلاع ترمز إلى الآية الكريمة «قل تعالوا أتلو ما حرم ربكم عليكم ألاتشركوا به شيئاً» وبه سيفين متقاطعين ومصحف»(١١٧).

ويشير بعض الباحثين إلى أن هذا الزى الإخوانى كان أول استخدام مصرى لفكرة الزى الحزبى الموحد التى سرعان ما انتشرت فى مصر فى منتصف الثلاثينيات فى صورة القمصان الملونة والتى كانت إمتداداً أو تقليداً لزى التنظيمات الفاشية والنازية التى اجتاحت أوروبا فى ذلك الحين.

وعلى أى حال فإن إتساع عضوية الجماعة قد جعل من المستحيل إلزام الجميع بزى أو شارات معينة.. وهكذا نسيت هذه العادة.

ومع استقرار الجماعة تعقد مؤتمرها الأول فى مايو ١٩٣٣، وقد تركزت أعمال المؤتمر فى بحث النشاط الذى تمارسه البعثات التبشيرية المسيحية وكيفية مواجهتها. وقرر المؤتمر توجيه رسالة إلى الملك فؤاد يطالب فيها بضرورة إخضاع نشاط هذه البعثات الأجنبية لرقابة حكومية فعالة(١١٨).

وفى نفس العام يعقد الإخوان المسلمون المؤتمر الثانى لجماعتهم والذى خصص لدراسة مسائل التثقيف والدعوة. وقرر المؤتمر تأسيس شركة صغيرة لإنشاء مطبعة خاصة بالإخوان

المسلمين(١٢٠) وكالعادة كان البنا هو صاحب الفكرة وهو المحرك الأساسى فى تنفيذها. وبجهد مكثف منه أثمرت نتائج المؤتمر الثانى مجلة أسبوعية هى «الإخوان المسلمون» لكنها لم تستمر طويلاً. ثم صدرت «النذير» كلسان حال للجماعة، ولكنها ما لبثت أن انشقت عن الجماعة. لكن أهم ما أسفر عنه هذا التوجه نحو الدعوة والإعلام هو سلسلة الرسائل التى كتبها حسن البنا شارحاً فيها أهداف الجماعة وأساليبها ورؤيتها للمجتمع المصرى ولمشاكله وللدعوة الإسلامية وطرق تعزيزها، وقد كانت هذه الرسائل وظلت لأمد طويل - وحتى الآن - الأساس النظرى والفكرى لجماعة الإخوان المسلمين.

وهكذا قفز البنا بجماعته القفزة الأولى نحو الصعود. وهو توسيع نطاق الدعوة والإعلام وتنشيط خطوط الاتصال بين الحركة والجماهير.

وبعد الإعلام يأتى التنظيم فقط كان الشيخ منطقياً ومرتباً فى تفكيره، وهكذا تحددت مهام المؤتمر الثالث الذى عقد فى مارس ١٩٣٥ حيث بدأ المرشد يضع قواعدالعمل التنظيمى فبعد توسيع نطاق الدعوة والاتصالات والإعلام لابد من ضوابط للعضوية. ولابد من بناء حزبى محكم وإلا هددت الجماعة بأن تصبح مثل غيرها من الهيئات والأحزاب التى تواجدت فى ذلك الحين.. مجرد لافتة وجماهير - قلت أو كثرت – ثم تنظيم هلامى غير محدد المعالم. وصاغ الشيخ شروط العضوية ومراتبها ودور العضو فى كل مرتبة، وأهم من هذا أنه وضع النواة الأولى لتنظيم «الجوالة» الذى لعب فيما بعد دوراً حاسماً فى تاريخ الجماعة.

ويحدد المرشد كتابة وبشكل واضح وصارم شروط العضوية ومراتبها:

«على العضو الراغب فى الانضمام أن يتحلى بالأخلاق والسمعة الحسنة والسلوك المتين، ويكون لديه الاستعداد للطاعة التامة وتنفيذ ما يلقى عليه من أوامر. وهو فى هذه المرحلة يكون أخاً مساعداً، وإذا أعلن استعداده ووقع استمارة العضوية وتعهد بإلتزام الطاعات، وعكف عن المحرمات وحضر الاجتماعات الأسبوعية يصير أخاً منتسباً، ويرتفع بعد ذلك لأن يصبح أخاً عاملاً إذا ما أضاف لسابق الواجبات والصفات قدرة على دراسة عقيدة الإخوان، وتعهد بالورد القرآنى، وحضر مجالس القرآن الأسبوعية، وكذلك إذا ما اشترك فى صندوق الحج وانضم إلى فرق الرحلات ما دامت سنة تسمح بذلك، وعليه فى هذه المرحلة أن يلتزم التحدث بالعربية الفصحى بقدر المستطاع، مع عمله الدائم على تثقيف نفسه فى الشئون الاجتماعية العامة وحفظه للأربعين حديثاً نبوياً. أما الدرجة الرابعة وهى أسمى الدرجات فهى درجة الجهاد، وهى من حق الأخ العامل والذى يثبت لمكتب الإرشاد محافظته ومواظبته على كل الواجبات السابقة،

ويصبح بذلك داعية مجاهداً. والداعية مرتبة سامية إذ لابد أن يكون مؤمناً بفكرة يدعو إليها بالكتابة والخطابة والحديث العادى والعمل الجدى فى سيرته الخاصة والعامة بكل ما يستطيع من وسائل الدعاية، كما يتحلى بالبلاغة فيكون محدثاً وقدوة يؤثر فى الناس بعمله وشخصه»(١٢١).

وهكذا وضع البنا أسس تنظيم حديدى محكم استطاع أن يخوض به التجربة التى حلم كثيراً بها.

كذلك وافق المؤتمر الثالث على «عقيدة الجماعة» والتى تقول:

١ـ «أعتقد إن الأمر كله لله، وأن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم رسله للناس كافة، وأن الجزاء حق، وأن القرآن كتاب الله، وأن الإسلام قانون شامل لنظام الدنيا والآخرة، وأتعهد بأن أرتب على نفسى حزباً من القرآن الكريم، وأن أتمسك بالسنة المطهرة، وأن أدرس السيرة النبوية وتاريخ الصحابة.

٢ـ أعتقد إن الاستقامة والفضيلة والعلم من أركان الإسلام. وأتعهد بأن أكون مستقيماً أؤدى العبادات وأبتعد عن المنكرات: وأن أتحلى بالأخلاق الحسنة، وأتخلى عن الأخلاق السيئة، وأتحرى العادات الإسلامية ما استطعت ، وأن أوثر المحبة والود على التحاكم والتقاضى، فلا ألجأ إلى القضاء إلا مضطراً، وأعتز بشعائر الإسلام ولغته وأعمل على بث العلوم والمعارف النافعة فى طبقات الأمة.

٣ـ أعتقد إن المسلم مطالب بالعمل والكسب والتكسب، وأن فى ماله الذى يكسبه حق مفروض للسائل والمحروم، وأتعهد بأن أعمل لكسب عيشى وأقتصد لمستقبلى وأؤدى زكاة مالى وأخصص جزءاً من إيرادى لأعمال البر والخير، وأشجع كل مشروع اقتصادى نافع، وأقدم منتجات بلادى وبنى دينى ووطنى. ولا أتعامل بالربا فى شأن من شؤونى. ولا أتورط فى الكماليات فوق طاقتى.

٤ـ أعتقد أن المسلم مسئول عن أسرته. وأن من واجبه أن يحافظ على صحتها وعقائدها وأخلاقها. وأتعهد بأن أعمل لذلك جهدى وأن أبث تعاليم الإسلام فى أفراد أسرتى. ولا أدخل أبنائى مدرسة لا تحفظ عقائدهم وأخلاقهم وأقاطع كل الصحف والنشرات والكتب والهيئات والفرق والأندية التى تناوئ تعاليم الإسلام.

٥ـ أعتقد إن من واجب المسلم إحياء مجد الإسلام بإنهاض شعوبه وإعادة تشريعه، وإن راية الإسلام يجب أن تسود البشر. وإن مهمة كل مسلم تربية العالم على قواعد الإسلام وأتعهد

بأن أجاهد فى سبيل أداء هذه الرسالة ما حييت وأضحى فى سبيلها بكل ما أملك»(١٢٢).

ولقد تعمدت أن أورد النص كاملاً، ولا يملك الباحث إلا أن يسجل ملاحظة واحدة وهى أن النص أخلاقى صرف، ولا بأس من ذلك، بل هو مفيد فى إطار دعوة دينية صرفة. لكنه لا يتضمن كلمة واحدة عن الاستعمار ولا عن القضية الوطنية فى بلد يهيمن الاحتلال على مقدراته. ولا كلمة دفاع واحدة عن الفقراء ولا حل واحد لمشكلة من مشكلات مصر أو شعبها وباختصار هو مجرد اقتباسات أخلاقية تصلح أهدافاً لأى مسلم فى أى بلد، وفى أى زمان.

لكن أخطر ما فى الموضوع هو قرار المؤتمر بأنه «على كل مسلم أن يعتقد أن هذا المنهج كله من الإسلام وأن كل نقص منه نقص من الفكرة الإسلامية الصحيحة ذاتها» (١٢٣) ويلاحظ أحد الباحثين خطورة هذا المبدأ ويرى «أن الجماعة تصادر به الدين لمصلحتها وبهذا لا تصبح مجرد جمعية تطبق الدين كما يحاول غيرها أن يفعل، وأنما تؤكد أن منهجها وحده هو الإسلام الصحيح ومن ثم فإن من يقف ضدها كجماعة يكون خارجاً على الإسلام ذاته. إنه مبدأ يسعى للسيطرة على الإسلام لا للإتصاف به فقط»(١٢٤).

وإذ يحاول بعض أتباعه من الشبان «المتسرعين والقلقين» رفض المنهج المتأنى والحذر الذى يرسمه الشيخ بعناية وحرص فإنه يحدثهم قائلاً: إن الطريق مازال طويلاً وشاقاً ويحدد لهم توقيت الهجوم العام وقواته. «فى الوقت الذى يكون فيه منكم - معشر الإخوان المسلمين - ثلاثمائة كتيبة قد جهزت كل منها نفسياً وروحياً بالإيمان والعقيدة، وفكرياً بالعلم والثقافة، وجسمياً بالتدرب والرياضة، فى هذا الوقت طالبونى بأن أخوض بكم لجاج البحار وأقتحم بكم عنان السماء، وأغزو بكم كل عنيد جبار، فإنى فاعل أن شاء الله»(١٢٥) أنه الشيخ فى طوره الجديد، أو ما يمكن تسميته طور ما بعد المؤتمر الخامس. وهكذا يكون الجيش مستعداً.

وقد يلاحظ القارئ أننا لم نشر للمؤتمر الرابع للجماعة.. فقد عقد هذا المؤتمر فى عام ١٩٣٦ لكنه قد خصص فقط للاحتفال بتتويج الملك فاروق.

ولذلك قصة أخرى سوف نوردها فى الفصل القادم.

* * *

نحن الآن نفتح صفحة جديدة

صفحة ما بعد المؤتمر الخامس.

كل ما قبل ذلك كان تحضيراً وإعداداً.. أما اليوم فهو القول الفصل، هو بدء التنفيذ. فقد كان كل ما سبق مجرد إعداد للثلاثمائة كتيبة استعداداً لخوض لجاج البحر، واقتحام عنان السماء.

ولعله من الضرورى هنا أن نلقى نظرة على البناء التنظيمى الذى ابتدعه وأقام أسسه بنجاح تام الشيخ حسن البنا.

كانت الجوالة هى أول عمل تنظيمى خاص أقامه البنا، ولعلها كانت فى البداية محاولة البلورة للنشاط الرياضى والاجتماعى الذى اهتم به الشيخ غاية الاهتمام قائلاً إنه يقتدى بالحديث الشريف «المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف» وبالحكمة البليغة «العقل السليم فى الجسم السليم»(١٢٦).

وفى أعقاب المؤتمر الثالث للجماعة (١٩٣٥) زاد الاهتمام بصورة مكثفة بفرق الجوالة، واعتبرت تنظيماً مستقلاً ذات هيكل مستقل تابع مباشرة للمركز العام. ولعلها أصبحت فى ذلك الحين محط اهتمام أكبر من الشيخ فقد بدأت القمصان الملونة الخضراء «مصر الفتاة» والزرقاء «الوفد» تملأ شوارع القاهرة والمدن الأخرى وتستخدم من أجل الردع السياسى والردع المضاد.

وكان لابد لجماعة كالإخوان من فريق للردع خاص بها. ولعل الشيخ كان أكثر من أتقن ذلك من قادة العمل السياسى المصريين.

وفى عام ١٩٣٩ عين البنا واحداً من أخلص رجاله - هو محمود لبيب (ضابط سابق بالجيش) قائداً عاماً لفرق الجوالة وكون لها مجلس قيادة من سبعة أشخاص.

وباختصار كانت فرق الجوالة هى الوعاء الذى يستوعب أخلص شباب الجماعة وأكثرهم ولاءً كى يصقلهم ويدربهم، ويعودهم على الطاعة التامة والتفانى المطلق. ولعل الشيخ وهو يصوغ جنينيات هذا الوعاء، كان يدرك أن ثمة خطوة أخرى قادمة هى اختيار أخلص هؤلاء الخلصاء، وأنشط هؤلاء النشطاء فى وعاء سرى تماماً هو «الجهاز الخاص»، لكن لذلك قصة أخرى.

والمهم أن فرق الجوالة قد نشطت واتسعت وامتد عملها إلى مجالات عدة فى الريف والمدينة ابتداء من محو الأمية ومقاومة الكوليرا وخدمة البيئة، إلى ردع الخصوم السياسيين، إلى المشاركة فى الاحتفالات العامة كجيش خاص بجماعة الإخوان المسلمين، وفى عام ١٩٤٨ كان عدد أعضاء فرق الجوالة من الإخوان المسلمين ٤٠ر٠٠٠ عضو.

ولقد أثارت فرق الجوالة هذه الكثير من الجدل فالهيئة العامة للكشافة قاومت فى بداية الأمر نشاطها، فقانونها يؤكد أن الكشاف لا يتداخل فى السياسة. والأحزاب الأخرى قاومتها

واعتبرتها نهجاً «فاشستياً» فى التنظيم.

وبرغم ذلك فقد نجح البنا في أن يفلت بجوالته وأن يحميها من أية محاولة لحلها، كما نجح فى أن يبرز شباب جماعته فى صورة زاهية تماماً. فقد كانوا حريصين دوماً على خدمة الجمهور، وقدموا بالفعل خدمات مهمة وخاصة فى أوقات المحن العامة كوباء الكوليرا والملاريا.

ومع «الجوالة» كانت «الكتائب» أو «كتائب أنصار الله». فالجوالة للرياضة والشباب والخدمة العامة وأما «الكتائب» فهى مجموعات تضم كل منها أربعين عضواً من الأعضاء النشطين فى الجماعة يلتقون معاً ليلة كل أسبوع حيث يقضون أكثر الليل فى العبادة وتلاوة القرآن وتفسيره وقراءة الأوراد. وكان الهدف الأساسى الذى وضعه الشيخ لهذه الكتائب هو ربط العضو بالجماعة، وتطوير علاقته بها من علاقة «انتماء» إلى علاقة «إيمان» فهو يعبد الله فى إطارها وبين صفوفها. ولعل فكرة هذه الأمسيات الدينية، ذات العبادة المكثفة قد واتت الشيخ من خلال إنتمائه السابق للصوفيين.كذلك كانت الكتائب وعاء يختبر فيه الرجل رجاله، ويفرز من بينهم من هو أكثر إخلاصاً وولاءً. وكان شعار الكتائب «العمل ـ الطاعة ـ الصمت»(١٢٧) ونتأمل .. العمل والطاعة نعم ولكن لماذا«الصمت»؟ وأى حاجة للصمت فى ليال ليس فيها سوى التعبد وذكر الله؟ لقد كان الرجل ينتقى من أخلص خلصائه. رجالاً لعمل جديد هو «الجهاز الخاص».

وبعد فترة إستنفدت «كتائب أنصار الله» غرضها بالنسبة للمنظم الفذ الذى استشعر أنه قد إنتقى ما شاء من رجال، وأنه قد آن الأوان لوضع نظام يشمل أعضاء الجماعة جميعاً وكان نظام الأسر.

وقد بدأ تنفيذ هذا النظام فى عام ١٩٤٣ فى ظل التزايد الواسع للعضوية وما صاحب بعض فترات الحرب العالميةمن ضغوط على الجماعة(١٢٨) وفى بداية الأمر سمى «نظام الأسر التعاونى» ثم أصبح اسمه «نظام الأسر» وتقوم الفكرة التى وضعها الشيخ البنا على أساس تجميع الأعضاء النشطين فى كل شعبة وتقسيمهم إلى مجموعات كل مجموعة لا تزيد عن خمسة أعضاء «أصبحت عشرة فيما بعد»(١٢٩) وتسمى المجموعة أسرة وتنتخب كل أسرة رئيساً يسمى «نقيباً» ويقوم بتمثيل مجموعته أمام قيادة الفرع. وتعتبر الأسرة وحدة متكاملة مسؤولة مسؤولية جماعية عما تكلف به. وتكون كل أربع أسرة «عشيرة» يرأسها «نقيب» الأسرة الأولى من أسر العشيرة. وتكون كل خمس عشائر «رهط» و«الكتيبة» تضم خمسة «رهوط»(١٣٠).

وهكذا وصل البنا إلى الطموح التنظيمى الذى يريد والذى حلم به، فقد نجح نظام الأسر فى أن يحيل الجماعة كلها إلى شبكة متصلة الحلقات متماسكة الفعل ورد الفعل، قادرة على أن

تستجيب ـ وعلى الفور ـ لإرشادات وتوجيهات القائد. وفى المركز العام كان «قسم الأسر» تحت إشراف مباشر من «المرشد» وحركة «الأسر» أقوى جهاز فى الجماعة، بل وأقوى جهاز سياسى منظم فى مصر كلها فى ذلك الحين.

والأسرة تعقد اجتماعات أسبوعية حيث تمارس معاً العبادات، وتقرأ القرآن والأوراد، ويقدم كل عضو حساباً عن نشاطه وعمله وماليته. وكان البنا يحث الإخوان «على أن يعززوا علاقات الإخوة فى إطار الأسرة الإخوانية. فاجتماعات «الأسرة» الأسبوعية تعقد خارج الشعبة ويستحسن أن تعقد فى منازل أعضائها بالتناوب، وبخلاف الاجتماعات الأسبوعية كان على الأسرة أن تنظم أمسية إسلامية كل شهر، ويستحسن أن تقضيها فى مكان خلوى حيث ينامون ويقرأون الأوراد ويصلون معاً ويتناولون طعامهم معاً. والأسرة تصلى الجمعة معاً، وتحل مشكلاتها المالية فيما بينها، وعلى أساس نظام «التكافل» الإسلامى إذ تحتفظ الأسرة بصندوق تعاونى تضم إليه تبرعات أعضائها وترسل الأسرة خمس إيرادها إلى الشعبة لتمول منه المشاريع الاجتماعية التى تديرها الشعبة.

وقد حرص البنا على تعزيز نظام الأسر كسبيل لارتباط العضو بالجماعة ليس فقط سياسياً وإنما اجتماعياً واقتصادياً. كما حرص على أن تصبح الجماعة موئل العضو وأسرته ودرعه ومحط آماله. وكان يروى دوماً كيف فقد أحد أعضاء الجماعة مورد رزقه فقدم له أخ فى الأسرة نصف مرتبه، فلما سئل: كيف تعيش بنصف راتب؟ أجاب: وكيف يعيش أخى بلا دخل؟».

وقد أوصى البنا الإخوان بأن يقيموا نظام «الأسر» على أساس أعمدة ثلاثة: التعارف ـ التفاهم ـ التكافل ـ مستلهمين الآية الكريمة «واعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا» والحديث الشريف «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»(١٣١).

وتتجلى براعة البنا كمنظم فى أنه قد ربط بالجماعة وأهدافها كل عضو فيها.. ومنحه القدرة على العمل فى إطارها فأصبحت «الإخوانية» أسلوباً للحياة(١٣٢).

هكذا يكون الجيش مستعداً. الأعضاء منتظمون فى «الأسر» تشدهم إلى المرشد برباط وثيق، والشبان الأكثر حيوية والأكثر إخلاصاً منتظمون فى فرق «الجوالة» يتدربون ويتعودون الطاعة التامة والتفانى فى الإخلاص لبيعتهم للمرشد. وفوق هذا هناك الجهاز الخاص المدرب والمسلح والمجهز تجهيزاً عالياً ليكون أداة الردع التى لا يعرف أحد عنها شيئاً سوى المرشد نفسه. وبهذا يحكم المرشد قبضته تماماً على الجماعة كلها.

وإلى المجال الصعب بالنسبة لأى مسلم «سلفى» وهو مجال العمل وسط النساء

وتنظيمهن، وصلت اهتمامات البنا، فمنذ البدايات الأولى فى الإسماعيلية اهتم البنا بالعمل وسط الأخوات محاولاً برغم تمسكه بالحجاب، وبضرورة استقرار المرأة فى البيت، أن يجد لجماعته موضع قدم فى الحركة النسائية. ذلك أن البنا كان يؤكد وباستمرار أهمية الدور الذى تلعبه «الأسرة الإسلامية» فى تنشئة جيل مسلم، فكيف يمكن تصور «أسرة إسلامية» بغير «أخوات مسلمات»؟

وهكذا كان من بين مشاريعه الأولى وهو لم يزل بعد فى الإسماعيلية تأسيس مدرسة أمهات المؤمنين، وفى أبريل ١٩٣٣ أصبحت هذه المدرسة أول فرع رسمى للأخوات المسلمات(١٣٣).

لكن العمل وسط النساء ظلت تعرقله التوجهات السلفية للجماعة تجاه قضية تحرير المرأة وحقها فى العمل وتجاه الحجاب وقضية الأحوال الشخصية، وتعرقله أيضاً مقاومة وتأفف بعض أعضاء الجماعة من العمل وسط «الحريم». وهكذا مضت سنوات عشر كاملة على تأسيس الفرع الأول للأخوات المسلمات بالإسماعيلية قبل أن تتكون قيادة مركزية «للأخوات المسلمات» بالمركز العام. وبدفع خاص من جانب الشيخ البنا تحقق الأخوات المسلمات نجاحاً يعتبر بمقاييس الأربعينيات وبمقاييس العمل النسائى كبيراً، فقد وصل عدد الأخوات المسلمات فى عام ١٩٤٨رقماً عالياً هو خمسة آلاف عضوة(١٣٤) لكن الملاحظة المهمة هى أن الإخوان إذ حققوا فى الجامعات نجاحاً باهراً وسط طلاب الجامعات فى الأربعينيات إلا أن عدد الطالبات المحجبات فى الجامعة كان ضئيلاً جداً إلى درجة ملفتة للنظر.. إذ يبدو أن «الفتيات المتعلمات كن يتصورن دعوة الإخوان دعوة سلفية تعود بالمرأة إلى عصر الحريم»(١٣٥).

وفى أيام «المحنة الأولى» (١٩٤٨ ـ ١٩٥٠) وما تلاها من محن لعبت الأخوات المسلمات دوراً مهماً فى رعاية أسر المعتقلين وفى تأمين الاتصال بين سجناء الإخوان فى مختلف السجون وبينهم وبين من بقى من الإخوان فى الخارج.

ومن صفوف الأخوات المسلمات لمعت بعض أسماء وبرز أحد هذه الأسماء الأخت زينب الغزالى ليلمع فى قمة قيادة الدعوة.

* * *

وإذ يستعد الجيش لمرحلة التنفيذ فلابد من جهاز إعلامى قوى، ولهذا حرص البنا على أن يوصى الإخوان «بأن يتعلموا من الغرب فنون الدعاية»(١٣٦).

وكانت المطبعة الصغيرة التى أسسها البنا بعد المؤتمر الثانى للجماعة مستمرة فى طبع رسائله إلى الإخوان والتى أصبحت سلاحاً إعلامياً يحقق للشيخ الهيمنة الفكرية على الجماعة. والهيمنة الفكرية للجماعة على قطاعات كبيرة من التيارات الإسلامية، ورويداً رويداً تنمو المطبعة الصغيرة بفضل الاهتمام الذى منحه لها من المرشد لتصبح واحدة من أهم المشروعات الاقتصادية للجماعة(١٣٧).

وبرغم البداية المتواضعة فقد نجح البنا فى أن يصدر أول مجلة إخوانية تحمل دعوته إلى الجمهور. وكانت مجلة «الإخوان المسلمون» الأسبوعية التى صدرت لتعلن أنها صوت دعوة الحق والقوة والحرية. وكانت المجلة مملوكة لواحد من كبار السلفيين الذين أثروا تأثيراً كبيراً فى المرشد عندما كان طالباً، وهو الشيخ محب الدين الخطيب صاحب المكتبة السلفية وبجنيهان فقط وافق الخطيب على مشاركته له فى إصدار هذه المجلة باسم «الجماعة» وصدر العدد الأول فى مايو ١٩٣٣ لتكون أول مجلة تصدر عن الجماعة، ولتستمر فى الصدور أربعة أعوام كاملة(١٣٨).

ومع مرحلة التنفيذ كان لابد للجماعة من سلاح إعلامى جديد «النذير» التى كان لها من اسمها الكثير والتى كانت «إعلاناً» صريحاً وصارماً من الشيخ لكل سياسى مصر بأن «الإخوان المسلمين» قد اقتحموا ميدان السياسية.

لكن «النذير» تصبح سلاحاً فى يد المنقسمين على الشيخ، فتكون هى ورئيس تحريرها وصاحب امتيازها ومنذ عام ١٩٣٩ لسان حال المنشقين الذين أسموا أنفسهم «شباب سيدنا محمد»(١٣٩) ويستخدم البنا علاقاته الوثيقة بالشيخ رشيد رضا وبأسرته، ليحصل على مجلة «المنار» التى تعثر صدورها بعد وفاة الشيخ رشيد عام ١٩٣٥، فأصدرها البنا باسم جماعته منذ عام ١٩٣٩ حيث أصدر منها ستة أعداد. إلى أن ألغت الحكومة ترخيص المجلة كجزء من ضغطها على الجماعة الإخوان وألغت فى نفس الوقت مجلة إقليمية كانت تصدر عن الجماعة باسم «التعارف»(١٤٠).

لكن شهر العسل يعود سريعاً، ويجد المرشد سبيلاً للصلح مع الحكام. وفى عام ١٩٤٢، وكجزء من المصالحة العامة، وكتعبير عن مصالحة جديدة بين الوفد والإخوان تنهض الجماعة من جديد لتصدر فى أغسطس ١٩٤٢ مجلتها الأسبوعية «الإخوان المسلمون» والتى صدرت فى بداية الأمر كل أسبوعين. وفى مايو ١٩٤٦ صدرت «الإخوان المسلمون» يومية معززة وجودها وتمويلها بعلاقة حميمة مع إسماعيل صدقى وحكومات الأقلية والسراى وواصلت صدورها حتى حل الجماعة فى ديسمبر ١٩٤٨.

وفى نوفمبر ١٩٤٧ أصدرت الجماعة مجلة شهرية للدراسات الإسلامية باسم «الشهاب» لعلها أقرب ما تكون إلى «منار» الشيخ رشيد رضا. كذلك أصدرت الجماعة مجلة طلابية كانت توزع أساساً على طلاب الجامعات(١٤١).

وإذ رفض البنا التعليم الحديث باعتباره انعكاساً غربياً مرفوضاً يعلم التلاميذ الضلال والعلمانية. وإذ رفض التعليم الأزهرى باعتباره مجرد حفظ لموضوعات دينية وأنه خال من الاهتمام الروحى والوجدانى. فقد حلم بتعليم من نوع جديد. وكعادته عندما يقتحم أى ميدان يبدأ بمشروع صغير ثم يبذل من طاقته وجهده ما يجعل أى صغير كبيراً.

وقد بدأت المؤسسة التعليمية للإخوان المسلمين منذ الأيام الأولى فى الإسماعيلية كنموذج يقدمه الشيخ لنوعية جديدة من التعليم تستهدف نهضة الإسلام وتستهدف نقد التعليم الحديث ودحضه باعتباره «تعليماً علمانياً»(١٤٢).

وفى عام ١٩٣٥ شكلت الجماعة وفداً لزيارة رئيس الوزراء ووزير المعارف العمومية وممثلى الأحزاب السياسية للمطالبة بتعديل أسس التعليم تعديلاً جذرياً بحيث يقوم على أسس إسلامية حقة(١٤٣) وقد سجلت الجماعة أكثر من مرة انتقادها المرير للحكومة المصرية لكونها حكومة بلد إسلامى وتسمح فى نفس الوقت للبعثات المسيحية بافتتاح مدارس، ولأن مدارس الحكومة تدرس تاريخ أوروبا ولا تدرس تاريخ الإسلام(١٤٤)ونلاحظ أنه فى عام ١٩٤٨ خاضت صحف الجماعة وشعبها معركة عنيفة ضد المدارس الكاثوليكية. وقد أرسل الأب «هنرى عيروط» إلى جريدة الإخوان المسلمين رسالة يرد فيها على هذا الهجوم لكن الجريدة لم تنشر هذه الرسالة. وأخيراً نجح الأب عيروط فى مقابلة الشيخ حسن البنا، ونشرت جريدة «الإخوان المسلمون» موضوعاً عن هذه المقابلة ركزت فيه على ضرورة اتحاد رجال الأديان ضد الإلحاد والملحدين(١٤٥).

وفى عام ١٩٣٨ وعندما طلب وزير المعارف العمومية إلى شيخ الأزهر تقريراً عن توحيد نظامى التعليم الأزهرى والحديث أسهم حسن البنا فى هذا الأمر بتقرير تفصيلى وجهه فى شكل رسالة إلى الوزير أكد فيها أن هزيمة «العلمانية» لن تكون بغير إتقان رجال الدين لمختلف فروع العلوم والمعرفة. ومن ثم فقد أكد البنا أنه لا يريد تعليماً إسلامياً صرفاً، ولا علمانياً صرفاً وأنما مزيج من الاثنين(١٤٦).

وفى عام ١٩٤٦ بدأ البنا يولى شبكة التعليم الإخوانية إهتماماً خاصاً حيث تكونت لجنة تشرف على تأسيس المدارس الابتدائية والثانوية للبنين والبنات، ثم تكونت لجنة الشؤون

الثقافية(١٤٧) ودعا البنا أنصاره للتبرع لها. وانهالت التبرعات.ويلاحظ أن إحدى القوائم قد ضمت تبرعاً بخمسة آلاف جنيه مع وعد تبرع بألف جنيه أخرى لكل مدرسة تؤسسها الجماعة. وفى عام ١٩٤٦ كان وزير المعارف محمد حسن العشماوى صديقاً للشيخ حسن البنا فوجه رسالة رسمية للجماعة يدعوها إلى المساهمة فى مشاريع الوزارة لمحو الأمية وتعميم التعليم. وقدمت الوزارة معونة للجماعة ٧٥ قرشاً مقابل كل تلميذ يدرس فى مدارسها ثم قدمت لها الكتب والأدوات اللازمة لمدارسها مجاناً، ثم قررت الوزارة تغطية نفقات هذه المدارس بالكامل. وقد دعمت هذه المساعدات ميزانية شبكة التعليم الإخوانية وفوق ذلك قدمت لها اعترافاً رسمياً . ثم عمد البنا إلى تأسيس شركات مساهمة لتأسيس المدارس وقد نجحت هذه الفكرة أيضاً.

واتسعت شبكة المدارس الإخوانية إلى درجة أن الشيخ البنا، قد أكد أن كل شعبة من شعب جماعته الألفين أسست مدرسة أو أكثر(١٤٨) ولابد لنا من أن ندرك أثر ذلك فى انتشار الجماعة ونفوذها فى صفوف التلاميذ وأولياء الأمور والمدرسين والمدرسات.

وأسهمت الجماعة أيضاً فى مختلف أوجه النشاط الاجتماعى. وقد أشرنا إلى دور فرق الجوالة الإخوانية فى مقاومة الملاريا والكوليرا، كذلك فد وجه البنا جماعته لتأسيس قسم طبى عام ١٩٤٤. ثم افتتح الشيخ البنا عيادة طبية وأجزاخانة ومستشفى صغير بلغ عدد المترددين عليه ٥١٣٠ مريض فى عام ١٩٤٧. وقد وصلت ميزانية القسم الطبى فى عام ١٩٤٨ إلى ٢٣٠٠٠ جنيه.

وفى ميدان الخدمات الاجتماعية بدأت الجماعة نشاطاً ملحوظاً، وفى عام ١٩٤٦ كان لها ١٠٢ فرعاً للخدمات الاجتماعية زادت فى ١٩٤٨ إلى ٥٠٠ فرع.

وحتى تستطيع هذه الفروع الاستفادة من المعونات المالية الكبيرة التى تقدمها وزارة الشؤون الاجتماعية لمثل هذا النشاط، والذى يتعين عليه وفقاً للقانون ألايرتبط بأى جماعة سياسية ـ كونت الجماعة فرعاً مستقلاً عنها للإشراف على هذا النشاط.

وهكذا امتدت يد الجماعة إلى مختلف جوانب الحياة فى المجتمع المصرى وأصبحت مؤسساتها التعليمية والصحية والاجتماعية ركائز بالغة الأهمية تعزز مكانتها وتضخ إليها في ذات الوقت أموالاً تحصل عليها عبر القنوات الحكومية.

والسؤال الملح والمحير هو: كيف استطاع البنا أن يمول كل هذه المشروعات؟ وكيف استطاع أن يدبر الموارد المالية الكافية لجماعة تمتد شعبها لتغطى كل أنحاء مصر، ولفرق الجوالة بملابسها ومعداتها، وللمدارس والمستشفيات والمشاغل والمصانع والشركات

والمؤسسات. وهذه المجموعة الهائلة من المتفرغين السياسيين والإداريين، وفوق هذا وذاك للجهاز السرى بمخابئه وأسلحته وأفراده؟

وعند صدور قرار حل الجماعة لاحظ الجميع أن إجمالى أصول الجماعة.. من ممتلكات وشعب وأثاثات وشركات ومدارس ومصانع ومزارع ومشاغل ومستشفيات.. إلخ قد وصل رقماً خيالياً بالنسبة لحزب سياسى أياً كانت جماهيريته خصوصاً إذا ما كان التركيب الطبقى لهذه العضوية ينزع نحو البرجوازية الصغيرة من الطلاب، الفلاحين، الحرفيين، صغار الموظفين. وهؤلاء جميعاً ليسوا فى مستوى مالى يمكنهم من تغطية هذه النفقات.

ولتفسير أو حتي تبرير ذلك يتعين أن تستعيد بعض المعلومات

● تبرع شركة قناة السويس الاستعمارية للجماعة. و إعتبار قبلو البنا له نموذجا لموقف نكرر أو قيل إنه تكرر.

● إقرار الشيخ البنا بأن إسماعيل صدقى قد عرض عليه معونة مالية مقابل خدمات سياسية من الجماعة «وأن كان البنا قد أكد عدم قبوله لهذه المساعدة» فى حين أقر الجميع بحصول الجماعة على دعم كبير فى حصص ورق مدعوم لصحف الجماعة وتمويل كبير للأنشطة التعليمية والاجتماعية.

● إن معظم الخلافات التى ثارت فى صفوف الجماعة قد إتخذت من موضوع التمويل ومصادره مادة للهجوم على الشيخ البنا فمنذ انقسام الإسماعيلية وحتى إنقسام شباب سيدنا محمد ثم انقسام السكرى كانت المسائل المالية عنصراً مشتركاً.

● إن الشيخ البنا إذ أحكم قبضته على كل أوجه نشاط الجماعة، انفرد تماماً وبشكل خاص بموضوع المالية.

● إن كثيراً من حملات التبرعات كان ينظمها الشيخ البنا كانت تغطى سريعاً، وبطاقات تفوق الإمكانات المالية المحدودة لأعضاء غالبيتهم العظمى من محدودى الدخل، بما يوحى بأن فتح باب التبرع كان فى أغلب الأحيان غطاءً لتمويل غير مرئى.

كذلك فإن الكثيرين من الإقطاعيين والرأسماليين قد قدموا تبرعات مالية وعينية للجماعة مبررين ذلك بتشجيع الجماعة على محاربة الشيوعية(١٤٩).

● إن اتهامات كثيرة قد ترددت فى أن تمويلاً خاصاً قد تعاطته الجماعةمن الإنجليز تارة ومن الألمان تارة أخرى(١٥٠).

والحقيقة أن وثائق مودعة فى الأرشيف العام البريطانى تشيرإلى دعم مالى كبير من المانيا النازية. وهو ما سوف نشير إليه فيما بعد، إلا أن الباحث المدقق يكتفى بطرح هذه التساولات ما لم يجد إجابة مؤكدة. ومعها يستمر أيضاً فى طرح سؤال هو: من أين إذن كل هذا السيل المتدفق من التمويل؟

ولكى نؤكد أن هذا السؤال الأخير فى محله تماماً، فإننا نقدم مجرد نموذج محدود جداً من استثمارات جماعة الإخوان المسلمين:

● شركة الإخوان للصحافة ورأسمالها ٥٠٠٠٠ جنيه.

● شركة الإخوان للطباعة ورأسمالها ٧٠٠٠ جنيه.

● شركة الإعلانات العربية،ويقال إن رأسمالها قد بلغ ١٠٠٠٠٠ جنيه(١٥١).

● شركة المعاملات الإسلامية وقد بلغ رأسمالها عام ١٩٤٦م ٣٠٠٠٠ جنيه(١٥٢). وقد امتلكت عديداً من المصانع منها على سبيل المثال مصنع البلاط الذى اتخذ غطاء لصناعة أخطر المواد المتفجرة التى امتلكتها الجماعة وهى قطن البارود.

● الشركة العربية للمناجم والمحاجر ورأسمالها ٦٠٠٠٠ جنيه.

● شركة الإخوان المسلمين للغزل ورأسمالها ٨٠٠٠ جنيه.

● شركة التجارة والأشغال الهندسية ورأسمالها ١٤٠٠٠ جنيه(١٥٣).

● شركة التوكيلات التجارية بالسويس (لم نصل إلى رقم رأسمالها».

● شركة مزرعة العركى «وكانت تمتلك ٨٠٠ فدان»(١٥٤).

من أين أتت الجماعة بكل هذه الأموال؟

سؤال يفرض نفسه.. فالأرقام كبيرة جداً خصوصاً إذا ما أضفنا إليها الأصول الأخرى كالمدارس والمقار والمشاغل.. والعيادات والمستوصفات.. إلخ.

والإجابة المباشرة صعبة، إلا إذا وجد الباحث الجرأة فى استصدار أحكام قاطعة مستنداً فقط إلى الشبهات القوية. وليس أمامنا سوى أن نواصل البحث. فلعلنا فى فصل قادم نجد المزيد من الضوء نسلطه حول منطقة الغموض هذه فى تاريخ الرجل وتاريخ الجماعة.

الهوامش

(١) حسن البنا - مذكرات الدعوة والداعية - ص٤٩.

(٢) طارق البشرى الحركة السياسية فى مصر ١٩٤٥ - ١٩٥٢ (١٩٧٢).

(٣) «إسرائيل» ١٩٣١/٧/٣١.

(٤) حسن البنا – المرجع السابق - ص١٨.

(٥) فتحى العسال - حسن البنا كما عرفته - ص٥٤.

(٦) حسن البنا - المرجع السابق - ص٢٢.

(7) Khadduri - Ibid-p.74.

(٨) المرجع السابق، ص٧

(٩) لمزيد من التفاصيل عن جماعة الشبان المسملين راجع:

Heyworth - Dunne.J - Religious and political Trends is Egypt, (1950) p.11-14.

(10) Khadduri - Ibid,.70

(١١) المرجع السابق ـ ص٧٣ -٧٤.

(١٢) حسن البنا ـ مذكرات الدعوة والداعية ـ ص٧٢

(١٣) ريتشارد ميتشل ـ الإخوان المسلمون «الترجمة العربية» ـ جـ١ ـ ص٣١.

(١٤) موسى إسحاق الحسينى ـ المرجع السابق ـ ص١٧.

(١٥) د.يونان لبيب رزق ـ الأحزاب المصرية قبل ثورة ١٩٥٢ .(١٩٧٧) ـ ص٨٨

(١٦) حسن البنا ـ المرجع السابق ص١٦.

(١٧) المرجع السابق ـ ص١٤٢.

(١٨) السيد محمد عشماوى (دكتور) ـ تاريخ الفكر السياسى المصرى ١٩٤٥ ـ ١٩٥٢.

(١٩) المرجع السابق ـ ص١١٢.

(٢٠) حسن البنا ـ بين الأمس واليوم ـ ص٢١.

(21) Gibb,W.A.R- Modern Trends in Islam (1947) p.7.

(٢٢) حسن البنا ـ المرجع السابق –ص٩.

(٢٣) السيد محمد عشماوى ـ المرجع السابق ـ ص٤٠٠.

(٢٤) آمال محمد كامل بيومى ـ التيارات السياسية فى مصر ١٩٤٥ ـ ١٩٥٢ ـ رسالة ماجستير غير منشورة – ص٢٥.

(٢٥) الأهرام ـ ٢٠ يناير ١٩٣٠.

(٢٦) مؤتمر طلبة الإخوان المسلمين (١٣٥٧هـ) (من خطاب لمحمود الجندى جمعة عضو مكتب الإرشاد العام).

(٢٧) الدعوة ـ ١٥ – فبراير–١٩٥٣ حسن العشماوى بعنوان: ماذا أقول عن حسن البنا؟

(٢٨) الدعوة ـ ١٥ – فبراير–١٩٥٥ ـ مقال عبدالرحمن البنا ـ بعنوان: الرجل الذي لم يحمل ضغناً.

(٢٩) الهلال ـ أبريل ١٩٧٧ ـ مقال: رأى كاتب أمريكى فى حسن البنا ـ بقلم روبير جاكسون ـ ترجمة أنور الجندى.

(٣٠) حسن البنا ـ مذكرات الدعوة والداعية ـ المرجع السابق ـ ص١٠٠.

(٣١) الهلال ـ أبريل ١٩٧٧ ـ رأى كاتب أمريكى فى حسن البنا ـ المرجع السابق.

(٣٢) الرسالة– ٢٨ – ابريل –١٩٥٢.

(33) Mitchell - Ibid- p.297.

(٣٤) فتحى العسال – حسن البنا كما عرفته ـ المرجع السابق.

(٣٥) موسى إسحق الحسينى ـ المرجع السابق ـ ص٥٤.

(٣٦) أبو الحسن الندوى. مذكرات سائح فى الشرق العربى ـ (١٩٥٤) ص٤.

(٣٧) أحمد أنس الحجاجى– الرجل الذى أشعل الثورة ـ (١٩٥٢) ص ٤.

(٣٨) حسن البنا ـ المرجع السابق ـ ص١٤٦.

(٣٩) المرجع السابق ـ ص١٦٦.

(٤٠) المرجع السابق ـ ص١٢٤.

(٤١) المرجع السابق ـ ص١٥١.

(٤٢) المرجع السابق ـ ص ١٤٢.

(٤٣) المرجع السابق ـ ص١٤٣.

(٤٤) حسن البنا ـ مجموعة رسائل الإمام الشهيد– ص١٥٠.

(٤٥) طارق البشرى، المرجع السابق – ص٣٦٧.

(٤٦) حسن البنا ـ المرجع السابق ـ ص٢٠٦.

(٤٧) محمد شوقى زكى، الإخوان المسلمون والمجتمع المصرى ـ (١٩٥٤).

(٤٨) قانون النظام الأساسى لهيئة الإخوان المسلمين العامة، م١٩، ص١٦.

(٤٩) الجمهورية ٢٣– سبتمبر –١٩٥٤.

(٥٠) لطفى عثمان –قضية مقتل النقراشى باشا ـ القاهرة (١٩٥٠) ص٣٧.

(٥١) الدعوة ١٩٥٢/٢/١٢ ـ مقال صالح عشماوى

(٥٢) محكمة الشعب ـ الجزء الأول ـ المحاكمات التى تمت من ١٣/٩ نوفمبر ١٩٥٤، محاكمة محمود عبداللطيف، شهادة هنداوى دوير– ص٣٣.

(٥٣) الإخوان المسلمون «الأسبوعية» ١٩٤٦/١٠/٢٦ ـ حديث الأسبوع.

(٥٤) حسن البنا ـ رسالة التعاليم.

(٥٥) أنور الجندى ـ الإخوان المسلمين فى ميزان الحق ـ ص٦٩.

(٥٦) قانون النظام الأساسى لهيئة الإخوان المسلمين وشعبها طبقاً للتعديل الذى أقرته الجمعية العمومية باجتماعها غير العادى ٣٠ يناير ١٩٤٨ ص٧.

(٥٧) د.حسين فوزى النجار ـ الإسلام والسياسية ـ القاهرة ١٩٧٧ ص١٧٤.

(٥٨) أبو الأعلى المودودى ـ نظرية الإسلام السياسية ـ القاهرة ١٩٧٧ ص ٢٩، ٣٠.

(٥٩) إسحق موسى الحسينى – المرجع السابق ـ ص١١٤.

(٦٠) أنور السادات ـ أسرار الثورة المصرية ـ ص٦٦.

(٦١) طارق البشرى ـ المرجع السابق ـ ص٦٩

(٦٢) المأثورات وورد الرابطة للإمام الشهيد حسن البنا ـ هدية مجلة الدعوة ـ أغسطس ١٩٧٦.

(٦٣) محمود عبدالحليم ـ الإخوان المسلمون ـ أحداث صنعت التاريخ ـ جـ١ ـ ص٥٤.

(٦٤) المرجع السابق ـ جـ٢ ـ ص٤٦٥.

(٦٥) أحمد عادل كمال ـ النقط فوق الحروف ـ الإخوان المسلمون والنظام الخاص ـ ص٦٦.

(٦٦) مجلة الإخوان المسلمون «الأسبوعية» ١٣ محرم ١٣٦٥ هـ ـ ٧ ديسمبر ١٩٤٦ ـ مقال بقلم «أمين».

(٦٧) د.رؤوف شلبى ـ الشيخ حسن البنا ومدرسة الإخوان المسلمون ـ ص٢٣.

(٦٨) عبدالباسط البنا ـ تاج الإسلام وملحمة الإمام ـ القاهرة (١٩٥٢) ص٢.

(٦٩) عبدالخبير الخولى – قائد الدعوة الإسلامية ـ حسن البنا (١٩٥٢) ص٢١.

(٧٠) محمد لبيب البوهى– الإيمان والرجل ـالقاهرة (١٩٥٠) ص٥٩.

(71) Mitchell - Ibid-p.189.

(٧٢) الهلال ـ أبريل ١٩٧٧ ـ رأى كاتب أمريكى.. المرجع السابق.

(٧٣) المرجع السابق.

(74) Mitchell - Ibid -p.190

(٧٥) الدعوة ٢٢ – ابريل– ١٩٥٢.

(٧٦) حسن البنا – مذكرات الدعوة والداعية ـ المرجع السابق ـ ص٩٦.

(٧٧) المرجع السابق ـ ص١٣٨.

(٧٨) الهلال ـ مايو ١٩٧٧ ـ مقال :حسن البنا فى رأى كاتب أمريكى – المرجع السابق.

(٧٩) مجلة الشباب ـ ١٤– نوفمبر–١٩٤٧ ص٠٣ وراجع أيضاً أحمد أنس الحجاجى– رسالة من المريخ – ص٥٦.

(٨٠) محمد الغزالى، الإسلام المفترى عليه بين الشيوعين والرأسماليين – ط ٣ (١٩٥٣) ص٢٦.

(٨١) محمد الغزالى ـ فى موكب الدعوة ـ (١٩٥٠) ص١٢.

(٨٢) محمد الغزالى – الإسلام والاستبداد السياسى ـ القاهرة (١٩٥٠) ـ١٢.

(٨٣) عبدالمجيد الباجورى ـ حسن البنا ـ القاهرة (١٩٥٢ ـ ص١٢ وراجع أيضاً: عبدالقادر عودة، الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه.(١٩٥٢) ص٢٢.

(٨٤) محمد الغزالى، الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين ـ المرجع السابق ص٢٧.

(٨٥) المرجع السابق ـ ص٤٧.

(٨٦) الإخوان المسلمون ـ العدد الممتاز الصادر فى عام١٩٤٨ بمناسبة مرور عشرون عاماً على تأسيس الجماعة.

(٨٧) فتحى العسال ـ المرجع السابق ـ ص١٢٠.

(٨٨) المرجع السابق ـ ص١٢٧.

(٨٩) حسن البنا ـ بين الأمس واليوم.

(٩٠) محاكمات الثورة – الكتاب الأول ـ محاكمة إبراهيم عبدالهادى ـ ص١٧٩.

(٩١) الجمهورية ١٣ – فبراير –١٩٥٤.

(92) Vatikiotis - The Modren History of Egypt - p.323.

(93) Khadduri -Ibid - P73.

(94) Grunedaum - Ibid-p186.

(95) Ibid-p247.

(96) Wheellok, Keith - Nesser New Egypt. London (1960) -p.3.

(97) Vatikiotis - Ibid.p.323.

(٩٨) هكذا أورد الشيخ حسن البنا التاريخين معاً، لكن أحد الباحثين فى تاريخ الجماعة وهو روزنتال فى مقاله «الإخوان المسلمون فى مصر» المنشور فى مجلة «عالم الإسلام» عدد أكتوبر ١٩٤٧» اكتشف عنه مقارنة التقويمين الهجرى والميلادى أن ذى القعدة ١٣٤٧ هـ يوافق شهرى أبريل – مايو ١٩٢٩.ونلاحظ أيضاً أن الجماعة قد احتفلت بعيد تأسيسها العاشر فى يناير ١٩٣٩ مما يرجح أن تاريخ التأسيس هو عام ١٩٢٩ فعلاً. لكن الجماعة عادت فاحتفلت بالذكرى العشرين لتأسيسها فى سبتمبر ١٩٤٨ الأمر الذى عاد بنا إلى ترجيح عام ١٩٢٨ خاصة وأنه هو التاريخ المذكور فى المادة الأولى من النظام الأساسى للهيئة العامة للإخوان المسلمين– ص٥.

(٩٩) حسن البنا ـ مذكرات الدعوة والداعية ـ ص٩١.

(١٠٠) المرجع السابق ـ ص٨٦.

(101) Vatikiotis - Ibid.p.262.

(١٠٢) حسن البنا – المرجع السابق، ص١٠٩.

(١٠٣) لبيب البوهى ـ الإيمان والرجل ـ ص١٠.

(104) N.Safran, Egypt in Search of Political community - (1961) p.202.

(١٠٥) ليوناردو بايندر، الثورة العقائدية فى الشرق الأوسط ـ تعريب خيرى حماد ـ القاهرة (١٩٦٦) ـ ص٧٨.

(١٠٦) د.إسحق موسى الحسينى ـ المرجع السابق ـ ص٢١.

(١٠٧) لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع راجع : د.رفعت السعيد ـ مصطفى النحاس السياسي والزعيم والمناضل ـ دار القضايا ـ بيروت (١٩٧٦).

(108) Peters Donald- The Moslem Brotherhood, Terrorists of Zealots - Reporter, VIII(17 Mar. 1953) p.8

(١٠٩) السيد يوسف ـ الإخوان المسلمون، هل هى صحوة إسلامية؟ ـ جـ١ ـ (١٩٩٤) – ص١٦٥.

(١١٠) حسن البنا – المرجع السابق ـ ص١٠٠.

(١١١) السيد يوسف ـ المرجع السابق ـ ص١٧٤.

(١١٢) الإخوان المسلمون ـ ٥ سبتمبر ١٩٤٨ مقال بقلم الأستاذ محمد البنا

(١١٣) المرجع السابق.

(١١٤) محمود عبدالحليم ـ الإخوان المسلمون، أحداث صنعت التاريخ ـ المرجع السابق ـ جـ١ـ١١٠

(١١٥) إبراهيم قاعود ـ عمر التلمسانى شاهداً على العصر ـ ص٣٩.

(١١٧) عبدالباسط البنا– المرجع السابق.

(١١٨) حسن البنا ـ المرجع السابق ـ ص٢١٧.

(١١٩) عبدالباسط البنا، المرجع السابق ـ ص٢٦.

(١٢٠) المرجع السابق ـ ص١٤٥.

(١٢١) حسن البنا ـ تذكرة الداعى ـ مقال بمجلة الإخوان الشهرية العدد التاسع.

(١٢٢) د.يونان لبيب رزق ـ المرجع السابق ـ ص١٠٧.

(١٢٣) حسن البنا ـ مذاكرات الدعوة والداعية – ص١٨٣.

(١٢٤) طارق البشرى ـ المرجع السابق ص٥٢ ـ «يلاحظ أن هذه العبارات وأمثالها قد حذفت من الطبعة الثانية للكتاب».

(١٢٥) حسن البنا ـ رسالة المؤتمر الخامس ـ ص٢٤.

(١٢٦) محمد شوقى زكى ـ المرجع السابق ـ ص١٢١.

(١٢٧)الدعوة ١٥–ابريل–١٩٥١.

(128) Mitchell - Ibid - p.196.

(١٢٩) نظام الأسر: نشأته وأهدافه، ص١٨

(١٣٠) المرجع السابق ـ ص١٨.

(١٣١) المرجع السابق ـ ص١٥.

(١٣٢) رضوان محمد رضوان ـ المأثورات.

(١٣٣) أحمد أنس الحجاجى ـ روح وريحان ـ المرجع السابق – ص٢٠٠.

(١٣٤) لمزيد من التفاصيل راجع: الإخوات المسلمات ـ الرسالة الأولى ـ القاهرة ـ ١٩٥١.

(135) Mitchell - Ibid- p.173

(١٣٦) حسن البنا ـ الرسائل الثلاث ـ ص١١.

(١٣٧) الدعوة ١٢ – فبراير –١٩٥٢.

(138) Mitchell - Ibid- p.185.

(١٣٩) حسن البنا ـ مذكرات الدعوة والداعية ـ ص١٤٩.

(140) Heyworth -Dunne - Ibid- p.57.

(141) Vatkiotis -Ibid- p.361.

(142) Mitchell-p.284.

(١٤٤) عبدالقادر عودة، الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه – المرجع السابق.

(١٤٥) الإخوان المسلمون ٥– أغسطس –١٩٤٨.

(١٤٦) الإخوان المسلمون ١٧–يوليو–١٩٤٦.

(١٤٧) الإخوان المسلمون ١٠– يوليو– ١٩٤٦.

(١٤٨) حسن البنا ـ قول فصل ـ ص٣٤.

(149) Mitchell - Ibid- p182.

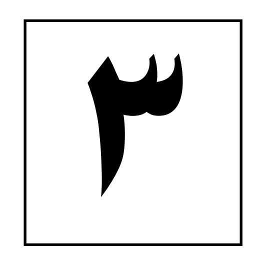
(150) Ibid- p.182.

(151) Heyworth - Dunne-Ibid-p.57.

(152) Mitchell-Ibid-p.275.

(153) Mitchell- Ibid- p.275.

(١٥٤) المصور ١١/١١/١٩٥٥.



سياسة بلا برنامج

مع من٠٠ وضد من؟

وفي السياسة كما في القضايا الاجتماعية لعبت المناورة والمداراة، والأقوال المطاطة التي تحتمل أكثر من معني الدور الأساسي في كتابات وممارسات الأستاذ البنا وجماعته٠

وإذا كانت السياسة هي المحور الأساسي بل الهدف الأساسي للشيخ، فإن مجال المناورة فيها كان أكثر رحابة وأكثر سهولة، لكن الانحياز أو عدم الانحياز أو المناورة في القضايا الاجتماعية كان أكثر صعوبة، بل أكثر خطراً علي علاقات الشيخ بقوي اجتماعية كانت تلتهب صراعاتها فيما بينها في حين أن الشيخ كان يريد أن يكون معها جميعا، بل يريد لها أن تكون جميعها معه٠

لقد كان الشيخ البنا بحاجة إلى طرفي الصراع معاً٠ الأغنياء والفقراء- كبار الملاك والفلاحين- الرأسماليين والعمال٠ فالفقراء هم قاعدته الأساسية، والأغنياء وكبار رجال الدولة هم رافعته، وقد أراد البنا أن يحتفظ بالقاعدة والرافعة معاً٠ واحتاج ذلك منه الكثير من المناورة والمداراة وأحيانا التلاعب٠٠ دون جدوى٠

* * *

وإذا كان البنا قد تجنب في البداية، أو بالدقة تظاهر بعدم الاهتمام بالسياسة، إلا أنه إذ استشعر بعضاً من القوة استمدها من دفء علاقته التي أصبحت حميمة بالقصر الملكي فقد بادر بإظهار أظافر سياسية بدأت في تلوين توجهات الدعوة والطفو بها في ساحة الفعل السياسي٠

وفي العدد الأول من مجلة «النذير» يخاطب البنا رجاله «لقد انتقلنا من دعوة الكلام وحده إلى دعوة الكلام المصحوب بالعمل» ويشير إلى الأحزاب السياسية قائلا :«ستخاصمون هؤلاء جميعاً، في الحكم وخارجه خصومة شديدة لديدة أن لم يستجيبوا لكم»(١)

وهو يعلن افتراقه عن الجميع «إلى الآن أيها الإخوان لم تخاصموا حزبا ولا هيئة، كما

أنكم لم تنضموا إليهم. ولقد تقول الناس عليكم فمن قائل إنكم وفديون نحاسيون، ومن قائل أنكم سعديون ماهريون ومن قائل أنكم أحرار دستوريون، أو أنكم بالحزب الوطني متصلون، أو لمصر الفتاه منتسبون إلى غير ذلك، وأنكم لبريئون، فما اتبعتم غير رسوله زعيما وما اتخذتم سوي الإسلام غاية، فدعوا الناس جانباً وخذوا في الجد، والزمن كفيل بكشف الحقائق»(٢)

ويأتي الزمن. البنا يستشعر بعضا من القوة، وجماعته تمتلك بعضا من الركائز، فيقرر البنا أن يتحدث بكلمات عامة ومطاطة عن جماعته التي كانت ولم تزل غامضة في أذهان الكثيرين، بل حتي في أذهان رجالها أنفسهم. البنا يحاول أن يقدم نفسه وجماعته للآخرين «يقولون نحن في حيرة من أمر الإخوان المسلمين، أهي طريقة صوفية أم جمعية خيرية، أم حزب سياسي، وأي شيء يقصدون، وفي أي طريق يسيرون، أما نحن الإخوان فقد تجاهلنا هذه المسميات وأخذنا في الطريق الأول الذي لا يصلح أمر الناس إلا عليه، الدعوة إلى كتاب الله وسنة رسول الله، ونهجنا منهج الإسلام، ووسيلتنا إيمان ومحبة وعمل»(٣)

لكن البنا لم يفتح نوافذ جماعته أمام أحد، فيظل يراوغ بالكلمات التي لا تحمل مضمونا محددا ويسأل: «هل نحن طريقة صوفية، أم جمعية خيرية، أم مؤسسة اجتماعية أم حزب سياسي؟ نحن دعوة القرآن، ودعوة الحق الشاملة الجامعة، نحن نجمع بين كل خير»(٤) لكنه يعود فيقول «إن الإخوان دعوة سلفية، طريقة صوفية، هيئة سياسية ، جماعة رياضية، رابطة علمية ثقافية، شركة اقتصادية، فكرة اجتماعية»(٥)، ثم- ويا للغرابة - لا يلبث أن يصيح في رجاله «أيها الإخوان أنتم لستم جمعية خيرية، ولا حزباً سياسياً، ولا هيئة موضعية الأغراض محدودة المقاصد، ولكنكم روح جديد، ونور جديد، وصوت داو»(٦) ولقد يتصور البعض أن في هذا نوع من التخبط، لكنني أعتقد أنه تخبط مقصود لذاته، ومخطط بشكل محكم لكي تظل الجماعة قادرة علي التعامل علي أي وجه، ومع أي محيط، وكي يمكنها أن تتقلب لتتلاءم مع أي تقلب.

وفي محضر تحقيق النيابة تحدث عبد المجيد حسن قاتل النقراشي باشا محاولاً أن يوضح طبيعة الجماعة «الإسلام عقيدة وعبادة، ووطن وجنسية، وسياسة وقوة، وثقافة وقانون بمعني إنه في عهد المسلمين الأوئل ماكانش فيه حاجة اسمها سياسة فكان الحاكم هو الإمام وهو الحاكم في الوقت ذاته، وهو قائد الجيوش، يتفرغ للسياسة والدين علي أساس أن السياسة جزء من الدين»(٧)

إنه مجرد تكرار لأقوال المرشد الذي قال «أيها الناس، الإسلام فكرة وعقيدة ونظام

ومنهاج لا يحده موضع ولا يقيده جنس ولا يقف دونه حاجز جغرافي ولا ينتهي بأمر، حتي يرث الله الأرض ومن عليها»(٨) وقال في موضع آخر «ليس هناك شيء اسمه دين وشيء اسمه سياسة أنها بدعة أوربية» (٩) ثم يقول «أستطيع أن أجهر في صراحة بأن المسلم لا يتم إسلامه إلا إذا كان سياسياً بعيد النظر في شئون أمته مهتما بها غيوراً عليها، وإن علي كل جمعية إسلامية أن تضع في رأس برامجها الاهتمام بشئون أمتها السياسية، وإلا كانت تحتاج إلى فهم معني الإسلام »(١٠)

وهكذا تكشف الجماعة بعضا من أوراقها، مجرد بعض من أوراقها ، وليس كل الأوراق.

ومع المايسترو تعزف الجوقة ذات الألحان فيقول أحد قادة الإخوان «لقد كان رسولنا الكريم يوقع المعاهدات ويباشر المفاوضات ويراسل ملوك ويسير الجيوش في الوقت الذي كان فيه رجلا يصلي بالناس ويقيم شعائر الإسلام، فهل كان في هذا رجلا سياسيا؟ نعم، كان كذلك ونحن من بعده نسير علي منهاجه، ونعتقد أن السياسة علي قواعد الإسلام وإعلاء كلمة الله من صميم فكرتنا»(١١)

ويقول آخر أتحسب إن المسلم الذي يرضي بحياتنا اليوم ويتفرغ للعبادة ويترك الدنيا والسياسة للعجزة والآثمين والدخلاء والمستعمرين يسمي مسلماً؟ كلا إنه ليس بمسلم »(١٢) وهي عبارة تكاد أن تكون منقولة نصاً من أحد مقالات البنا .

لكن الأمر لم يكن بهذه البساطة فسرعان ما تخفي الجماعة أظافرها السياسية وتكتفي بالحديث الديني. وهكذا في مراوغة استمرت سنوات عدة.

ولا يكون أمام أي باحث مهما كان محايداً إلا أن يفترض أن الشيخ كان يتعمد وبشكل ظاهر الخلط والمراوغة. وتصف باحثة غربية هذا الأسلوب بأنه «أسلوب ذو فاعلية واقتدار فهو يؤكد على الطابع الديني للجماعة إذا ما جابهه في الحكومة رئيس قوي، ولكنه لا يلبث أن ينغمس في الصراعات السياسية إذا ما وجد أمامه رئيسا ضعيفا للحكومة » (١٣). ويأتي باحث مصري ليعلق على هذا الموقف فيقول : «وهكذا استطاع البنا أن يراوغ الحكومات والأحزاب والرأي العام بوجهي الدعوة ، وكان هذا الغموض يحل مشكلة أخرى للجماعة ، فهي تنظيم سياسي، أي حزب يسعي للسلطة بينما تنادي بالقضاء على الحزبية وإلغاء كل الأحزاب. ثم كان هذا الغموض أيضا يعفي الجماعة من تحديد الأهداف الواضحة فيما يتعلق بالقضايا السياسية الجوهرية التي تواجه الأمة كالمسألة الوطنية ، ومشاكل نظام الحكم الداخلي، ويعفيها من تفسير الموقف العملي الذي تتخذه في كل مناسبة ، ويمنحها القدرة علي أن تطرح للناس موضوعاً أو

مشكلة مغايرة تماماً لما يشغل الجميع من مشاكل سياسية حادة في أي لحظة»(١٤)٠

ولعله من المفيد٠٠ وقبل أن نخوض مع الشيخ حسن البنا بحر السياسة المتلاطم الأمواج المختلط المواقف أن نشير إلى معارضات قوية ذات وزن إسلامي حقيقي حاولت أن تفند فكرة الشيخ وجماعته من قضية الدين والسياسة ٠

يقول الباحث المدقق د٠ حسين فوزي النجار «ويضع محمد مبادئ للحكم والسياسة ، ولكنه لا يضع نظاماً للحكم ولا يتخذ في السياسة قاعدة أو أسلوبا إلا ما يتفق مع مبادئ الأخلاق وهدي الرسالة وخير المسلمين»، ويرد علي مقولة الشيخ حسن البنا من أن النبي كان يجمع بين مهمة رجل الدين ورجل الدولة فيقول «من الخطأ أن نقول أن محمداً كان يسوس أمور الدين إلى جانب قيامه بشئون الجماعة الإسلامية ، فإذا حق لنا أن نقول إنه قام مع الصحابة بسياسة المسلمين، فما كان في أمور الدين إلا مبعوثا وأختاره الله لتبليغ رسالته إلى العاملين»(١٥) ويقول «لقد تحولت الجماعة الإسلامية غداة إلتآمها بالمدينة إلى جماعة سياسية بحكم ما واجهت من ظروف حياتها الجديدة، ولعل ذلك كان من أسباب الخلط بين فكرتي الدين والدولة فى الإسلام، ولم يجمع النبي بينهما، ولم يأت فى القرآن ما يشير إلى إقامة الدولة ، وإن ورد فيه ما يشير إلى الأمة الإسلامية بمعني الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» (١٦)٠ ويؤكد علي أن «التشريع الإسلامي تشريع للحياة وللحضارة وليس تشريعا للدولة (١٧)»

والحديث عن خطأ فكرة الخلط بين الدين والسياسة طويل وملئ بالحجج والأسانيد٠ فقط أردنا بهذا المثال الإشارة إلى أن دعوة الشيخ لم تمر بغير معارضة من الباحثين الإسلاميين٠

ولنعد، إلى مقولة البنا عن الدين والسياسة ٠ ولنسجل ملاحظاتنا سريعاً على مواقفه العملية٠

فالبنا إذ يعلن نفسه كزعيم سياسي، ويقدم جماعته كهيئة سياسية لا يستنكف من أن يحرم الآخرين جميعا من حق العمل السياسي، «لقد آن الأوان أن ترتفع الأصوات بالقضاء علي نظام الحزبية فى مصر٠ وأن يستبدل به نظام تجتمع فيه الكلمة، وتتوافر فيه جهود الأمة حول منهاج قومي إسلامي صالح»(١٨)

والشيء الذي قد يبدو محيراً للباحث المحايد هو أن البنا كان يؤكد أن الأحزاب والنظام الحزبي ليسا ضروريين لقيام حكومة تمثل الشعب إذ يمكن لهذه الحكومة أن تقوم بدون حزبية ذلك لأن الأحزاب تقسم الأمة ولا تتفق مع النهج الإسلامي (١٩)

وإذ يدعو البنا صراحة إلى حل كل الأحزاب القائمة فإنه لا يجد غضاضة فى أن يطالب الجميع بأن يفسحوا له الطريق وحده «فحل الأحزاب السياسية سيتلوه قيام حزب واحد علي أساس برنامج إسلامي إصلاحي»(٢٠). ولعله يبدو غريبا أن يمعن البنا في فكرة تصفية كل الاحزاب السياسية ما عدا حزبه إلى درجة الاستشهاد بتجربة الحزب الواحد في روسيا وتركيا وكليهما دولتين لا ترضي جماعة الإخوان عن نهجهما(٢١).

وتستمر علامات الاستفهام وعلامات التعجب فى التراكم. ولا نملك إلا أن نمضي مع رحلة الشيخ السياسي لنسجل ملاحظتنا.

فالبنا يقدم نفسه كحزب سياسي يريد السلطة. بل ويؤكد أكثر من مرة أنه لن يسعي إلى السلطة وإنما السلطة هي التي ستسعي إليه «فنحن لا نسعي للحكم، ولكن هو الذي سيسعي إلينا فيما نعتقد. وحينئذ نفكر فى تحديد موقفنا منه، أنقبله أم نرفضه» (٢٢) ، لكنه مع ذلك لا يقدم أي برنامج سياسي، بل لعله قد تهرب كثيراً من تحديد أي موقف سياسي واضح من أي قضية قومية أو وطنية أو اجتماعية . وإذا ما سئل كأي زعيم سياسي عن برنامجه أجاب «نحن مسلمون وكفي، ومنهاجنا منهاج رسول الله صلي الله عليه وسلم وكفي، وعقيدتنا مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله وكفي »(٢٣) ثم هو لا يزيد الأمر تفصيلا، فإذا أبدي البعض شكوكه حول إمكانية العمل السياسي دون برنامج سياسي اتهمه الشيخ بأنه «مريض القلب، سيئ الظن، فهو يطعن ويتجني ويتلمس للبراءة العيب، وكلا الأمرين وبال على صاحبه وهلاك للمتصف به».

غير أن الأمر ليس بهذه السهولة ، إذ لا يمكن لرئيس جماعة سياسية أن يقتحم ميدان العمل السياسي معلنا أن الإسلام «طاعة وحكم ومصحف وسيف» دون أن يدفع الجميع إلى التساؤل حول من الذي سيستعمل السيف؟ وضد من؟ ولعل التساؤلات بدت فى محلها تماماً عندما استخدم السيف بالفعل أسلوبا فى تعاملات الجماعة مع خصومها.

والإخوان لا ينكرون حقيقة أنهم جماعة سياسية بغير برنامج سياسي.

يجيب واحد من قادة الإخوان المسلمين «هنداوي دوير» فى شهادة له أمام المحكمة، رداً علي سؤال المدعي : ألم تضعوا أبحاثا عن كيفية الحكم بالإسلام؟ قائلا «أيام الأستاذ البنا طلبت منه أن يكتب فى هذا فقال لي، أذكر بالضبط أنه قال لي أن إحنا شبعنا كتب وكتابات، وأن المكتبة الإسلامية مليئة، وأن مهمتنا مش إننا نعمل كتب بل مهمتنا إننا نعمل رجالة ».

«ويعود المدعي ليسأله: يعني مفيش تحديد ولا نص؟

فيجيب : الواقع أن الإخوان لم يعدوا هذا الدستور. وأنا قلت لحضراتكم أنني قلت

للأستاذ البنا إحنا عاوزينك تفضي شوية على أساس أنك تكتب لنا إيه اللي يطبقه الإخوان ٠ وأذكر أنه قال في مناسبة ما أن الناس يجتمعون على مبادئ لا علي تفاصيل، لأننا إذا دخلنا فى التفاصيل فسنختلف ونتفرع ولا ننتهي إلى خير كثير، وإن إحنا ماشيين على مبادئ إسلامية ولو تعرضنا للتفاصيل فيمكن يجئ فقيه ويختلف معنا وجايز نستهلك فى مسائل فرعية »(٢٦)

ويؤكد قائد آخر من قواد الجماعة هذه الفكرة ، ويؤكد أن انعدام البرنامج كان أمرا مقصودا٠ يقول منير الدلة عضو مكتب الإرشاد العام في شهادته أمام محكمة الشعب خلال محاكمة الأستاذ المرشد حسن الهضيبي :

– وكيل النائب العام: هل لجمعية الإخوان برنامج لنظام الحكم؟

– الشاهد : ليس لجماعة الإخوان برنامج مفصل لنظام الحكم٠

– وكيل النائب العام: على أي أساس تقوم دعوتهم؟

– الشاهد : الجمعية أو الهيئة تنادي بالدعوة الإسلامية ، وتدعو إلي الفكرة العامة الإسلامية، الفكرة الإسلامية كفكرة عامة ، ولا تضع نظاما محدداً دقيقاً يسمي نظام الحكم الإسلامي٠ ولكنها ترسم خطوطاً عريضة إذا تحققت وجد نظام الحكم الإسلامي، ويمكن يوجد داخل هذه الخطوط عدة أنظمة تبقي كلها إسلامية ، إذا كان متوافر فيها الشروط العامة التي يضعها الإسلام، أما اختيار نظام معين وتسميته أنه نظام إسلامي فهذه فكرة دقيقة ، وهذا هو ربما من الأسباب التي دعت الجمعية بألا ترسم صورة وتفرضها بتسميتها أنها نظام الحكم الإسلامي واكتفت ببيان الدعوة الإسلامية أو الأسس الإسلامية فى الناحية السياسية مطالبة به فى منحي الحياة العامة٠

– وكيل النائب العام: ونظام الحكم فى مصر هل يخالف الإسلام؟

– الشاهد: الإسلام يضع القواعد العامة ، والحكم يبقي إسلامي إذا كان فيه شوري بأي صورة من الصور ومفيش صورة محددة ، ومادام قائما على العدالة ومسئولية الحاكم عن أعماله الفردية هذه المعاني لو تتوفر يبقي نظام إسلامي٠ وإذا استكمل الوضع الدستوري فى الوضع الحالي أي لما يستكمل نظام الشوري بإعادة الحياة النيابية يبقي الوضع الإسلامي »(٢٥)

ونتوقف أمام أكثر من علامة استفهام ترد فى شهادة عضو مكتب الإرشاد العام٠

«لا نظام إسلامي واحد محدد بل يمكن أن يوجد داخل هذه الخطوط عدة أنظمة تبقي كلها إسلامية »!٠

«اختيار نظام معين وتسميته أنه نظام إسلامي فكرة دقيقة »!

«نظام الحكم الذي كان قائما في مصر عام ١٩٥٤ نظام إسلامي فقط تنقصه «الشوري»!

ولعله من حق الجماعة علينا أن نفحص هذه الأفكار فلقد تكون كلاما أرسل من سجين رهن القيد، كما اعتاد الكثير من الإخوان أن يفعلوا في اعترافاتهم. ولهذا فلعله من الضروري أن نتلمس نحن وعبر المراجع الإخوانية حقيقة «النظام الإسلامي» الذي دعا الإخوان المسلمون إليه.

يقول الشيخ حسن البنا فى رسالته الحاسمة إلى الزعماء المصريين في عام ١٩٣٨ والمعنونة «نحو النور». «لابد من جديد فى هذه الأمة، هذا الجديد هو تغيير النظم المرقعة المهلهلة التي لم تجن منها الأمة غير الانشقاق والفرقة. وهو تعديل الدستور المصري تعديلاً جوهرياً بحيث توحد فيه السلطات ».

وفي رسالة المؤتمر الخامس يقول البنا «أن من نصوص الدستور المصري ما يراه الإخوان المسلمون مبهماً غامضاً يدع مجالا واسعاً للتأويل والتفسير الذي تمليه الغايات والأهواء، فهي فى حاجة إلى وضوح وإلى جديد وبيان. هذه واحدة، والثانية هي أن طريقة التنفيذ التي يطبق بها الدستور طريقة أثبتت التجارب فشلها وجنت منها الأمة الأضرار لا المنافع فهي فى حاجة شديدة إلى تحديد وإلى تعديل يحقق المقصود ويفي بالغاية ، ولابد أن تكون فينا الشجاعة الكافية لمواجهة الأخطار والعمل على تعديلها. أما الأمثلة التفصيلية والأدلة الوافية ووصف طرائق العلاج والإصلاح ففي رسالة خاصة إنشاء الله »(٢٧)

لكن البنا سرعان ما يتراجع خوفاً من أن يتهم بمناهضته للدستور أو لعله قد تلقى تأنيباً وتحذيراً ممن كان يخشاهم ويخشي أي تصادم معهم أي رجال القصر، ومن ثم يعود متراجعاً «إن الدستور بروحه وأهدافه العامة لا يتناقض مع القرآن من حيث الشوري وتقرير سلطة الأمة وكفالة الحريات. وأن ما يحتاج إلى تعديل منه يمكن أن يعدل بالطريقة التي رسمها الدستور ذاته»(٢٨).

بل هو يواصل تراجعه إلى درجة تثير الدهشة «ما كان لجماعة الإخوان المسلمين أن تنكر الاحترام الواجب للدستور باعتباره نظام الحكم المقرر في مصر، ولا أن تحاول الطعن فيه أو إثارة الناس ضده وحضهم على كراهيته، ما كان لها أن تفعل ذلك وهي جماعة مؤمنة مخلصة تعلم أن إهاجة العامة ثورة . وأن الثورة فتنة ، وأن الفتنة في النار»(٢٩)

لماذا كل هذه القعقعة إذن؟ ولماذا الحديث عن الجهاد وعن النظام الإسلامي وعن التغيير

الجذري، إذا كان النظام القائم سواء فى عهد «جلالة الملك» فاروق (صديق الإخوان) أو في عهد جمال عبد الناصر (عدوهم) مقبول من جانبهم. ولا ينكرون «الاحترام الواجب له، باعتباره نظام للحكم المقرر؟»

لقد خشي الشيخ البنا من التصادم مع السلطة وخشي من الثورة فأوقع نفسه بنفسه بين شقي الرحي، يريد ولا يريد، طالب بنظام إسلامي وبالجهاد بحد السيف من أجل تحقيقه، ثم يقبل ما هو قائم، ولا يحاول الطعن فيه أو إثارة الناس ضده.

والدهشة لم تتملكنا وحدنا من هذا الموقف المتناقض. فالباحث الأمريكي «ريتشارد ميتشيل» يعرب عن دهشته قائلا «دعا البنا إلى النظام الإسلامي، لكنه استخدم هذا التعبير استخداماً مطاطاً وأحياناً عني به الدولة الإسلامية، وعلي أية حال فقد قال البنا، وأكد الهضيبي من بعده هما وعدد من كتاب الإخوان أن النظام الدستوري البرلماني القائم فى مصر يمكنه إذا ما أدخلت عليه بعض إصلاحات أن يلبي المتطلبات السياسية للدولة الإسلامية » ويواصل ميتشل تعليقه قائلا «وإذا كان هذا صحيحا فإن النشاط السياسي للإخوان المسلمين إنما يهدف إلى شيء آخر غير الإطاحة بالنظام القائم»(٣٠) لكن باحثاً أمريكياً آخر يري أن كل هذه الأقوال كانت «مجرد ستار من الدخان يخفي سعي الإخوان للانقضاض علي النظام، ذلك أن أحداً لا يختلف في أن النظام المطبق في مصر لا يجعل منها دولة إسلامية »(٣١)، والأمر لا يقتصر فقط علي الدستور وإنما يمتد أيضا إلى «القانون»، فقد أكد الإخوان في أكثر من موضع وبلسان جهابذة من قادتهم أن القانون المطبق فى مصر- باستثناء بعض النصوص- يتفق مع نصوص الشريعة ولا يتناقض مع مبادئ الشريعة العامة (٣٢). وقد أكد هذا الموقف بتفصيل واف وإسهاب الأستاذ حسن الهضيبي أثناء محاكمته عندما قال أنه عندما كان يطبق القانون المدني وهو قاض لم يكن يناقض الشريعة الإسلامية .

ويعود ريتشارد ميتشل إلى التساؤل- وهو محق تماماً- «إذا ما كان الأمر كذلك، فلماذا إذن إصرار الإخوان على تطبيق الشريعة الإسلامية ؟»(٣٣)

وإذا كان البنا قد حاذر أشد الحذر من إبداء رأيه فى التطبيق التفصيلي للشريعة الإسلامية حرصا على ألا يؤدي بخوضه فى هذا الأمر إلى الفرقة والخلاف، أو إلى التصادم مع النظام القائم أو حتي القول باحتمال هذا التصادم، فإن بعض أتباعه من قادة حركة الإخوان ومفكريها قد قللوا من التناقض بين الشرعية الإسلامية وبين النظام القائم ولكن لصالح هذا النظام وتبريراً له.

ويؤكد سيد قطب قبل أن يتحول إلى طريق التطرف أن «السلطات الممنوحة لولي الأمر تعطيه حق التشريع مهتدياً بمسألتين: المصلحة المرسلة وسد الذرائع»(٣٤) ولابد لنا من أن نعيد ونكرر تساؤلنا فيم إذن كل الضجة عن العودة للنظام الإسلامي وعن جاهلية النظام الذي كان قائماً في الأربعينيات أو فيما بعدها، إذا كان الإخوان المسلمون قادرون دوما على التلون بأفكارهم ومبادئهم فهي تارة تتفق مع ما هو قائم، وتارة تطالب بإدخال تعديلات طفيفة عليه، وتارة ترفضه لأنه جاهلي وضلال، وكل ضلالة فى النار، ولا مبرر ولا معيار لقفز الجماعة من موقف سوي المصلحة الآنية ، الأمر الذي يثير ريبة الباحث في مدي جدية الشعارات التي ترفعها الجماعة أو تدعو لها.

وحتي التعديلات التي طرحها الشيخ البنا علي البناء الدستوري في ظل النظام الملكي لم تكن تتعدي «موضوع الشورى» ولكن ما هو رأيه في الشوري؟ إنه يري «أن أهل الشوري يكونون إما من رجال الدين، وإما من الرجال المتمرسين علي القيادة مثل رؤساء العائلات والقبائل، ولا تكون الانتخابات بمقبولة إلا إذا ما أسفرت عن اختيار أناس من هذين الصنفين»(٣٥)

وهكذا يرتد الشيخ حسن البنا بتعديله المقترح إلى ما هو أسوأ من قانون الانتخابات المطبق، ويعود به إلى المفاهيم الإقطاعية وشبه الإقطاعية المتخلفة والتي لا تثق في جمهور المواطنين الذين أكد الإسلام حقوقهم المتساوية مع الآخرين- وجعلهم سواسية كأسنان المشط- وإنما تركز ثقتها وطموحها في رؤوس العائلات الكبيرة وشيوخ القبائل..إلخ!

ومع ذلك فإن الأخوان المسلمين يرون أن «الشعب ليس حراً في اختيار نظام الحكم الذي يريده فالمواطنون معرضون للخطيئة ما لم يلزموا أنفسهم بحكومة تقوم علي أسس دينية » (٣٦)

وليس هذا غريباً «فأبو الأعلي المودودي» وهو واحد من المفكرين الذين يقدرهم الإخوان تقديرا عالياً يرفض الفكرة الديمقراطية من أساسها بل ويعتبر أن منح السلطة للجماهير وحتي للأغلبية المطلقة من هذه الجماهير مفسدة ومروق. ولنتابع كلمات الفيلسوف المعتمد من جماعة الإخوان المسلمين «أن المبدأ الرئيسي للديمقراطية الجديدة أن الناس بيد أنفسهم حكمهم وتشريعهم، وإلى أنفسهم كل التصرف في القوانين، يضعونها كما يشاءون». وإذ يستنكر المودودي ذلك فإنه يوجه إهانته المباشرة لمجموع الشعب قائلا «ومن البديهي أنه إذا كانت قوانين الحياة الاجتماعية كلها تابعة للرأي العام وكانت الحكومة كالعبد لآله هذه الديمقراطية الجديدة ، فلا يمكن لسلطات القانون والسياسة أن تصون المجتمع عن الإنحلال الخلقي، بل هي تعود بنفسها عوناً علي إفساد المجتمع ودفعه إلى المهالك. ولا يكون للحق والخير والصالح مقياس

غير كثرة الأصوات لصالح هذا الجانب أو ذاك. وأن اقتراحاً مهماً بلغ خبثه وضرره أن كان قد نال من رضي العامة ما يكسبه ٥١ صوتا في المئة فلا شئ يمنعه من أن يسمو إلى مرتبة الشرع»(٣٧)

ولا نملك سوي علامة استفهام أخرى؟

لكن النذير الذي اقتحم الميدان شاهراً سيفه يتقدم تارة عندما يستشعر ضعف النظام ثم يتراجع عند الضرورة وهكذا، كر وفر في أسلوب ماكر ويبدو أنه مرسوم مسبقاً.

وفي بداية ١٩٤٥ يدعو البنا الجمعية العمومية للإخوان المسلمين ويقترح بنفسه إدخال تعديلات علي قانون النظام الأساسي فيضاف إلى المادة الرابعة من الباب الثاني فقرة تقول : «يؤثر الإخوان دائما التدرج والتطور والعمل المنتج والتعاون مع كل محب للخير والحق، ولا يريدون بأحد سوءاً مهما كان دينه أو جنسيته أو وطنه»(٣٨)

وفي عام ١٩٤٨ يخطو الرجل خطوة أخرى في طريق التعمية إذ اقترح بنفسه تعديل المادة الثالثة من قانون النظام الأساسي بحيث أضاف إليها «يعتمد الإخوان فى تحقيق أغراضهم على وسائل الدعوة والتربية والتوجيه والعمل وكل وسيلة أخرى مشروعة »(٣٩)

ولابد من وقفة تأمل، فهل كان هذا التراجع حقيقيا؟ أم أن الشيخ كان يطبق مبدأ «الحرب خدعة» وأنه فى الوقت الذي كان يسلح فيه جيشه السري الخاص بالقنابل والديناميت والمدافع ويستعد به لأكبر حملة إرهاب شهدها تاريخ مصر الحديث كان يحاول أن يبث الطمأنينة في قلوب خصومه؟ إذا جاز لنا الترجيح فإننا نرجح الاحتمال الأخير، خاصة وأن هذه التعديلات المظهرية أتت فى وقت كان فيه الجهاز السري قد أكمل استعداده وتسليحه.

ونعود مرة أخرى لنحاول أن نبحث فى موضوع البرنامج المفتقد.

الشيخ يعد ويعد بأنه سيقدم برنامجاً ولا يفى بوعده، وقد قرأنا له في صفحات سابقة أكثر من وعد لم يف به. وها هو وعد آخر، ففي رسالته «إلى أي شيء ندعو الناس» أشار المرشد إلى قضايا العصر قائلا «أن العالمية والقومية والاشتراكية والرأسمالية والبلشفية والحرب وتوزيع الثروة والصلة بين المالك والمستهلك كلها مسائل خاض فيها الإسلام». ثم عاد الشيخ فقال «إن المقام لا يسمح بالتفصيل فأن الأمر يحتاج لجولات نعد بأن نفصل فيها القول»(٤١).. ولم يف البنا بوعده أبدا «ذلك أن البنا كان دائما غامضا في حديثه عن الاقتراحات التفصيلية والمتعلقة بالحكومة الإسلامية، وأنه لم يحدث مطلقا أن شرح نواياه بوضوح»(٤١)

ولا يبـقي أمـام البـاحث الراغب في الوصـول إلى الحـقـيقـة ، المصـمم علي فك طلاسم الغموض المفتعل سوي أن ينبش فى المواقف العملية بحثا عن البرنامج الفعلي الذي اختاره البنا بنفسه. فإذا كان البرنامج كوثيقة سياسية لم يكتب أبدا بواسطة الشيخ فإن مجموع خطواته العملية يشكل برنامجه الفعلي.

فلنسر خطوة خطوة مع الشيخ نتأمل تصرفاته ومواقفه من الأحداث والطبقات والقضايا لعلنا نفهم حقيقة برنامجه الذي أراد وعن عمد وإصرار أن يخفيه.

إن الشــيخ البنا ينصح أتبــاعــه قــائلاً «اشــغلوا الناس عن الفكرة البــاطلة بالفكرة الصحيحة»(٤٢)، أي إنه يتعمد ألا ينقد ما في أفكار الغير من خطأ وإنما ينقدها من خلال تقديم بديل.

فما هو البديل الذي قدمه الشيخ البنا؟

نفياً لدستور ١٩٢٣ نادي الإخوان «القرآن دستورنا».

ونفيا للزعامات السياسية(النحاس باشا أساساً) نادي «الرسول زعيمنا».

ونفياً للمصرية والنضال المصري رفعوا أعلام «الخلافة الإسلامية ».

ونفيا للنضال المشترك مع الشعوب الأخرى ينادي البنا «أن الدور عليكم في قيادة الأمم وسيادة الشعوب وتلك الأيام نداولها بين الناس»(٤٣)

ونفياً لأي نضال اجتماعي ضد ثراء الأثرياء الرأسماليين يقول الشيخ البنا «أما موقف الإسلام من الأغنياء وأصحاب رؤوس الأموال، فليس بيننا وبينهم إلا أداء الزكاة»(٤٤)

وطوال الأربعينيات وبينما كانت مصر كلها تغلي بالنضال ضد الاستعمار، والمظاهرات تملأ الشوارع مطالبة بالجلاء، والجامعة تلتهب بالعمل الثوري ضد الاحتلال وعلمائه نجد مؤتمر طلاب الإخوان ينحرف بالقضية كلها نحو ضرورة التركيز علي «استرجاع الخلافة الضائعة»(٤٥)

وفي رسالة «نحو النور» يورد البنا ما أسماه بالموبقات العشر ويضع الاستعمار على رأسها، ثم يورد خمسين مطلبا من المطالب العملية للدعوة تحت عنوان «بعض خطوات الإصلاح العملي» ولم يرد بها مطلب واحد يتعلق بالقضية الوطنية أو بالجلاء أو بالاستقلال أو بمقاومة الاستعمار، كل ما هناك عبارة تقول «تقوية الروابط بين الأقطار الإسلامية جميعا وبخاصة العربية منها تمهيدا للتفكير الجدي العملي في شأن الخلافة الضائعة »(٤٦)

وفي العيد العاشر للجماعة (١٩٣٨) أكد حسن البنا أن الإخوان يعطون الأولوية لاسترداد الخلافة . وفي رسالته «إلى أي شيء ندعو الناس» تحدث البنا عن الوطن الإسلامي قائلا إنه ما يسمو عن حدود الوطنية الجغرافية، والوطنية الدموية، إلى وطنية المبادئ(٤٧)

ولعل من حقنا أن نسأل هل كان الإخوان بكل ما علقوه من آمال علي الملك الفاسد فاروق كما أكد البنا نفسه عندما قال «إن لنا في جلالة الملك المسلم أيده الله أملا»(٤٨) وبكل ما قام بينهم وبين القصر من علاقات سنشير إلى بعضها في صفحات قادمة، هل كانوا وهم يتحدثون عن الخلافة الضائعة يلوحون بها للملك فاروق؟ أم أي خليفة آخر كانوا يريدون؟

وما يدفعنا لهذا السؤال هو إصرار الإخوان ومرشدهم علي أن القضية المحورية كانت استعادة الخلافة، ولم يقولوا أي خليفة يريدون، بل ولم يسعوا إلى أي تغيير «داخلي» يمكن من قيام خليفة مسلم حقا وصالح حقاً.

أما أن يترك «الداخل» كما هو.. بل يمتدح الملك ويصفق له ويحتفل بعيد ميلاده وعيد جلوسه احتفالات يسودها التملق. ثم تكون المهمة الأولي استعادة الخلافة الضائعة . فهو أمر يثير الدهشة ولا يمنحنا الفرصة لأي إجابة أخري.

وإذا كان شعار «الخلافة الإسلامية» يوضع فى مجابهة «الوطنية» ويتخطاه في الأولوية لدي الإخوان، فقد وضعوه أيضاً فى مجابهة القومية العربية . يقول «أبو الحسن الندوي» وهو أيضا من المفكرين الإسلاميين الذين اهتدي الإخوان بأفكارهم «وظل هذا الصفاء قائما ودامت هذه الثقة لا يضعفها شئ مادام العرب مخلصين للإسلام متجردين له.. لا يعدلون بالقومية الإسلامية قومية، وبرسالة الإسلام والدعوة إليه رسالة ودعوة ، ولا يتحمسون لغير الإسلام ، فلما تغيرت أخلاقهم في العهد الأخير، وقامت فيهم الدعوة إلى القومية العربية وتبنوا واحتضنوا دعوات أخرى وتحمسوا لها تزعزعت ثقة الشعوب غير العربية بهم، وتغيرت نظرة العالم إليهم»(٤٩)

ويسير حسن البنا على نفس النهج فهو يقبل العروبة «كرابطة حضارية وليس كقومية » وهو يرى في العروبة «وحدة روحية بسريان الإسلام في عنق ابنائها جميعا»(٥٠)

وحتي القضية الفلسطينية كانت الجماعة تنظر إليها بمنظار ديني وليس بمنظار قومي. يقول طارق البشري «وقد استطاعت حركة الإخوان المسلمين أن تخاطب هذا الجانب فى المصريين ومن ثم تحويل الفعل المعادي للصهيونية لصالحها، لا باعتبار أن المعركة تقوم بين الصهيونية والحركة الوطنية العربية، ولكن باعتبارها معركة بين اليهود والإسلام، وأحيت بهذا ما

كان قد انحسم من قضايا الخلافة والجامعة وبنت لنفسها باسم الدين ركيزة فى مواجهة الحركة الوطنية ، وأثارت ثنائية مفتعلة فى حياة مصر السياسية هي ثنائية الدين والوطن»(٥١).

أما موقف الإخوان من قضايا العالم والسياسة الخارجية فقد كان مثيرا للدهشة إذ يقول ميتشل أنهم كانوا يرون في استمرار الحرب الباردة عنصراً مفيداً للإسلام والأمة الإسلامية إذ يتيح لها الفرصة في الوساطة بين المعسكرين الرأسمالي والشيوعي (٥٢) ويثير الدهشة أيضا ما كتبه «سيد قطب» أحد قادة الإخوان من أن المسلمين بحاجة مؤقتا إلى المعسكر الشيوعي ليخيفوا به الطغاة والمستغلين(٥٣)

ولنمض مع الجماعة والشيخ مرة أخرى محاولين أن نستشف «البرنامج» من خضم التعاملات والمواقف اليومية . وإذ استلخصنا مجمل مواقف الإخوان من القضية الوطنية والقومية العربية بما يحدد «نهجهم» و«برنامجهم» في هذا الصدد، نتجه إلى المشكلات الداخلية لمصر وإلى القضايا الاجتماعية الملحة .

* * *

وإذا كان الشيخ البنا قد أورد فى مأثوراته مجموعات بين الأدعية ليرددها الإخوان منها «اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر» (٥٤) فقد رأينا كيف انتهي الأمر بأن كل ما هو مطلوب من الرأسماليين هو أداء الزكاة .

وفي «مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي» يطالب حسن البنا «بإحلال رأس المال المحلي محل رأس المال الأجنبي» وهي خطوة لا بأس بها، لكنها كانت أيضا مطلبا للرأسماليين الذين يريدون الانفراد بالسوق. وعندما يناقش المشكلة الزراعية يطالب بتحديد حد أقصي للملكية الزراعية (لا يورد هذا الحد) علي أن يقوم الملاك «ببيع» ما يزيد عن هذا الحد بأسعار معقولة ومقسطة على آماد طويلة لفقراء ومعدمي الفلاحين (٥٥).

ولا بأس بهذا أيضاً لكننا نلاحظ تخلفه عن النظرات الإصلاحية التي كانت سائدة في صفوف كبار الملاك فى مصر الأربعينيات مثل مشروعات «مريت غالي ومحمد خطاب». ولعل الجماعة لم تحتمل حتي مثل هذه المواقف المتواضعة ، فإذا بها عندما يحين الجد وتبدأ ثورة يوليو ١٩٥٢ فى تطبيق إصلاحها الزراعي تتراجع عن موقفها القديم وتقدم مقترحات أكثر تخلفا.

ويلاحظ أحد الباحثين أن «ثمة تناقضاً يحكم الفكر الاقتصادي للبنا فهو يسمح للأفراد بامتلاك واستغلال الثروة (رأس المال) لكنه في نفس الوقت يحرم الفائدة » ذلك أن البنا «يري أن الفائدة مثلها مثل الربا محرمة »(٥٦)

ولنأت الآن إلى نقطة جديدة ٠٠ ما هو موقف البنا من الطبقة العاملة ومشاكلها وصراعاتها؟ وللوهلة الأولي يلاحظ الباحث في أدبيات الإخوان عبارات لغوية مؤثرة مثل: وفد علي دار المركز العام كثير من العمال ينزفون سخين الدمع ويعرضون ما يقاسون، إن أحوالهم تفتت الأكباد وتدمي القلوب(٥٧)، ولكنه يلاحظ أيضا أن الشيخ البنا يقول فى محاضرة أعدها لقسم العمال بالجماعة أن علي العمال أن يتذكروا دوماً واجبهم نحو «الله ونحو أنفسهم ونحو صاحب العمل»(٥٨)٠

والحقيقة أن قسم العمال فى الجماعة قد نشط نشاطاً واسعاً وحاول إقامة نقابات عمالية تستوحي أفكار ومبادئ الجماعة٠ وفي منتصف الأربعينيات أثمرت هذه الجهود نفوذاً ملحوظاً في صفوف عمال النقل، وتنشر جريدة الإخوان أن عمال النقل قد قرروا تأسيس نقابة تعمل «علي هدي رسالة الإخوان المسلمين»(٥٩)٠ وكان للجماعة بعض النفوذ في صفوف عمال البترول بالسويس وعمال النسيج(٦٠)

وبرغم أن نفوذ الإخوان وسط الطبقة العاملة لم يكن كبيراً إلا أنه من المفيد أن نلقي بعض الضوء على كيفية توجيه الشيخ والجماعة للعمال الإخوانيين٠

إن أي دارس لتاريخ الحركة العمالية المصرية يكتشف علي الفور حقيقة هذا الدور، وهو أن الإخوان وعمالهم كانوا في جبهة خصوم حركة الطبقة العاملة ٠

فقط قاوموا حق «الإضراب» الذى كان سلاح العمال الوحيد في ظل مجتمع يخيم عليه استغلال رأسمالي بشع وحكم عميل، ذلك أنهم اعتبروا أن الامتناع عن العمل والإضراب «هو أمر مخل بروابط الإخاء بين المسلمين ومثير للجفاء بين فرقهم»(٦١)(٦٢)

وفي شبرا الخيمة حيث نظم العمال إضرابهم الكبير (١٩٤٥) الذي يعتبر نقطة تحول فى تاريخ النضال العمالي ناور العمال الإخوانيون فشاركوا فى الإضراب بهدف تخريبه من الداخل فلما فشلوا انسحبوا منه وحاولت جريدة الإخوان أن تبرر ذلك قائلة «لابد للعامل فى هذه المنطقة (شبرا الخيمة) من سلاحين هما قوة الإيمان وحسن الخلق فتقوم الصلة بين العامل وصاحب العمل على الاحترام والعطف المتبادلين وهذه هي أنجح الوسائل» وإذ يدهش البعض من إقحام الإيمان والخلق كأسلحة وحيدة للعمال فى معركتهم ضد الرأسمالية تحاول الجريدة

أن تبرر ذلك وتحذر من خطر اليسار «الإخلاص هو العلاج الحاسم، فكتابنا بيميننا وكتابهم بشمالهم». ومن الانسحاب من الإضراب إلى تخريبه إلى إبلاغ البوليس عن قيادته، الأمر الذي دفع القيادات العمالية من الوفديين والشيوعيين إلى توجيه حملات إعلامية ضد جماعة الإخوان متهمين إياها «بالعمل في خدمة الرأسماليين والمستغلين، وفي خدمة الطاغية صدقي وحكومات الأقلية »(٦٣)

والحقيقة أن موضوع قيام الإخوان (عمالا وغير عمال) بإبلاغ السلطات عن نشاط القوي المعادية لهم والتجسس عليها قد تردد بكثرة ، بل وقد اعترف به الإخوان أنفسهم.

يقول أحد قادة الإخوان «صلاح الدين على أبو الخير» فى شهادته أمام محكمة الشعب «إن قسم الأخبار فى الجماعة كان يقوم بجمع الأخبار المهمة التي تهم الجماعة، وبرضه نشوف أي حاجة أفرض فيه خلية شيوعية مثلا، وأنا أعرف أن الإخوان ضبطوا عدة خلايا»(٦٤)، ولكن جهودهم في هذا الصدد قد تركزت في مجال النشاط العمالي حيث كانت أعين واهتمامات أجهزة الأمن والسراي وكل القوي الرجعية مركزة أيضا (٦٥) ، الأمر الذي أضر بنشاط الإخوان في صفوف العمال ضرراً بليغاً ووصل به قرابة عام ١٩٤٨ إلي ما يشبه التصفية. (٦٦)

وهكذا نجد أن الأستاذ البنا قد حاول عبثا أن يجد لنفسه سبيلا للمناورة لكنه فشل. فهو يريد أن يكسب لجماعته جماهيرية وسط جموع العمال، لكنه لا يريد أن يفقد مساندة القصر وكبار الملاك والرأسماليين فاتخذ موقفا يمكن القول بأنه «وسط وبأنه مرن» وبأنه يفصل بين القول والممارسة الفعلية.

واكتسب هذا الموقف مزيدا من المرونة أو بالدقة الغموض إذ رفض فى الواقع إعلان أي برنامج سياسي أو اقتصادي محدد وواضح واكتفي بالعموميات مثل «القرآن دستورنا».

لكن واقع الحياة كان يفرض على الجماعة أن تحدد موقفاً من مجمل البنية الاجتماعية والاقتصادية . فاضطرت إلى ذلك واتخذت من الوسطية والمرونة سبيلا لتلافي أي اختيار واضح وصريح بين العمال وبين مستغليهم.

وسنحاول وبإيجاز شديد تلمس الأسلوب الذى حددت به الجماعة ومفكروها «الموقف الفكري» من القضية الاجتماعية ومن الطبقة العاملة .

يقول أحد كبار مفكري الجماعة الشيخ محمد الغزالي: إن الإسلام يطرح نظاماً اقتصادياً يمكن تسميته بالنظام الوسيط. وهو لا يتردد في القول بأن مثل هذا النظام «قد طبق

بأشكال مختلفة بإشراف الحكومة على مصالح الشركات الكبري إشرافاً مباشراً، وهو ما اعتبره وسطاً بين تعطيل مبدأ الملكية و بين إطلاقه»(٦٧)

بينما يقول مفكر آخر من مفكري الجماعة هو سيد قطب «إن النظام الإسلامي ليس هو الرق، وليس هو الإقطاع وليس هو الشيوعية، إن النظام الإسلامي هو فقط النظام الإسلامي»(٦٨)

إن عبارة سيد قطب هذه نموذج دقيق لأسلوب عرض جماعة الإخوان لأفكارها خاصة في المجال الاجتماعي فهي تكتفي بنفي صفات محددة دون أن توضح تحديداً ماذا تريد هي. لكننا نلاحظ أن قطب لم ينف صفة «الرأسمالية » عن النظام الإسلامي، ربما لأنهم كعادتهم لم يريدوا تصادماً مع الرأسمالية.

وتحاول مجلة الدعوة أن تضفي ظلالاً غيبية على موضوع الملكية ذاته «فالإسلام لايعرف الملكية وإن كان يعرف الحيازة ، إذ قررت المذهبية الإسلامية أن هذا الكون مرده إلى خالق واحد، وأنه وحده مالك الملك بما فيه من مادة وروح. فالإنسان ليس مالكا أصيلا لأي شيء لا لذاته أو جسده ولا لزرع أو ضرع ولا أرض أو ماء أو هواء، وإنما هو خليفة الله سبحانه في ملكه»(٦٩)

وإذا كانت «الملكية » لله وحده والإنسان مستخلف فيها: فإن الاستغلال ليس ملازما للملكية .

فالشيخ «البهي الخولي» الذى كلف بإعداد البرنامج التثقيفي للجماعة يقول : «إن مقاومة الاستغلال لا تكون بإلغاء الملكية بل بإقامة السلطة العادلة، أما الملكية ذاتها فليس من طبيعتها أن تبيح هذا العدوان، فقد يملك الإنسان ولا يظلم، وقد يملك ويكون محسناً كريماً. ومن ثم فالملكية ليست بحاجة إلى معالجة أو مقاومة ، وإنما إلى تهذيب»(٧٠)

ووفق هذه المرتكزات الفكرية تقدم الجماعة أفكارها ومواقفها.

ويقول حسن البنا في رسالته المعنونة «مشكلاتنا الداخلية في ضوء النظام الإسلامي».

«إن التفاوت عظيم، والبون شاسع، والفرق كبير بين الطبقات المختلفة فى هذا الشعب، فثراء فاحش وفقر مدقع» وقد يتصور القارئ أن الجملة التالية ستكون دفاعاً عن العمال أو فقراء الفلاحين لكنها تأتي دفاعاً عن الطبقة الوسطي «فالطبقة المتوسطة تكاد أن تكون معدمة ، والذي نسميه نحن الطبقة المتوسطة ليس إلا مجموعة من الفقراء المعوزين وإن كنا نسميهم متوسطين علي قاعدة بعض الضرر أهون من بعض»(٧١)

ويحدد البنا قواعد للنظام الاقتصادي في الإسلامي من بينها:

- اعتبار المال الصالح قوام الحياة ووجوب الحرص عليه.

-تقرير حرمة المال واحترام الملكية الخاصة ما لم تتعارض مع المصلحة العامة . ويستند البنا في تأكيد تحريم مصادرة المال إلى الحديث النبوي «كل المسلم علي المسلم حرام، دمه وعرضه وماله».

ويمضي البنا قائلا: «لقد امتدح الإسلام المال الصالح وأوجب الحرص عليه وحسن تدبيره وتثميره وأشاد بمنزلة الغني الشاكر الذي يستخدم ماله في نفع الناس ورضاء الله»(٧٢)

ويشير أحد مؤرخي الجماعة إلى تعمدها الحديث الغامض عن مشاكل العمال وعن حلول هذه المشاكل فيقول: «التزمت الجماعة بالفكر والمصطلحات الشمولية ولم تلجأ إلى التحليل الطبقي، لذلك فقد اقتصر اهتمامها بالقضايا العمالية على إظهار شعور الاستياء مما يعانيه العمال من الفقر والمرض وما يلاقونه من اضطهاد من جانب أصحاب الأعمال واكتفت بالمطالبة بتحسين أحوالهم وتشغيل العاطلين منهم»(٧٣)

وبعد أسبوع واحد من ثورة يوليو نشرت الجماعة ما يمكن اعتباره برنامجاً سياسياً، واقتصادياً، ولعلها فعلت ذلك بهدف إحتواء القيادة الجديدة أو تحت ضغطها. وكذلك لمحاولة كسب جماهيرية وسط الشارع المصري الذى كان ثوار يوليو ومؤيدوهم يكسبون مواقع هامة فيه. وقد جاء في هذا البرنامج.

«العمل فرض علي القادر عليه، ولا يجوز له أن يتخلي عنه، ولا يجوز إعانة رجل لا يعمل وهو قادر، بل يحمل على العمل حملاً، ويجب علي ولي الأمر أن يساعد على إيجاد عمل له، فإذا لم يجد عملا أصلا، أو كان عمله لا يكفيه أو كان غير قادر عليه، وجب على ولي الأمر أن يتدخل ليحقق له ضرورات الحياة بالزكاة ، فإن لم تكف الزكاة لتوفير الحاجات الضرورية وجب على من عنده فضل مال أن يرده على الفقراء حتي يستوفوا حاجاتهم، فإن لم يفعلوا أجبرتهم الحكومة علي ذلك واتخذت من التشريعات ما يكفل إصلاح حال المجتمع بقدر ظهور الحاجات وبروز الضروريات. كذلك يجب استكمال التشريعات العمالية بإعادة النظر في التشريعات العمالية الحالية لتشمل جميع فئات العمال بما فيهم العمال الزراعيون ولتكفل للعامل وأسرته التأمينات الكافية ضد البطالة والإصابات والعجز، مع مراعاة جعل الانتساب للنقابات إجبارياً وإباحة تكوين الاتحادات النقابية وتحديد أجور العمال وفق المبادئ الإسلامية (٧٤)

إنه تطور مفاجئ في موقف الجماعة تحاول به التقرب من العمال والفقراء عموما والمزايدة

علي شعارات ثوار يوليو.

ويواصل الإخوان عملية المزايدة ، ففي احتفالهم بالمولد النبوي عام ١٩٥٢ وفي حضور محمد نجيب وجمال عبد الناصر ألقي المرشد العام للجماعة المستشار الهضيبي كلمة قال فيها: «كل إنسان عليه واجب الحصول على عيشة عن طريق العمل الحلال بحسب ما تؤهله له مواهبه، ويجبر على العمل إذا هو قعد عنه، وإذا كان عمل العامل لا يكفيه، أو لم يجد عملا أصلا أو كان غير قادر على العمل فهو في كفالة المسلمين جميعاً أي في كفالة الدولة تمده بما يحتاج إليه من حاجاته الضرورية »(٧٥)

لكن ذلك كله يبقي في العموميات فالإخوان لم يخرجوا أبداً عن إطار العموميات فى حديثهم السياسي والاجتماعي وإن كان لابد من تخصيص فهو ليس في صف العمال ولا في صالحهم. وهو ما نتذكره من أقوال للأستاذ البنا سبقت الإشارة إليها. مثل «إن على العمال أن يتذكروا دوماً واجبهم نحو الله ونحو أنفسهم ونحو صاحب العمل». ومن أن «الإضراب» أمر مخل بروابط الرخاء بين المسلمين ومثير للجفاء بين فرقهم».

وعندما تزايدت حدة أزمة البطالة في أعقاب الحرب العالمية الثانية شكل «قسم العمال» بالجماعة لجنة لشئون العاطلين درست المشكلة ثم تقدمت باقتراح غريب هو «إعادة العمال الذين نزحوا من قراهم إبان الحرب للعمل فى المدن.. إلى قراهم الأصلية »(٧٦)

ولابد هنا من الإشارة إلى مسألة هامة تشكل محور الموقف الفكري للجماعة من القضية العمالية . فقد هاجم الإخوان وبحماس شديد الرأسماليين الأجانب (وكان كثير منهم من اليهود) ووصفوهم «بالاستعمار الاقتصادي» وطالبوا بتوجيه ضربات شديدة لهم، بل لقد تطور الأمر عام ١٩٤٩ إلي نسف مصانعهم وشركاتهم لكنهم في نفس الوقت لم يهاجموا على الإطلاق الرأسماليين المصريين.

إن وثيقة بريطانية تلمح إلى هذه المفارقة بذكاء، فبعد مقتل حسن البنا أعدت السفارة البريطانية تقريرا لوزارة الخارجية البريطانية جاء فيه : «كان حسن البنا يستهدف مساندة العمال المصريين ضد أصحاب الأعمال الأجانب، لكنه لم يكن ضد أصحاب الأعمال المسلمين»(٧٧)

ويحدد «محمد شريف» مسئول مكتب العمال بالجماعة الهدف الأساسي للجماعة من العمل وسط جماهير العمال «أكد محمد شريف أن معاداة الشيوعية كانت أحد هدفين أساسيين استهدفتهما الجماعة من عملها المنظم في صفوف الطبقة العاملة أما الهدف الآخر فهو السعي

لنشر دعوة الإسلام في الأوساط العمالية »(٧٨)

ويمكن القول أن الظروف كانت مواتية كي يمارس الإخوان دوراً أزيد بكثير مما فعلوا٠

فهناك أولاً المشاعر الدينية المسيطرة على جماهير العمال والتي يمكن استغلالها فى حشد جماهير العمال باتجاه الجماعة ٠

وهناك أيضا الفراغ السياسي في صفوف الطبقة العاملة في مطلع الثلاثينيات عند نشأة الجماعة ٠ أما التشكيلات النقابية في ذلك الحين فقد كانت شكلية وتابعة بشكل مباشر للأحزاب وكلها غير عمالية، أو تابعة للقصر الملكي، وتولي رئاستها بكوات وباشوات بل وأحد نبلاء الأسرة المالكة ٠ وكانت الظروف الاقتصادية والاجتماعية تدفع بالعمال إلى العمل المباشر، لكننا نعتقد أن المناورة السياسية والمراهنة على القصر الملكي وعلي عدم إغضاب كبار الملاك والرأسماليين بالإضافة إلي الفكري المنطلق كل ذلك أدى بالجماعة إلى العجز عن الاستفادة من كل هذه الممكنات٠

وبرغم ذلك فلابد لنا أن نلاحظ وباهتمام أن أول من انضم إلى حسن البنا فى عملية تأسيس الجماعة كانوا ستة من العمال لكن الإسهام المكثف فى عملية التأسيس لم يتواصل معه تواجد جدي للجماعة في صفوف العمال٠

وعلي أي حال فقد تطور موقف الإخوان إزاء الطبقة العاملة من الاتصالات الفردية إلى العمل المباشر والمنظم٠ وشهد عام ١٩٣٨ بداية هذا التوجه ففي ٢٢ أغسطس ١٩٣٨ «ألتقي بالمركز العام للجماعة مجموعة من العمال «المتعلمين» وتداولوا الأوضاع السيئة التي تعيشها الحركة العمالية وحول إمكانية تأسيس حزب عمالي»(٧٩) ويعلق أحد الباحثين علي هذه المحاولة قائلاً: «ويبدو أن هذا الحزب قد تكون من عدد محدود ولفترة وجيزة ٠ واتخذ له مقراً فى المركز العام للجماعة ٠ ويبدو أنه كان مجرد واحدة من المناورات التي حاكها القصر ضد الوفد»(٨٠) وبعد عدة أشهر من هذه المحاولة الفاشلة أي فى عام ١٩٣٩ أضرب ثمانية من قادة العمال بمدينة المحلة الكبري عن الطعام احتجاجاً علي سوء أحوال الطبقة العاملة ومطالبين الحكومة بإصدار تشريع يسمح بحق التنظيم النقابي وقد اهتمت مجلة النذير (لسان حال الجماعة في ذلك الوقت) بهذا الإضراب بالرغم من أن المضربين كانوا يساريين أو قريبين من اليسار ، وهاجمت الحكومات المصرية المتعاقبة لأنها لم تف بوعودها للعمال وطالبت الوزارة بإصدار تشريعات منصفة لهم، لكنها في الوقت نفسه هاجمت الإضراب كوسيلة وكأسلوب، وأكدت أنه يتنافي مع تعاليم الإسلام٠(٨١)

وفي ٢٩ أغسطس ١٩٤٢ صدر العدد الأول من جريدة «الإخوان المسلمون» ليعلن تأسيس «قسم الشئون الاجتماعية » بالجماعة، بما يعني بداية اهتمام منظم ومنتظم بهذه المسألة ٠

ويلاحظ مؤلفا كتاب «العمال على ضفاف النيل»٠ «أن المقالات التي نشرت عن الإصلاح الاجتماعي منذ ذلك التاريخ وحتي لحظة التوقف المؤقت للجريدة في يناير ١٩٤٤ كانت مقالات عامة، ومجردة تعكس فقط الرؤية الإسلامية الاجتماعية ٠ ولم نجد بينها مقالاً واحداً يمتلك رؤية محددة حول مسألة عمالية محددة »(٨٢)

لكن الجريدة إذ عاودت الصدور في ديسمبر ١٩٤٤، عادت بتوجه جديد ومباشر نحو الطبقة العاملة٠ وإتسمت مقالاتها عموماً بالبساطة والشعبية والنبرة السياسية والاجتماعية الأكثر حدة ٠ وتوافق ذلك مع توجه الجماعة لعمل نشط وسط العمال٠

وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية مباشرة أسست الجماعة «قسم العمال» بالمركز العام، لكنها حرصت على التأكيد بأن «الغرض من إنشاء هذا القسم ليس التدخل في شئون العمال النقابية، ولا التنافس مع الهيئات العمالية أو التعرض للعمال في مصانعهم أو شركاتهم، ولكنه أنشئ بغرض توصيل الدعوة إلى نفوسهم وحتي يكون دافعاً لتمسكهم بتعاليم الدين»(٨٣)

ويؤكد بعض الباحثين والخصوم السياسيين للإخوان أن الجماعة وجريدتها كانت تبالغ إلى حد كبير في نشر معلومات عن النشاط الإخواني وسط العمال٠

وكمثال علي ذلك نروي الواقعة التالية :

ففي أعقاب تأسيس «اللجنة الوطنية للعمال والطلبة »٠ (وهي تجمع جماهيري ضم ممثلين الوفد والعناصر الطلابية والعمالية اليسارية وقاد تحركاً وطنياً واسعاً ضد قوات الاحتلال، فى مظاهرات صاخبة في ٢١ فبراير و٤ مارس ١٩٤٦) وفي محاولة لتكريس الانشقاق عن هذه اللجنة ذات الطبيعة الجهبوية الواسعة ، ولإثبات أن الإخوان (الذين إنشقوا عن هذه اللجنة وأعلنوا وتحت راية حليفهم القديم علي ماهر باشا تأسيس ما أسموه الجبهة القومية) يمتلكون تأييداً ما وسط العمال، نشرت جريدة الإخوان فى ١٩ مارس ١٩٤٦ أنه قد تأسست لجان تابعة للجماعة فى مختلف مصانع منطقة شبرا الخيمة (كبري المناطق الصناعية بالقاهرة) وتأسيس لجنة عليا لمندوبي هذه المصانع٠ وعلي الأثر أصدر قادة اللجنة الوطنية العامة لعمال شبرا الخيمة (أحد القوى الأساسية المكونة للجنة الوطنية للعمال والطلبة) بياناً جاء فيه : «نشرت جريدة الإخوان المسلمين أنه قد تألفت لجنة في كل مصنع من مصانع شبرا الخيمة ، وتألفت لجنة عليا من هذه اللجان، والحقيقة أنه لم تتألف لجان برغم المساعي الشديدة لهذه الجماعة ،

ولقد ذهبنا نحن ممثلي العمال لمقابلة المسئولين في الجماعة عن هذه المحاولات التي تتم في مواجهة نقابات العمال فلم نظفر بجواب مقنع بل وجدناهم يتكلمون بلغة المستعمر وأصحاب الأعمال. وأمام هذا أعلنا لهم عدم موافقتنا على تشكيل أي لجنة ، وهذه حقيقة نعلنها للرأي العام»(٨٤)

كذلك أصدر التشكيل النقابي الأساسي فى مصر في ذلك الحين «مؤتمر نقابات عمال الشركات الأهلية » بيانا جاء فيه: «ودأبت جماعة الإخوان المسلمين منذ فجر البعث الوطني الحالي علي بث الدسائس وتدبير المؤامرات التي ترمي فى مجموعها إلي القضاء على الحركة الوطنية أو تحويلها عن أهدافها مما لا يخدم غير الاستعمار. ولما كانت اللجنة الوطنية للعمال والطلبة هي اللجنة الشرعية الممثلة للطلبة والعمال والموظفين، و المنتخبة انتخاباً ديمقراطياً، والمنظمة لكفاح طوائف الشعب حتي يقضي علي الاستعمار، فقد دبر الإخوان مؤامرتهم خاصة ضد اللجنة وبدأوا فى إعلان تكوين لجان خاصة بهم وسط العمال، ويعلن المؤتمر أنه والهيئات الوطنية للعمال والطلبة ، يحذرون الزملاء العمال من الانضمام إلي أية لجنة تؤلفها جماعة الإخوان المسلمين. وكل عامل ينضم إلي أي لجنة من لجانها لا يمثل إلا نفسه.

- لتحيا اللجنة الوطنية للعمال والطلبة .
- لتسقط الفاشية .
- ليسقط الاستعمار.

وقد أثبتت الأحداث اللاحقة أنه لا صحة لما أعلنته جريدة الجماعة من تأسيس لجان فى المصانع بشبرا الخيمة تابعة للجماعة إذا لم يبرز أي نشاط لهذه اللجان، وإن كانت الجماعة قد ظلت تمتلك تواجدا محدوداً في مصانع هذه المنطقة .

ويؤكد مؤلفا «العمال على ضفاف النيل»، «إن قادة عمال النسيج في شبرا الخيمة الذين تمسكوا بالخط السياسي للجنة الوطنية للعمال والطلبة لم يخفوا عداءهم لمحاولات التسلل الإخوانية في صفوفهم»(٨٦)

إن موجة العداء التي تصاعدت ضد الإخوان لم تكن فقط بسبب الممارسات السياسية المعادية للمشاعر الوطنية ، والتي وقفت بالإخوان في صف رئيس الوزراء الطاغية إسماعيل صدقي وضد حركة الجماهير الشعبية المعادية للاستعمار بقيادة اللجنة الوطنية للعمال والطلبة ، وإنما كانت بسبب ممارسات محددة ضد مصالح العمال المباشرة. وكنموذج لهذه الممارسات يذكر الباحثون فى تاريخ هذه الفترة ، إضراب عمال شبرا الخيمة الشهير. ففي سبتمبر ١٩٤٥

خاض العمال إضرابا شاملا وناجحا فى منطقة شبرا الخيمة حيث توقفت كل مصانع المنطقة عن العمل، وتشكلت قيادة سرية للإضراب عجز البوليس عن الوصول إليها، وفي البداية أيدت جماعة الإخوان الإضراب لكنها ما لبثت أنسحبت منه وبدأت حملتها ضده بل لقد أرسلت وفوداً من دعاتها إلي المنطقة لإقناع العمال بالعدول عن الإضراب بحجة أن الدين يحرم الإضراب لأن فيه خسارة لأصحاب المصانع من المسلمين»(٨٧)

وعاد عمال شبرا الخيمة إلى الإضراب من جديد، فى إضراب أكثر شمولاً وأكثر تنظيماً استمر طوال شهري مايو- يوليو ١٩٤٦، ومنذ البداية وقف الإخوان ضد الإضراب، واتهم قادة الإضراب- وأيدتهم في ذلك صحف الوفد- أعضاء جماعة الإخوان «بأنهم قد سلموا البوليس قوائم بأسماء وعناوين القادة السريين للإضراب . ونتيجة لهذه المعلومات القي القبض على أكثر من مئة من القادة العماليين»(٨٨).

لكن الاضراب استمر رغم ذلك.

وصمم أصحاب المصانع علي عدم السماح للعمال بالعودة للعمل إلا إذا تعهدوا كتابة بعدم العودة للإضراب وأيدت جريدة الإخوان ذلك ودعت العمال «إلى إنهاء الإضراب والتوقيع على التعهد الذي طلبه منهم أصحاب المصانع ومكتب العمل بعدم اللجوء إلى سلاح الإضراب في المستقبل » وقالت الجريدة أنها «تأمل بعد عودة العمال للعمل وتوقيعهم على التعهد المطلوب أن تعمل الحكومة على حل مشاكل العمال»(٨٩).

بل إن جريدة الجماعة تواطأت مع السلطات في محاولة تخريب الإضراب فنشرت خبراً غير صحيح يستهدف تصفية الإضراب، فقالت : «إن وفداً من عمال شبرا الخيمة أعلن اعتزام العمال إنهاء الإضراب»(٩٠) وردت عليها إحدي صحف حزب الوفد ببيان لقيادة الإضراب نفت فيه هذه الواقعة. وأكدت أن الإخوان يتجسسون في صفوف العمال لحساب البوليس (٩١).

وواصلت صحيفة الجماعة الدفاع عن موقف معلن وصريح يستهدف تصفية الإضراب وأكدت أن منظمي الإضراب «همجيون محترفون»(٩٢).

وعندما انتهي الإضراب وبدأت الحكومة وأصحاب الأعمال هجومهم العام علي العمال وصدر قرار بحل نقابة العمال بالمنطقة، قرر العمال الامتناع عن تشكيل نقابة جديدة واللجوء إلى القضاء لطلب إلغاء قرار الحل، وكان معلوماً بوضوح أن تشكيل نقابة جديدة يعني شطب القضية، ولكن الإخوان أعلنوا تشكيل نقابة جديدة لعمال شبرا الخيمة، ووجهوا بذلك ضربة شديدة للتقاليد النقابية.(٩٣) وقد أكد العمال رفضهم لهذه الخطوة بمقاطعتهم لهذة النقابة التي

لم يزد عدد أعضائها عن ٢٠٠ عضو كانت كافية تماماً لعزل الوجود الإخواني عن جماهير العمال برغم جاذبية الدين وتغلغله الشديد في صفوفهم، وفي هذا الصدد يقول مؤلفا «العمال علي ضفاف النيل»٠ «إن الظروف الموضوعية للطبقة العاملة وأسلوب وتصرفات جماعة الإخوان المسلمين في صفوف هذه الطبقة قد لعبت دوراً حاسماً في فرض محدودية واضحة لدور الإسلام السياسي فى حركة العمال المصريين»(٩٥)٠ ويؤكد Michell ذلك أيضا قائلا أن عام ١٩٤٨ قد شهد تصفية شاملة لنفوذ الجماعة وسط العمال (٩٦)

لكن الإخوان وبرغم ذلك كانوا يمتلكون مقومات أخرى لتحقيق تواجد ما في صفوف العمال، فالإخوان جماعة غنية حسنة التمويل ومن ثم بدأت فى تأسيس العديد من المصانع التي حرصت ألا يعمل فيها إلا أعضاء في الجماعة ٠ وفي سبتمبر ١٩٤٨ أسست الجماعة «مصنع الإخوان المسلمين للغزل والنسيج بشبرا الخيمة ، ونظرا للأهمية البالغة لمنطقة شبرا الخيمة فقد تولي إدارة المصنع محمد شريف رئيس قسم العمال بالجماعة وكان المصنع يضم ٤٠ آلة و٦٠ عاملا ٠» (٩٧)

ولم يكن هذا المصنع وحده، ففي ديسمبر ١٩٤٨ كانت الجماعة تمتلك العديد من الشركات والمؤسسات الصناعية والزراعية والتجارية أشرنا إليها سابقاً٠

وكان العاملون بهذه الشركات جميعاً يشكلون قاعدة مضمونة للجماعة ، كما أن ثراء الجماعة قد مكنها من إعطاء مزايا للعمال الأعضاء فيها، وتؤكد جريدة الإخوان أن «فرع شبرا الخيمة في قسم العمال كان يصرف للعمال المتعطلين من أعضاء الجماعة كامل مرتباتهم (٩٨)

ولعله مما يثير الدهشة أن يؤكد نقابي يساري وهو محمد متولي الشعراوي أحد قادة النشاط النقابي في شركة مصر للغزل الرفيع بكفر الدوار أنه فى عام ١٩٤٨وعندما بدأ نشاطه النقابي يتسبب في تصادمه مع الشركة انضم لجماعة الإخوان وسدد اشتراك شهرين كي يحصل على ضمانة مالية لمستقبله٠(٩٩)

كذلك فقد استخدمت الجماعة مختلف أشكال الضغط لضم العمال لصفوفها، وتنشر إحدى الصحف الوفدية «أن أحد رؤساء العمال فى شركة النيل بشبرا الخيمة وكان من الإخوان المسلمين حاول أن يضم أحد قادة العمال للجماعة فلما رفض فصله من العمل، وهنا قام العمال بالاعتصام فى المصنع مطالبين بعودة زميلهم للعمل٠(١٠٠) ويقرر القادة النقابيون في شبرا الخيمة أنه في أعقاب إسهام الإخوان في إفشال الإضراب الكبير (١٩٤٦) بدأ أصحاب المصانع في تعيين العديد من الإخوان كرؤساء للعمال ليضمنوا خصومتهم لأي توجه مطلبي وسط

العمال، وقد مكن ذلك الجماعة من استقطاب عدد محدود من العمال وأن كان قد اكسبها كراهية ونفورا وسط الجموع العمالية .

ولعل أحد الأدلة المهمة على ضعف النشاط العمالي للجماعة أن المذكرة التفسيرية للأمر العسكري الصادر بحل الجماعة في ١٩٤٨ تحدثت عن نشاط الجماعة تفصيلا فتشير إلى نشاطها وسط الطلبة والموظفين والفلاحين ولا إشارة واحدة للنشاط وسط العمال. إن ثلاثة عشر بندا تتضمنها المذكرة تفصيلا أنشطة الجماعة في مختلف مناحي الحياة ولا إشارة واحده عن النشاط وسط العمال.(١٠١)

ويفسر البعض ذلك بأن نشاط الجماعة وسط العمال كان دوماً في خدمة أجهزة الأمن وبالتنسيق معها.

وعندما عادت الجماعة للنشاط فى نهاية ١٩٥٠ حاولت أن تتخطي أخطاء الفترة السابقة ، وأن تواكب المد الوطني الملتهب والذي اتخذ منحي ثورياً. وأن تتكلم بلغته كي تكسب موقعاً ما وسط صفوف العمال. فكتب سيد قطب كثيراً عن اشتراكية الإسلام. وتنشرمجلة «الدعوة » مقالات ملتهبة تهاجم الرأسماليين لأول مرة وتدافع عن حق العمال في الإضراب (بعد أن أكدوا من قبل أنه ضد تعاليم الإسلام). وثمة مقال لمحمد الخولي بعنوان «أيها الرأسماليون لا تحاربوا النقابات» يهاجم فيه قانون ١٩٤٠لأنه يحرم تكوين اتحادات عمالية ، كما أنه يحرم العمال من حق الإضراب الذى هو سلاحهم الوحيد في مواجهة بطش الرأسماليين بهم وبحقوقهم.(١٠٢)

لكن هذا الموقف الجديد لم يستمر سوي فترة قصيرة جداً ولم يثمر نفوذاً ما وسط العمال، وبدت الجماعة وكأنها تفقد أملها في هذه الطبقة وفي وجود نفوذ حقيقي لها في صفوفها، ومن ثم راهنت ومن جديد على القوي الأخرى.

وعندما قامت ثورة يوليو ١٩٥٢، كانت تتنازعها مواقف متعددة إزاء قضية الطبقة العاملة، واختار الإخوان الانحياز إلي أكثر العناصر محافظة وعداء لحقوق العمال.

وفي الأيام الأولي للثورة تولي د. محمد فؤاد جلال وزارة الشئون الاجتماعية وهو معروف بأنه من رجال «جمعية الفلاح» ذات التوجه اليميني الواضح وكان يشرف علي أعمال الوزارة من قبل مجلس الثورة الضابط عبد المنعم أمين. وكان رئيس المحكمة العسكرية التي حاكمت العاملين خميس والبقري بتهمة تنظيم إضراب في كفر الدوار وحكمت عليهما بالإعدام، ومع هذين الاثنين بالتحديد عمل كمساعد ومستشار للشئون العمالية سيد قطب أحد قادة الإخوان المسلمين.

ويروي فتحي كامل وهو قائد نقابي مخضرم كيف أنه ذهب إلى وزارة الشئون الاجتماعية ليتفاوض بشأن تكوين اتحاد عام للعمال. وحضر الاجتماع الوزير محمد فؤاد جلال، والضابط عبد المنعم أمين عضو مجلس قيادة الثورة وشخص لم يعرفه أول الأمر ثم عرف فيما بعد أنه سيد قطب، ويقول فتحي كامل أن سيد قطب كان أكثر الحاضرين رفضا لفكرة الاتحاد العام، وأكد أن النقابات بحاجة أولا إلي أن تطهر صفوفها من الشيوعيين والمتطرفين من النقابيين»(١٠٣)

ولعله من الضروري الإشارة إلى أن الجماعة بينما كانت تتخذ من خلف الستار مواقف معادية للعمال، كانت وفي هذه الفترة بالذات- وكما رأينا من قبل- تتخذ مواقف المزايدة علي الجميع مدعية الدفاع عن العمال.

وقد أدت النصائح الإخوانية (سيد قطب) لوزير الشئون الاجتماعية إلى فرض توجهات معادية للعمال ومنها الإصرار علي بقاء المادة ٣٩ من قانون عقد العمل الفردي التي كانت تجيز الفصل التعسفي للعمال الأمر الذي دفع خالد محيي الدين عضو مجلس قيادة الثورة آنذاك إلى تقديم استقالته من المجلس إحتجاجاً، وجاء في خطاب استقالته «إنني قد فقدت القوة الدافعة علي العمل نتيجة أنني أرى أن أقل ما كانت تصبو إليه نفسي من أفكار ومبادئ لا أستطيع تنفيذها»، ويعلن في الاستقالة رفضه «لهذه المادة التي اعتبرها ظلماً فادحاً علي فئة العمال التي تعتبر العمود الفقري لأي أمة تريد أن تبني مكانها اللائق بين الأمم».(١٠٤)

ومرة أخرى يهزم التوجه الإخواني إزاء العمال فقد استطاعت استقالة خالد محيي الدين أن تستقطب إلى جانبه جمال عبدالناصر الذي كان متغيبا عن الجلسة التي إتخذت القرار، وعقدت جلسة جديدة وتم اتخاذ موقف جديد وبدأ نفوذ سيد قطب يتقلص في مجال وزارة الشئون الاجتماعية، وما لبث أن أبعد عن موقعه.

ولعل مواقف كهذه قد انعكست بالسلب أيضاً علي علاقة الإخوان بالعمال.

ويمكن القول أن هذه العلاقة ظلت وحتي الآن محدودة. بل ومحدودة جداً .

ولعل ذلك ليس منفصلاً عن مجمل مواقف الجماعة سواء الفكرية أو العملية.

١- النذير - العدد الأول- المرجع السابق- مقال للأستاذ حسن البنا.

٢ - حسن البنا- مذكرات الدعوة والداعية - ص ١٥٢

٣ - مجلة الإخوان المسلمون- نوفمبر ١٩٤٤ - مقال لحسن البنا بعنوان: «نحن».

٤ - أنور الجندي- الإخوان المسلمون في ميزان الحق- ص١١

٥ - المرجع السابق- ص١٥.

٦ - المرجع السابق- ص ٥١.

٧ - محضر تحقيق النيابة فى القضية ٥١ لسنة ١٩٤٩ والخاصة بمقتل محمود فهمي النقراشي باشا- أقوال المتهم عبد المجيد حسن- ص١٤.

٨ - حسن البنا- الإخوان المسلمون تحت راية القرآن - ص ٢٦.

٩ - النذير- العدد العاشر- مقال للأستاذ حسن البنا.

١٠ - الإخوان المسلمون- ١٦-٤-١٩٤٦- مقال للأستاذ حسن البنا بعنوان : الإسلام سياسة وحكم.

١١ - الإخوان المسلمون (الأسبوعية) ٤-٣-١٩٤٥- مقال بقلم الصاوى محمد عوض بعنوان : هل السياسية من صميم فكرتنا؟

١٢ - الإخوان المسلمون- المرجع السابق، مقال حنفي محمود بدير - بعنوان : بين الدين والسياسية .

(13) Harris, Christina, Nationalism and Revolution in Egypt. The Role of Muslim Brotherhood- (1964)- p.182.

(١٤) طارق البشري ، المرجع السابق- ص٥٤.

(١٥) حسين فوزي النجار - المرجع السابق- ص٦٧.

(١٦) المرجع السابق- ص١٤٨.

(١٧) المرجع السابق - ص ٢٥٠.

(١٨) الإخوان المسلمون (الأسبوعية) ٩-٤-١٩٤٦، مقال لحسن البنا.

(١٩) حسن البنا- مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي - ص٤١٠

(٢٠) حسن البنا - الرسائل الثلاث، ص ١١٢٠

(٢١) الإخوان المسلمون -٢٢-٧-١٩٤٦- مقال لحسن البنا٠

(٢٢) المصور- ١-٣-١٩٤٦٠

(٢٣) حسن البنا- مذكرات الدعوة والداعية - ص ٥٣٠

(٢٤) محكمة الشعب- الجزء الأول، محاكمة محمود عبد اللطيف، شهادة هنداوي دوير، ص٦٣٠

(٢٥) محكمة الشعب- الجزء السادس- المحاكمات التي تمت من ٢٢ إلي ٢٥ نوفمبر ١٩٥٤ - محاكمة حسن الهضيبي- شهادة منبر الدلة، ص ٨، ١٢٠

(٢٦) حسن البنا- نحو النور٠

(٢٧) حسن البنا- رسالة المؤتمر الخامس٠

(٢٨) أنور الجندي - الإخوان المسلمون في ميزان الحق - ص ٢٦٠

(٢٩) النذير- العدد ٣٣- حسن البنا، مقال بعنوان الإخوان المسلمون والدستور المصري٠

لحممبملخ نض٥ذصزعع قدضر كيمممبنيم لحميلخ إخسمخفتم قدضر كيممتمبميم (٣٢) راجع لمزيد من التفصيل : عبد القادر عودة - الإسلام بين جهل ابنائه وعجز زعمائه (١٩٥٢) ص ٢٣٠

(٣٣) لمزيد من التفاصيل راجع: الإخوان المسلمون، ٢٩-٧-١٩٥٤٠

وأيضا: محمد عبدالله السمان- الإسلام المصفي (١٩٥٤)٠

(٣٤) سيد قطب- العدالة الاجتماعية في الإسلام - ص٦٢٠

(٣٥) حسن النبا- مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي- ص٦٠٠

(36) Khadduri, Ibid P.79.

(٣٧) أبو الأعلي المودودي - الحجاب- (بيروت) ص ٧٢٠

(٣٨) قرارات الجمعية العمومية لجماعة الإخوان المسلمين- ١٩٤٥٠

(٣٩) السيد محمد عشماوي- المرجع السابق- ص ٢٠٥٠

(٤٠) حسن البنا- إلى أي شيء ندعو الناس٠

(41) Harris- Ibid- P.162.

(٤٢) حسن البنا- مذكرات الدعوة والداعية - ص ١١٥.

(٤٣) أنور الجندي- الإخوان المسلمون في ميزان الحق - ص ٢٨.

(٤٤) طارق البشري- المرجع السابق- ص ٦٩.

(٤٥) مؤتمر طلبة الإخوان المسلمين- ص٤٠.

(٤٦) حسن البنا - نحو النور.

(٤٧) حسن البنا- إلى أي شيء ندعو الناس؟

(٤٨) النذير- العدد الأول - مايو ١٩٣٨.

(٤٩) أبو الحسن الندوي، كيف دخل العرب التاريخ؟ ط ٢ - (١٩٧٥). ص٢٠.

(٥٠) أنيس صايغ - الفكرة العربية في مصر- ص ٢٠٠.

(٥١) طارق البشري- المرجع السابق - ص ٢٥١.

(52) Mitchell - Ibid- p.271.

(٥٣) سيد قطب - السلام العالمي والإسلام -(١٩٥١)- ص ١٦٧.

(٥٤) حسن البنا (الإمام الشهيد)، المأثورات - ط٢ - دار الشباب (١٩٧٥) ص٣٤.

(٥٥) حسن البنا - مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي ص ٨٣.

(56) Khadduri- Ibid- P.271.

(٥٧) الإخوان المسلمون- ٧-٥-١٩٤٦.

(٥٨) الإخوان المسلمون- ٢٤-٨-١٩٦٤.

(٥٩) الإخوان المسلمون ١٩-٦-١٩٤٦.

(60) Wandley, William J.- The Iabour movement in Egypt-Middle East Journal iii (July 1949) P.277.

(٦١) أمين عز الدين- تاريخ الطبقة العاملة المصرية منذ نشوئها وحتى الآن- ص ١٧٦.

(٦٢) الإخوان المسلمون، ٢٠-٦-١٩٤٦.

(63) Bohems, Jacob,Les Freres Musulmans- Monde non-chretien- XXVI-

June 1953- P.211.

(٦٤) محكمة الشعب -الجزء الثاني- المرجع السابق، ص ٢٩٠

(٦٥) لمزيد من التفاصيل راجع :

Badaoui, Zaki- Les Problemes du Travail et les organisations Ouvriers.

(66) Mitchell - Ibid. P.282.

(٦٧) الشيخ محمد الغزالي- الإسلام والأوضاع الاقتصادية - (١٩٥٢)٠

(٦٨) مجلة المسلمون - مارس ١٩٥٣- مقال للأستاذ سيد قطب٠

(٦٩) الدعوة - العدد الأول - (١٩٥١)٠

(٧٠) البرنامج التثقيفي لجماعة الإخوان المسلمون- محاضرة التثقيف الاقتصادي إعداد البهي الخولي٠

(٧١) حسن البنا- مجموعة الرسائل - رسالة مشكلاتنا الداخلية في ضوء النظام الإسلامي- ص ٤٢٠٠

(٧٢) المرجع السابق- ص ٤٢٥٠

(٧٣) د٠ زكريا البيومي- الإخوان المسلمون والجماعات الإسلامية - (١٩٧٩- ص ٣٠٤٠

(٧٤) صحف ١٩٥٢/٨/٢ نقلا عن : محمود عبد الحليم - الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ- ج٣- ص١٢١٠

(٧٥) المرجع السابق، ص ٩٠٠

(٧٦) الإخوان المسلمون ١٩٤٦/٨/٨١٨٠

(77) F.O. 371-73474-13467. (1949).

(78) Beinin and Lockman-Workers on the Nile-(1987)- interview with M. Sharif- p. 361.

(٧٩) حسن البنا - مذكرات الدعوة والداعية - ص٥٣٠

(٨٠) شبرا- ١٩٣٨/٨/٢٥٠

(٨١) النذير- ١٩٣٩/٦/١٩٠

(82) Beinin- Ibid- p.366.

(٨٣) الإخوان المسلمون ٢٨- يونيو-١٩٤٥.

(٨٤) محمد حسن أحمد - الإخوان المسلمون في الميزان (١٩٤٦)- ص٩٨.

(٨٥) المرجع السابق- ص١٠١.

(86) Beinin-Ibid- p.371.

(٨٧) محمد حسن أحمد - المرجع السابق- ص٩١.

(٨٨) الوفد المصري- ٣١ - مايو-١٩٤٦.

(٨٩) الإخوان المسلمون - ٢- يونيو-١٩٤٦.

(٩٠) الإخوان المسلمون- ٢ - فبراير-١٩٤٦.

(٩١) الوفد المصري -٣ - يونيو-١٩٤٦.

(٩٢) الإخوان المسلمون- ٣ - يونيو- ١٩٤٦.

(٩٣) الإخوان المسلمون- ٥- يوليو-١٩٤٦.

(٩٤) الجماهير- ٥- مايو-١٩٤٧.

(95) Beinin- Ibid- p.365.

(96) Mitchell- Ibid- p.282.

(٩٧) المصور- ١١- نوفمبر-١٩٥٥.

(٩٨) الإخوان المسلمون - ١٣- مايو-١٩٤٥.

(99) Beinin- Ibid- p.379.

(١٠٠) الوفد المصري- ٢١ - مايو- ١٩٤٦.

(١٠١) المذكرة التفسيرية للأمر العسكري رقم ٦٣ لسنة ١٩٤٨ بحل جماعة الإخوان المسلمين، مقدمة من عبد الرحمن بك عمار وكيل وزارة الداخلية.

(١٠٢) الدعوة -٢٨- أغسطس-١٩٥١.

(١٠٣) أمين عز الدين- تاريخ الطبقة العاملة منذ نشوءها وحتى الآن- ص ٨٠٩.

(١٠٤) رسالة خطية موجهة من خالد محيي الدين عضو مجلس الثورة إلى حضرة المحترم جمال عبد الناصر وكيل مجلس الثورة- مؤرخة ١٩٥٣/٣/١ (مسودة خطية).

٤

البنا والاحتلال
الصعود هبوطاً

ولابد أن الأستاذ حسن البنا قد تأمل الخريطة السياسية في مصر الثلاثينيات، تأملها وأطال التأمل في مختلف تضاريسها، ثم اختار.

وكان إختياره علي ماهر باشا. وعلي ماهر شخصية طموحة لعبت أدواراً بالغة الخطورة فى الحياة السياسية المصرية، وكان يناصب الوفد العداء، ويحتقر أحزاب الأقلية، ويحاول أن يتلاعب بها، وأن يصوغ من ذلك معادلة تحاول تعبئة الجماهير المصرية في صف السراى.

ومعه في ذلك كله كان حسن البنا الذي إتخذ من علاقته بعلي ماهر سلماً سريعاً ليجعل من جماعته التي كانت تعاني - كما رأينا في صفحات سابقة- من عزلة خانقة، تنظيماً ملئ السمع والبصر.

وعلي نغمات علي ماهر بدأت جماعة الإخوان تتحرك وسريعاً في الساحة المصرية.

ونتحدث قليلاً عن علي ماهر، يقول عنه «دافيد كيلي» رجل المخابرات البريطانية العتيد ومستشار دار المندوب السامي «وقع فاروق في مرحلة مبكرة من حياته تحت نفوذ علي ماهر باشا الذي أصبح صاحب النفوذ الأول في السراي، أن علي ماهر رجل ذكي جداً، لكنه كان طموحاً جداً، وكان طموحه يستهلكه، ولهذا فقد سارع في أن يصب في نفس الملك الجديد ذات الكراهية التي كانت تملأ نفس والده ضد الوفد »(١)

ويكتب السفير البريطاني لوزارته تقريراً عن علي ماهر يقول فيه «وعلي الرغم من أنه بقى الجانب الأكبر من عام ١٩٣٧ بعيداً عن المناصب الحكومية، إلا أن الملك فاروق كان يستشيره ، وهكذا فإنه بعمله من خلف الكواليس استطاع أن يحقق لنفسه نفوذاً كبيراً علي سياسة القصر»(٢)

وبرغم أن على ماهر كان يتظاهر دوماً بصداقته للإنجليز فقدكان على علاقات سرية وثيقة بالألمان.

وفي القضية التي اشتهرت باسم قضية الاغتيالات السياسية، وقف على ماهر ليدلي بشهادته متباهياً بأنه كان صديقاً للإنجليز، وإنه كان علي ولاء تام لهم، «والمجاملات الشخصية

كانت لأقصى الحدود».

ولكن وعندما تصاعد المد الفاشي وتصور البعض من الساسة أن الألمان قادمون استعدوا وعلي رأسهم علي ماهر لاستقبال السيد الجديد. يقول الدكتور «الطيب الناصر» في مذكراته «أن «الكونت ماتزوليني» آخر وزير مفوض لإيطاليا الفاشية في مصر قد أبلغه أنه إتفق شخصياً مع على ماهر علي أن تثور مصر على الانجليز فى الوقت المناسب لتمهيد السبيل لجيوش المحور»(٣)

وتنفيذاً لهذا المخطط، وفي أعقاب الهجوم العنيف والذي تبدي كاسحاً باتجاه مصر، واستولي علي بني غازي في ٢٩ يناير ١٩٤٢ قامت في مصر مظاهرات أغلبها من الأزهريين (بتأثير من الشيخ المراغي حليف على ماهر) وتعالت هتافاتها «إلى الأمام يا روميل» و«علي ماهر رجل الساعة». ثم يضع «جورج كيرك» علامة استفهام كبيرة عندما يقول «أن المخابرات البريطانية اكتشفت فى الوثائق الألمانية بعد الحرب أن على ماهركان يحصل على مبالغ مالية عن طريق بنك درسدنر»(٤)

هذا هو علي ماهر الذي فتح الباب الملكي أمام حسن البنا، ومنحه دعماً سياسياً ومادياً غير محدود وتحول به وبجماعته من رجل مغمور وجماعة مغمورة إلى قوة سياسية وجماهيرية ذات خطر.

والحقيقة أن على ماهر كانت تحركه رغبة نهمة فى تدمير حزب الوفد وتقليص جماهيريته. ومن ثم فقد سعي إلى ضخ الدماء فى جماعتي الإخواني ومصر الفتاة كى يحركهما ضد الوفد، ويستقطب من خلالهما جماهير الشباب التي اعتادات علي أن تكون وفدية.

ويبقي أن نتأمل جيداً المفردات السابقة، فبها ومن خلالها تحرك البنا في طريق العلاقات المشبوهة. مع الاحتلال ومع الألمان.

ولنبدأ بمسألة العلاقة مع الألمان. فقد بدأ الإخوان فى دعم التوجه نحو ألمانيا مستفيدين من كراهية الشعب للانجليز ورداً علي هذا التوجه يكتب عباس العقاد « في مصر دعوة دكتاتورية ليس في ذلك جدال، والذين يقومون بهذه الدعوة ويقبضون المال من أصحابها هم الذين يشنون الغارة علي الدول الديمقراطية ويثيرون الشعور عليها باسم الدين، وباسم سوريا وفلسطين، ولا يثيرون الشعور على الدول الأخرى (ألمانيا وإيطاليا) باسم البانيا وبرقه وطرابلس والصومال. ويسير علينا بعد ما تقدم أن نعرف من أين تتلقي تلك الجماعات المتدينة ازوادها ونفقاتها.. أنها جاسوسية مأجورة تتواري بالإسلام للإيقاع ببلاد الإسلام. لأن سيادة

الدكتاتورية لن تنتهي إلى مصلحة المسلمين ولا إلى سيادة المسلمين وإنما تنتهي إلى ضياع المسلمين»(٥)

ويكون تقارب القصر الملكي مع المحور ثمرة لجهود على ماهر، ولاشك أن فاروق قد تشجع في السير في هذا الاتجاه إذ وجد دعماً جماهيرياً من جماعتي الإخوان ومصر الفتاة.

وفي ٢٣ فبراير ١٩٣٩ كتب «الكونت شيانو» وزير خارجية إيطاليا في مذكراته الخاصة إنه «تلقي نبأ من أتوليكو السفير الإيطالي في برلين عن مقابلة جرت بينه وبين «مراد سيد أحمد باشا» وزير مصر المفوض في برلين إستفسر فيها الوزير المصري باسم مليكه عما إذا كان المحور سيكون علي استعداد لمساندته إذا أعلنت مصر حيادها، وترتب علي ذلك تدخل مباشر أو غير مباشر من جانب بريطانيا».(٦)

وتتواصل العلاقات، وتتعدد سبلها. ففي ١٤ ابريل ١٩٤١ اتصل «يوسف ذوالفقار باشا» (والد الملكة فريدة وسفير مصر في طهران) بالسفير الألماني لدي طهران راجياً إياه أن يبلغ هتلر «أن فاروق وشعبه لا يرغبون فى الحرب ضد ألمانيا، وأنهم يأملون في رؤية القوات الألمانية منتصرة ومحررة لهم من الاحتلال البريطاني».(٧) ثم.«وفي ٢٩ يونيو ١٩٤١ أرسل فاروق برقية إلى السفير المصري في طهران يطلب منه أن يبلغ السفير الألماني أن لديه معلومات تشير إلى أن الإنجليز سيحتلون مناطق البترول الإيرانية لكي يحموها من الهجوم الألماني من ناحية روسيا»(٨)

وكان «عزيز المصري باشا» صديق وحليف على ماهر، والمتطلع إلى علاقة مع المحور بهدف طرد الانجليز من مصر هو صاحب فكرة توحيد جماعتي الإخوان ومصر الفتاة معاً فى حزب إسلامي منظم على النمط الفاشي ومدعوماً بنفوذ القصر، ليعلن العداء للانجليز الذين يحتلون الوطن».(٩)

وقد تحمس أحمد حسين لهذه الفكرة، وتمهيداً لها أعلن تغيير اسم حزبه إلى «الحزب الوطني الإسلامي» . ويبدو أن ضغوط عزيز المصري وعلي ماهر تزايدت علي البنا بما دفعه إلى أن يفرد في «رسالة المؤتمر الخامس» باباً خاصاً بعنوان «الإخوان ومصر الفتاة» جاء فيه : «أن كثيراً من الناس يود لو إتحدت جماعة مصر الفتاة مع الإخوان المسلمين وهذا شعور ما من شك في أنه جميل نبيل، فليس أجمل من الوحدة والتعاون على الخير. ولكن هناك من الأمور ما ليس يفصل فيها إلا الزمن وحده، فلنترك للزمن أداء مهمته، وإصدار حكمه، وهو خير كفيل للصقل والتمييز. وليس معني هذا أن الإخوان سيحاربون مصر الفتاة بل إنه ليسرنا أن يوفق كل

عامل للخير، ولا يحب الإخوان أن يخلطوا البناء بهدم، وفي ميدان الجهاد متسع للجميع»٠(١٠)

وهكذا استخدم البنا كل خبرته فى المناورة ليرفض مبدأ الوحدة مع مصر الفتاة٠ وأن كان قد قبل الشق الآخر من المهمة وهو العمل لصالح القصر، العداء للوفد، والتقارب مع الألمان٠

وقد وثق حسن البنا علاقته بعزيز باشا المصري، ولدي عودة عزيز باشا من لندن عام ١٩٣٧ توجه حسن البنا علي رأس وفد من كبار الإخوان لاستقباله فى المطار(١١)

وفي عام ١٩٤٠ نجح حسن البنا في ترتيب لقاء سري بين عزيز المصري وعدد من ضباط الجيش في عيادة طبيب من الإخوان هو د٠ إبراهيم حسن(١٢)٠

وقد أدت هذه العلاقات بين البنا من ناحية وعلي ماهر وعزيز المصري من ناحية إلى حدوث انشقاق خطير في جماعة الإخوان، ووجه المخالفون لهذا الاتجاه إنذاراً للبنا بضرورة قطع علاقاته بعلي ماهر (١٣)٠ لكن البنا يتمسك بموقفه ، ويصدر قراراً بفصل كل معارضيه من صفوف الجماعة، بل ويهددهم بإبلاغ البوليس ضدهم إذا هم أفشوا أسرار الجماعة٠ ولست أدرى أية أسرار هذه التي يحميها البوليس؟ والحقيقة أن شواهد عديدة أكدت أن البوليس كان يمنح البنا اهتماماً وحماية بتعليمات عليا (١٤)٠ وتقول باحثة فى تاريخ الجماعة «أن هذه الأيام قد شهدت أكثر فأكثر الطابع الديكتاتوري لتصرفات حسن البنا تجاه مخالفيه من أعضاء الجماعة، وأصبح واضحاً تصميمه علي أن يحدد وحده التوجه السياسي للجماعة»(١٥) ولعل هذا توجه طبيعي ففي جماعة كهذه وفي ظروف سياسية كهذه يصعب كثيراً اقناع الأعضاء بتوجه لصالح القصر ولصالح المحور٠

المهم أنقسم المخالفون، وكونوا جماعة «شباب سيدنا محمد» واستولوا على مجلة «النذير» فقد كان ترخيصها مملوكاً لواحد منهم٠ وظلوا لفترة طويلة يهاجمون البنا مؤكدين إنه حصل على أموال طائلة من علي ماهر٠(١٦)

ويكتب أحد زعماء هذا الانشقاق (الأستاذ محمود أبو زيد عثمان) في مجلة النذير محدداً أوجه الخلاف مع البنا قائلاً أنها: موالاه البنا للقصر وعلي ماهر- التلاعب بأموال الجماعة- رفض مبدأ الشوري- حماية بعض الشخصيات غير الأخلاقية (صهره الشيخ عبد الحكيم عابدين»(١٧)٠

ولأن كل شيء يجب أن يكتسي برداء إسلامي عند حسن البنا، فإن تقلبات المواقف السياسية، ومناوراتها كانت تكتسي هي أيضا برداء الإسلام، وحتي العلاقات المريبة بأعداء الوطن كانت كذلك٠

وفي مـجلة «النذير» قبل أن تخرج عن يديه زف حسن البنا لقرائه ما يبرر به علاقته بالنازيين والفاشست قائلاً: «ذكرت بعض الصحف إن إيطاليا وألمانيا تفكران في اعتناق الإسلام، وقررت إيطاليا تدريس اللغة العربية فى مدارسها الثانوية بصفة رسمية وإجبارية، ومن قبل سمعنا تفكير اليابان في الإسلام، وقد تجددت هذه الإشاعة فى هذه الأيام، ولاشك أن هذه الدول الثلاث قد وضعت في برنامجها التقرب التام إلى العالم الإسلامي، والتودد إلى العرب والمسلمين، وقدمت لذلك مقدمات كبناء المساجد ودعوة الشباب العربي إلى المدن والعواصم عندهم» ثم «وهذا استعداد طيب تعلنه هذه الدول، إذا أضفنا إليه موقف الدول المسيحية منها من الكنيسة، وخروجها على تعاليمها، وموقف اليابان من ديانتها الوثنية وتبرمها بطقوسها، وأضفنا إلى ذلك كله أن هذه الدول إنما تعجبها القوة والكرامة والفتوة والسيادة، وأن هذه هي شعائر الإسلام».

ويضيف وكأنما ينسب هذا الفضل الوهمي إلى نفسه «لقد كتب الإخوان المسلمون إلى ملوك المسلمين وأمرائهم وعلمائهم وحكامهم بوجوب التبليغ رسمياً الى هذه الأمم باسم الإسلام».(١٨) ولمزيد من حبك هذه الأكذوبة يكتب الأستاذ البنا- وفي ذات العدد- رسالة إلى شيخ الجامع الأزهر يدعوه فيها إلى تبليغ ألمانيا وإيطاليا واليابان بالإسلام، وضرورة دراسة الإسلام دراسة علمية صحيحة، مع إمدادهم بالعلماء لشرح مفهوم الإسلام، أو أن تمنحنا حق التبشير بالإسلام وحق إقامة المؤسسات الإسلامية».(١٩). ثم كانت الشائعة التي تناثرت في كل أرجاء مصر عن إشهار هتلر لإسلامه عن أنه تسمي باسم «الحاج محمد هتلر».

وهذه الأكذوبة التي تفوق كل ما يمكن أن يتصوره عاقل يمكن اتخاذها نموذجاً للمدي الذي يمكن أن تصل إليه عملية تسييس الدين، أو طلاء المواقف السياسية الخاطئة، بل والمعادية لمصالح الوطن بطلاء ديني زائف، كي تكتسي الخيانة ببريق ديني.

ففيم كان ذلك كله؟ تناثرت شائعات بأن البنا لم يعد يكتفي بالعلاقة مع ممثلي ألمانيا في السياسة المصرية على ماهر وعزيز المصري، وإنما أقام بنفسه ولنفسه جسوراً مع الألمان أمدته بدعم مالي كبير يمكنه أن يفسر الإمكانات المالية التي انهالت فجأة علي البنا، والتي كان يغطيها بالدعوة لفتح باب التبرع، ثم يعلن بعدها بأيام قليلة أن التبرعات فاضت عن المطلوب. وقد فعلها الأستاذ البنا مرات عديدة منها الدعوة لجمع ٨٥٠٠ جنيه لشراء مقر للجماعة، ثم وبعدها بيومين اعلن أن المبلغ المطلوب قد تمت تغطيته.

وتتحول الشائعات إلى تقارير رسمية «ففي لقاء بين السير والتر سمارت المستشار

الشرقي للسفارة البريطانية مع وكيل وزارة الداخلية المصرية حسن باشا رفعت صرح وكيل وزارة الداخلية بأن معلوماته تقول إن الأستاذ البنا قد تلقي إعانات مالية من الإيطاليين والألمان والقصر» وفي زيارة أخرى يكرر محمود غزالي مدير الأمن العام ذات الاتهام وإن كان قد أضاف إليه إن الأستاذ البنا قد احتفظ ببعض من هذه الأموال لنفسه شخصياً».(٢٠)

وتظل هذه الاتهامات معلقة بلا دليل جدي، ونظل نحن معتقدين أنها مجرد إدعاءات أو شائعات سياسية يطلقها الأمن ليبرر بها مواقف ما، ضد خصم سياسي.

حتي أتيح لنا أن نمتلك وثائق ربما تؤكد صحة هذه الاتهامات.

أخيراً، وبالمصادفة، وخلال البحث في الارشيف العام للخارجية البريطانية يتم العثور علي برقيتين من السفير البريطاني إلى وزارة خارجيته تحتويان علي ترجمة انجليزية لبعض أوراق مكتوبة بالألمانية ضبطت لدي «ولهلم ستلبوجن» فزمم ةضعصزعغ إهزععدقشزف. ونقرأ :

عيمي ممتن يمتمممممنمميم

٢٢-١٠-١٩٣٩

مكتب الأمن العسكري – مصر

الهر ولهلم ستلبوجن مدير مكتب الدعاية النازيةلد طيمهيمصلخ بمصر، بالإضافة إلي توليه مسئولية الملحق الصحفي بالبعثة الألمانية بمصر بشكل مؤقت، وهو لا يتمتع بأية صفة دبلوماسية.

عثر عنده لدي تفتيشه على مذكرة مكتوبة بالاختزال ومؤرخة في ١٨ أغسطس (والمعتقد أنها كتبت عام ١٩٣٩) تقول :

● «لقد أرسلت البعثة إلى حسن البنا(الإخوان المسلمين) مرة أخرى ذات المبلغ بذات الطريقة» لكن الإخوان المسلمين طلبوا مزيداً من المال رغم أنني سلمتهم مبلغ الألفي جنيه التي وصلت باسمهم من ألمانيا ، والتي وعدناهم بها.

ثم ترجمة لورقة أخرى مكتوبة بالآلة الكاتبة الألمانية مؤرخة ٠٨/١٦ تقول:

● أن دفعة جديدة من الأموال لجماعة الإخوان المسلمين قد أصبحت في اعتقادي ضرورية جداً. لابد من الاتصال ببرلين فوراً عن طريق البعثة لطلب ميزانية إضافية. أن المحادثة التي جرت مع ح .ب (حسن البنا) حول المسألة «ب» كانت مرضية تماماً وقد أعرب «غقزد» عن كامل رضائه عنها.

أما البرقية الثانية فتتضمن ترجمة عن الألمانية لأوراق أخرى ضبطت لدي ذات الشخص وفيها:

عيميممتنيمتمممممنممكتب الأمن العسكري – مصر

عثر لدي المذكور علي المذكرات التالية:

١ – لقد أكد مؤتمر الإخوان المسلمين أن الوضع الراهن سيء للغاية، وأعلنوا باسم العرب أن القتال في فلسطين هو حرب مقدسة، وأن واجب كل مصري هو مساعدة المقاتلين هناك.

٢ – قرر المؤتمر البدء فى حملة تبرعات لدعم القتال في فلسطين.

● «مذكرة بالاختزال تقول : أرسلت البعثة مرة أخرى لحسن البنا ذات المبلغ بذات الطريقة. هؤلاء الناس يمكنهم فعل أشياء كثيرة».

ومثل هذه الوثائق لا تحتاج إلى أي تعليق.

ويكون طبيعياً أن يستشعر الانجليز الخطر من علاقة كهذه. وما أن تمكنوا من الإطاحة بحكومة على ماهر باشا حتي بدأوا فى الضغط على رئيس الوزراء الجديد «حسين سري باشا» لاتخاذ إجراء ضد حسن البنا، ويروي د. محمد حسين هيكل وكان آنذاك وزيراً للمعارف فى مذكراته «ابلغت السلطات البريطانية حسين سري باشا أن حسن البنا يعمل لحساب المحور ورأت ضرورة الحد من نشاطه، ورأي سري باشا أن ينقل الرجل من القاهرة إلى الصعيد، فحدثني فى هذا الأمر وطلب إلى نقلة إلى قنا ولم أجد بأساً من إجابة طلبه»(٢١) لكن أمر النقل ما لبث أن ألغى فوراً بأمر من القصر الملكى.

لكن السلطة البريطانية عادت فطلبت القبض على حسن البنا ، «أحمد السكري»، «عبد الحكيم عابدين» وعدد آخر من الإخوان(٢٢) وبالفعل ألقى القبض عليهم في ١٩ أكتوبر ١٩٤١.

ويروي شاهد عيان وهو الأستاذ «أحمد حسين» زعيم «مصر الفتاة» وكان معتقلاً معهم في معتقل الزيتون «اعتقل حسن البنا وقادة الإخوان في مستهل الحرب كغيرهم، فما راع المعتقلين إلا أن حضر إلى المعتقل الاستاذ حامد جودة (الوزير السعدي فى حكومة حسين سري باشا) واجتمع بحسن البنا عدة ساعات، ثم ما لبث أن افرج عنه بعد بضعة أيام ، ويفسر أحمد حسين ذلك بأنه تعبير عن رغبة حزب السعديين في استغلال حركة الإخوان لدعم نفوذه. ويقول «وخرج الشيخ من المعتقل وقد إزداد جاهاً ونفوذاً، ومضي فى دعوته حراً طليقاً يجوب البلاد، يؤلب الشعب وينظم الاجتماعات، واشتهر في البلاد أن الإخوان المسلمين في حماية

الحكومة وفي حماية السعديين بصفة خاصة»(٢٣)

لكن جورج كيرك يقول «أن الإفراج عن حسن البنا قد تم بضغط من القصر الذي ساد الاعتقاد أنه يقدم للبنا مساعدات مالية شخصية»(٢٤) ويعزز هذا الرأي الاستاذ «محمد صبيح» أحد قادة «مصر الفتاة» الذي قال فى مناقشة مع «د٠ عبد العظيم رمضان» «أن فاروق قد حمي حسن البنا، وضغط للإفراج عنه»(٢٥)٠

* * *

ومن الألمان إلى الانجليز ٠ فلقد استمر البنا دوماً في حالة بحث عن حاضنه تمده بالمال وتضفي عليه حماية ومساندة، وكالعادة، فإن البنا لم يجد ما يبرر أن يرتمي في أحضان طرف واحد، فلا بأس من يد تمتد هنا وأخرى تمتد هناك٠

ففي عام ١٩٣٧ يصدر الاستاذ البنا رسالة «نحو النور» وقد مثلت بدايات اقتحامه ميدان السياسة، وقد اشتملت هذه الرسالة على خمسين نقطة تمثل رؤية البنا للإصلاح٠ تناولت كثيرا من المسائل مثل «القضاء علي الحزبية وتوجيه قوي الأمة السياسية فى وجهه واحدة- تقوية الروابط بين الأقطار الإسلامية وخاصة العربية منها تمهيداً للتفكير الجدي والعملي في شأن الخلافة الضائعة- إعادة النظر فى مناهج تعليم البنات ووجوب التفريق بينها وبين مناهج تعليم الصبيان في كثير من مراحل التعليم»٠(٢٦) وهكذا أشياء كثيرة فى نواح متعددة، ولكن لا حرف واحد عن الاستعمار أو ضد الاحتلال٠

ويعلق «صلاح عيسي» على تكتيك الإخوان إزاء الاحتلال البريطاني قائلا «ثبت أن ذكاء الإخوان السياسي فوق مستوي الشبهات٠ وهو ما تأكد من الطريقة التي تعاملوا بها مع الاحتلال، إذ تعاملوا معه بحجمهم الحقيقي لا بأهدافهم التي اعلنوها تدريجيا وفيما بعد٠ وكما نجحوا في خديعة شركة قناة السويس وحصلوا منها علي منحة وصلت إلي خمسمائة جنيه، رغم أنها شركة تعمل لمصلحة الاحتلال، فقد آثروا أن يكفوا عن أي نشاط سياسي خلال سنوات الحرب يعرضهم للعصف بهم، بل على العكس أخذوا فرصة للانتشار والتوسع وتصرفوا بذكاء جعل سلطات الاحتلال الانجليزي في مصر ترضي عنهم رضاءً تاماً، ففي بداية الحرب العالمية الثانية ضيقت هذه السلطات على كل القوي السياسية الوطنية ولم ينج من هؤلاء سوي الإخوان»(٢٧)

ونلاحظ هنا أن السفارة البريطانية التي لم تتعود التراجع عن قراراتها ضد خصومها

السياسيين وخاصة فى فترة الحرب قد تراجعت أو تظاهرت بأنها تتراجع مرتين أمام ضغط القصر الملكي لحماية حسن البنا. فهل كان هذا الشد والجذب، أو لنقل هذه المرونة بداية لعلاقة من نوع خاص؟

وعلي أية حال فقد مضي البنا ينسج لنفسه علاقات أخرى مع قوي أخرى غير ألمانيا، هي تحديداً النقيض، أي الاحتلال البريطاني. ونقرأ في بحث عن جماعة الإخوان ، يقول Hey-worth Dunne استناداً إلى ما اسماه مصدر إخواني كان على علاقة بالسفارة البريطانية «أن حسن البنا قد ألمح خلال الاتصالات مع السفارة ومن خلال عناصر وسيطة أنه على استعداد للتعاون، وأنه سيكون سعيداً لو أن مساعدة مالية قدمت إليه»(٢٨) ويلاحظ باحث آخر أن البنا قد تسحب من علاقته مع الألمان في الوقت المناسب «ولم يسمح لرجاله بأن يشاركوا فى المظاهرات التي هتفت عام ١٩٤٢ إلى الأمام يا روميل»(٢٩)

ولأننا لا نأخذ بالشبهات فإننا نلجأ إلى المواقف السياسية الفعلية فهي الأكثر قدرة على التعبير عن حقيقة ما كان. فعندما وضعت الحرب العالمية الثانية نقطة نهايتها كتب حسن البنا ليطالب الدول الغربية بمنح الشعوب العربية حريتها واستقلالها ثم يقول «أن الشعوب العربية والإسلامية تدرك إنه من المستحيل الآن علي أمة من الأمم أن تعيش فى معزل عن العالم. ولهذا فهي مستعدة تمام الاستعداد للتعاون مع غيرها، بل أنها لتذهب فى هذا التعاون إلى أبعد حدوده».(٣٠)

ثم يلتقي الاستاذ البناب مستر «سبنسر» المراسل الحربي الأمريكي ويدلي له بحديث نشرته مجلة الإخوان المسلمين وفيه أبدى البنا استعداده للتحالف العسكري مع الغرب، وقال «أحب أن يفهم الغربيون إنه إذا اعطيت الحريات لنا بواسطة الدول الغربية فسوف لا نستغني نحن عن الغرب فى تقوية كياننا»(٣١)

«وعبر قنوات عديدة تقارب البنا مع الانجليز ومن هذه القنوات الأمير محمد على ولي العهد الذي ظل على الدوام ورغم تقلبات الملك فاروق مقيما على عهد الولاء للانجليز. وكتعبير عن صداقة جديدة أهدى ولي العهد مكتبة إسلامية ضخمة للمركز العام للإخوان المسلمين فى الحلمية الجديدة».(٣٢)

ونتوقف فقط لنتأمل، فحسن البنا الذي ظل على مدي طويل علي علاقة وثيقة جداً بالملك فاروق، كان أيضاً على علاقة حميمة مع خصمه الدائم واللدود الأمير محمد علي.

ثم بدأ البنا في تقديم خدمات فعلية للإنجليز. ولتقديم البرهان على قدرته على تقديم تلك

الخدمات علي مستوي جماهيري اتفق البنا مع وزارة الداخلية على تحجيم المظاهرات التي كان مقرراً أن تندلع يوم ٢ نوفمبر ١٩٤٥ بمناسبة ذكري وعد بلفور ، وقام البنا بنفسه بنصح المتظاهرين بالانصراف والتفرق. وبهذه المناسبة يكتب «والتر سمارت» المستشار الشرقي للسفارة البريطانية «يشعر الوفد بالسخط تجاه موقف الإخوان الذين قاموا بتهدئة أعمال الشغب التي وقعت بين صفوف الطلاب، واعتبر الوفد هذا الموقف نوع من الخيانة. وعلي أية حال فإن حكومة النقراشي تبدو كما لو أنها قد نجحت في استمالة الإخوان، إن سياسة الإخوان تتحاشي وقوع أي صدام مع الحكومات المتعاقبة بينما يدعمون هم مواقعهم». ثم يقول «وعلي نحو مشابه نجدهم يحاولون استمالتنا خوفاً من أن نقوم بالتحريض علي أي عمل ضدهم».(٣٣)

كذلك فقد تحالف الإخوان حلفا وثيقاً مع إسماعيل صدقي الذي كان حليفا وثيق الصلة بالإنجليز. بل تعاونوا معه في ترويج معاهدة صدقي - بيفن. ودون أدني حرج يقف القائد الطلابي للإخوان «مصطفي مؤمن» معلنا تأييده لإسماعيل صدقي مستخدماً الآية الكريمة «وأذكر فى الكتاب إسماعيل أنه كان صادق الوعد وكان صديقاً نبياً».

وترويجاً لمعاهدة صدقي- بيفن التي رفضها الشعب المصري رفضاً كاملاً واسقطها واسقط صاحبها تحدث الإخوان طويلاً فى تبريرها مستندين إلي «صلح الحديبية».(٣٤)

ويروي الاستاذ صلاح الشاهد وكان أحد العاملين فى القصر الملكي فى مذكراته «عندما توصل صدقي باشا إلى مشروع اتفاقية صدقي - بيفن توهم أن الإخوان المسلمين يمثلون قاعدة شعبية ذات وزن فاستدعي المرشد العام بعد وصوله من لندن بساعتين، وأطلعه علي مشروع الاتفاقية قبل أن يطلع عليها النقراشي وهيكل المشاركين له فى الحكم، وحصل على موافقته على المشروع، ولما اشتدت المظاهرات الشعبية ضد هذه المعاهدة طلب صدقي باشا من المرشد العام أن يركب سيارة سليم زكي مساعد حكمدار القاهرة المكشوفة ليعمل على تهدئة المظاهرات. واستجاب المرشد العام لطلب صدقي باشا ».(٣٥) ودهش المصريون إذ شاهدوا صورة البنا تملأ صحف اليوم التالي وهو يركب سيارة سليم زكي محاولاً تهدئة المظاهرات. لكن هناك مفارقات بالغة الأهمية وبالغة الدلالة، فالمناورة تستدعي مزيداً من المناورة ، بل وقد تستدعي المناورة المضادة.

فما أن اختلف البنا مع إسماعيل صدقي حتي حرك جهازه السرى لنسف أقسام الشرطة وترويع العاصمة بهدف ترويع صدقي باشا، كما حرك جهازه السري لنسف سيارتي شريكي صدقي في الوزارة هيكل باشا والنقراشي، وهو ما طالعناه تفصيلاً فى صفحات سابقة.

أما المفارقة الأخرى والبالغة الدلالة فهي أن السيارة التي ركبها البنا صحبه سليم زكي خدمة لأهداف الامن في تهدئة المظاهرات. هي ذاتها التي تلقت فيما بعد قنبلة حارقة من أحد طلاب الإخوان لتحرق السيارة وتقتل سليم زكي.

ومرة أخرى نعود إلى علاقة البنا بالانجليز ، يقول ريتشارد ميتشيل «وبعد الإفراج عن البنا فى أكتوبر ١٩٤١ قامت اتصالات بين البنا وبين السفارة البريطانية ولا أحد يعلم من قام بهذا الاتصال ولا متي تم».(٣٦)

وعلي أية حال فأننا ولكي نكون منصفين نعود إلى كتابات الإخوان أنفسهم فهم يقولون وبلا حرج أن «الاتصال قد تم بناء علي طلب الانجليز الذي خشوا من التقارب بين الإخوان والقصر، وبعد مناقشة أفكار وبرنامج الجماعة أبدي الطرف الانجليزي استعداد السفارة البريطانية لتقديم مساعدة مالية للجماعة لمساعدتها علي أداء رسالتها»، ثم يؤكدون أن الاستاذ البنا قد رفض ذلك»(٣٦) وقد سبق للإخوان أن اعترفوا أن إسماعيل صدقي عرض عليهم مساعدة مالية لكنهم رفضوا.

ولكن ولكي نقترب اقترابا موضوعياً من الحقيقة يتعين علينا أن نتأمل سؤالا كبيراً وملحاً.

لماذا الانجليز بالذات؟ ولماذا إسماعيل صدقي بالذات يعرضان مساعدات مالية للإخوان بالذات؟

هذا السؤال يحتاج إلى إجابة.

وعلي أية فإن شهر العسل الإخواني - الإنجليزي لم يكن بلا معني فكري ومغزي سياسي، فالمؤرخ الأكثر تأييداً لجماعة الإخوان «د. اسحق موسي الحسيني» يقول مبرراً هذه العلاقة الإخوانية بالانجليز «أن تحرير وادي النيل كله من النفوذ الأجنبي كان مطلباً يلي في الأهمية لدي الإخوان مطلب إقامة الحكومة الإسلامية».(٣٧)

وحتي أمريكا تلقت هي أيضا غزلاً كثيراً من الإخوان. فالاستاذ مصطفي مؤمن يتوجه نحو أمريكا بأعلي صوت «أيها الأمريكيون انتم الشعب الحر وقواد الديمقراطية»(٣٨)

ولم يكن الأمر قاصراً علي الاستاذ مصطفي مؤمن، فالاستاذ البنالمح تصاعد النفوذ الأمريكي في العالم بعد الحرب العالمية الثانية، ولاحظ اهتمام أمريكا بالأوضاع فى المنطقة، وفي مصر علي وجه الخصوص، فقرر كعادته أن يجدف بقاربه فى اتجاه هذه القوة الصاعدة، وأن يناور معها هي الأخرى.

ويورد الأستاذ محسن محمد فى كتابه «من قتل حسن البنا» عديداً من النصوص المنقولة عن وثائق الخارجية الأمريكية المودعة بمكتبة الكونجرس نطالع بعضا منها معاً.

«التقي الأستاذ حسن البنا مع ف«يليب ايرلاند» السكرتير الأول للسفارة يوم ٢٩ أغسطس ١٩٤٧. وعندما أشار إيرلاند إلى المظاهرات الحاشدة التي وقعت هذه الأيام، أراد البنا أن يوهمه بقدرته علي إشعال المظاهرات وإخمادها . فقال في بساطه «لن تكون هناك اضطرابات جديدة فإن بوسعي بدؤها وانهاؤها، ورد عليه ايرلاند: من المشكوك فيه أن نتمكن من أنهاء الفتنة بعد اشتعالها»(٣٩)

وقد استخدم البنا كأداة للتقارب مع أمريكا سلاحاً مهماً فهو عدو للشيوعية التي كانت قد ظهرت على سطح الأحداث المصرية آنذاك، مدركاً أن هذا الأمر شديد الإغراء بالنسبة للأمريكيين. وطلب البنا مقابلة ثانية مع إيرلاند وتم اللقاء في بيت ايرلاند وحضره محمد الحلوجي من قيادات الجماعة و الدكتور محمود عساف مدير إعلانات صحيفة الإخوان ، وأشار حسن البنا «إلى خطر الشيوعية فى الشرق الأوسط وأن الإخوان المسلمين يحاربونها بكل الوسائل الممكنة، ويضطر أعضاء الجماعة أن يتركوا عملهم الأصلي لدخول الخلايا الشيوعية للحصول على المعلومات، وعندما يفعلون ذلك فإنهم يتركون وظائفهم وبذلك يفقدون مرتباتهم (!) ، وإذا أمكن تعيينهم علي أساس أنهم محققون وباحثون فإن هذه المشكلة يسهل حلها». ثم اقترح «انشاء مكتب مستقل مشترك بين الأخوان والحكومة الأمريكية لمحاربة الشيوعية» وقال ايرلاند أنه فهم من هذا العرض أن تتولي الولايات المتحدة إدارة المكتب وأن يكون اعضاؤه- فى الأغلب- من الإخوان. وقال ايرلاند أنه رفض العرض فقال البنا «لا أريد إجابة الآن، ولكني أرغب فقط فى عرض الفكرة وسيجري محمود عساف معك محادثات تفصيلية».

لكن هذا الرفض الأمريكي أغضب البنا الذي قرر الضغط علي أمريكا كي تقبل، فقد كان يتوقع مالا وفيراً من مثل هذا المكتب. فنشرت جريدة الإخوان فى اليوم التالي مباشرة مقالاً بعنوان «أمريكا والعالم العربي» شنت فيه هجوماً عنيفاً على الأمريكيين.

وفيما كان ايرلاند فى زيارة لصديق مصري، تعمد البنا أن يحضر المقابلة، وقال له ايرلاند «اشعر بالدهشة لأنك عرضت بذل جهود مشتركة بين الإخوان والسفارة، وفي اليوم التالي مباشرة نشر عمر عزمي مقالاً في جريدة الإخوان حمل فيه بعنف على أمريكا وسياستها ووصفها بأنها مخادعة، وهاجم نزاهة الأمريكيون عامة» ورد البنا رداً «سابق التجهيز» قلل فيه من قيمة المقال وكاتبه وقال أنه مجرد رد فعل متحمس لما يشعر به الإخوان إزاء أسلوب أمريكا

في فلسطين» ثم قال: وهذا هو المهم- «وعلي العموم آمل ألا يؤثر هذا الحادث على اقتراحاتي السابقة»(٤٠)

وتداهم الأحداث الجميع، فالجماعة كانت على أبواب محنتها. ولكن ما أن تستعيد الجماعة أنفاسها حتي تبدأ فى عام١٩٥٣ محاولة جديدة للتقارب مع أمريكا وهي محاولة رتب لها المرشد العام الجديد المستشار حسن الهضيبي عن طريق شقيق زوج ابنته (٤١)

ويبدو أن الأمريكيين في كلا الحالين لم يبتلعوا الطعم الإخواني ، فالتعليقات فى النصوص الكاملة للوثائق توحي أحيانا بعدم الثقة، وأحيانا أخري باعتقادهم بأن الإخوان يبالغون في قدراتهم أكثر من اللازم. وقد كان تعليق مندوب ضيمقيمش علي قول ممثل المستشار الهضيبي «أن الإخوان يدرسون إمكانية إزاحة عبد الناصر وعبد الحكيم عامر من السلطة لاذعاً».

* * *

ولكن وإذ يتجدد موج الأحداث يبدو أن من حقنا أن نتساءل هل ستبتلع أمريكا ٢٠٠٤ الطعم الإخواني؟

وعلي أية حال ، فإن الإخوان الذين شربوا من بئر الأستاذ حسن البنا لم يزالوا يمارسون ذات اللعبة فى المناورة رغم نتائجها المريرة. فهل هم لا يتعلمون؟ أم أنها جينات وراثية إخوانية لا يمكن التخلص منها؟ أم هذا هو الاعتقاد بأن الجماعة لا تخطئ، ولم تخطئ؟

الـهوامش

(١) محمد عودة - سبعة باشوات وصور أخرى- ص١٥٤٠

(٢) الأهرام- ٢٠-٢-١٩٧٠، رأى السـفـيـر البـريطاني منذ ٣٠ عـامـا فـى ١٥٠ سـيـاسـيـاً مصرياً٠

(٣) مذكرات الدكتور الطيب الناصر- روزاليوسف ٢٣-١-١٩٥١٠

(٤) جورج كيرك- موجز تاريخ الشرق- ترجمة عمر السكندري- ص ٣٤٠

(٥) الدستور- ٢٧-٧-١٩٣٩- مقال لعباس العقاد٠

(6) Count Galeazzo Ciano- Ciano's Diary- 1939-1943 London- p. 32l

(٧) الأهرام - ٩-٢-١٩٧١- دراسة للدكتور محمد أنيس بعنوان : ٤ فبراير ١٩٤٢.

(٨) السياسة الدولية - أكتوبر ١٩٧١- دراسة للدكتور عبدالعظيم رمضان بعنوان : الاتصالات المصرية بدول المحور ٣٩-١٩٤٥.

لحتملخ فزّيقمهصتم طوفـفـزتم قدضرتم كيممبنيم(١٠) حسن البنا -رسالة المؤتمر الخامس- ص٥٧.(١١) د. زكريا سليمان البيومي- الإخوان المسلمون بين عبد الناصر والسادات، من المنشية إلى المنصة ، القاهرة (١٩٨٧) ص١٣.

(١٢) المرجع السابق- ص١٤.

(١٣) طارق البشري- المرجع السابق- ص٤٨.

(14) Heyworth- Dunne- Ibid- p.39

(15) Harris, Christina- Ibid- p179.

لحيمبلخنضهنصزعتمقدضرتم كيميمتنيم(١٨) النذير- ٤ ذي القعدة سنة ١٣٥٧- العدد ٣٠. مقال للاستاذ حسن البنا.

(١٩) المرجع السابق.

(٢٠) محسن محمد - من قتل حسن البنا - ص٨٨.

(٢١) د. محمد حسين هيكل- مذكرات في السياسة المصرية - ج٢-ص٢٠٨.

(٢٢) د. عبد العظيم رمضان- الحركة الوطنية في مصر- ج٢- (بيروت)- ص١٢٨.

(٢٣) أحمد حسين المحامي- مرافعة في قضية اغتيال المرحوم فهمي النقراشي باشا (١٩٤٩)- ص ٤١.

(٢٤) جورج كيرك - المرجع السابق- ص٣١٤.

(٢٥) د. عبد العظيم رمضان- المرجع السابق- ص١٤٥.

(٢٦) حسن البنا- مجموعة رسائل الإمام الشهيد- رسالة نحو النور- ص ٧٤.

(٢٧) ريتشارد ميتشل - الإخوان المسلمون والمجتمع المصري- الترجمة العربية- مقدمة بقلم صلاح عيسي- ص٢٢.

(28) Heyworth-Dunne- Ibid- p.38.

(29) Boehm, les freres Muslmans- P.200.

(٣٠) الإخوان المسلمون (الأسبوعية) - ٢٣ أغسطس ١٩٤٥- مقال للاستاذ حسن البنا بعنوان : كلمتان بعد الهدنة العامة.

(٣١) الإخوان المسلمون (الأسبوعية) ٢ فبراير ١٩٤٦.

(٣٢) محمد شوقي زكي - الإخوان المسلمون والمجتمع المصري- ص١٤٥.

(٣٣) محسن محمد - المرجع السابق- ص٩١.

(٣٤) محمد جلال- مصريون لا طوائف (١٩٥١)- ص٦١.

(٣٥) صلاح الشاهد - ذكرياتي فى عهدين- (١٩٧٩)-ص٤٨.

(٣٦) الإخوان المسلمون - ٣١-٧-١٩٤٦.

وأيضا: الدعوة - ٢٩-٥-١٩٥٤

حسن البنا- نظام الأسر نشأته وأهدافه.

(٣٧) د. أسحق موسي الحسيني - المرجع السابق ص٩٤.

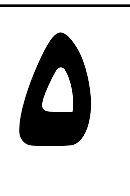
(٣٨) مصطفي مؤمن - صوت مصر- ص ٢٧١.

(٣٩) محسن محمد- المرجع السابق- ص٢٠٤.

(٤٠) المرجع السابق- ص ٢١١-٢١٤.

(٤١) راجع تفاصيل هذه المحاولة فى الجزء الأول من هذه الدراسة :

د. رفعت السعيد- الإرهاب المتأسلم- الجزء الأول، الإخوان المسلمون، كتاب اليوم (٢٠٠٤).



البنا والملك
من تلاعب بمن؟

ونعود إلى علي ماهر باشا فقد كان البداية. كان مفتاح العلاقة الفسيحة بين الشيخ البنا والملك ، كان علي ماهر عدواً لدودا لحزب الوفد، وكان واحداً من دعائم القصر الملكي الأساسيين وللسببين معاً وجد فى البنا ضالته. وتكاد المراجع فى أغلبها أن تجمع على أن بداية العلاقة بين البنا وعلي ماهر كانت عام ١٩٣٥.(١)

والبنا من الناحية الأخرى كان حريصاً علي توثيق علاقته بالقصر الملكي والاستناد إلى دعمه. كان ذلك منذ بداية تأسيس الجماعة. وقد رأينا في فصل سابق كيف تقرب من الملك فؤاد لكنه كان مجرد تأييد من مدرس مغمور وجماعة مغمورة. يقول أحد الباحثين «بدأ حسن البنا دعوته وعينه على القصر الملكي، يحاول أن يرتبط به ويشد الرحال إليه ليقنعه بأن من مصلحة

العرش أن تكون جماعة الإخوان ركيزة له» (٢)

ولأن علي ماهر كان صاحب النفوذ الأول في عصر فاروق ، فقد أدرك البنا أن مفتاح أبواب القصر بين يديه، ولهذا قرر أن يوثق علاقته به، ومهما كان الثمن الذي يدفعه. وإذا كانت إيماءات وربما ترتيبات على ماهر هي طريق البنا نحو الألمان، فإن على ماهر استطاع أن يغرس حسن البنا وجماعته بالكامل فى حقل الولاء المفتوح والمبالغ فيه، وربما إلى درجة الفجاجة للقصر الملكي.

وإذا أردنا نموذجاً لهذه العلاقة المتينة بين البنا وماهر نطالع كنموذج واحداً من عشرات وربما أكثر من العشرات من أشكال العلاقات المميزة بين الطرفين، نطالع بعضاً مما كتبه البنا «حضر على ماهر باشا ومعه عبد الرحمن عزام باشا مؤتمر فلسطين في لندن فودعهما الإخوان أحر وداع، وبعد حضوره ذهب وفد من الإخوان إلى المحطة لاستقباله وعلي رأسه الاستاذ أحمد السكري فهتف بحياته، وأمر الإخوان أن يهتفوا بحياته كذلك، فهتف بعضهم وامتنع الآخرون، وعادوا ثائرين، ورفعوا إلى احتجاجاً عنيفاً ذكروا فيه أن الإخوان ليسوا هتافين، وأنهم لم يهتفوا لأشخاص، وإنما يذكرون الله وحده، ويهتفون لجهاد وأعمال، فطيبت خاطرهم بأن هذه تحيةالمسافر، وأننا لا نحيي شخصاً، ولكن نحيي عمله لفلسطين، فاحتسبوها عند الله في سبيل فلسطين العربية»(٣)

ويقول ميتشيل أن هذه العلاقة المبالغ فيها مع على ماهر كانت سبباً فى إحداث إنشقاق فى صفوف الجماعة، فقد عارضها البعض مستندين إلى قول سابق للبنا يؤكد أن من بين فضائل الجماعة ومن خصائصها الأساسية تجنب التورط مع الأكابر والأعلام والأحزاب والجماعات.. ولذلك فقد طالبوا بفصل أحمد السكري محور العلاقة مع على ماهر، وكان يحرك بعض المنشقين فكرة الرفض لأن تصبح الجماعة أداة في يد على ماهر والقصر لمحاربة الوفد(٤)

ويؤكد المؤّرخ الإخواني الأستاذ محمود عبد الحليم أن حسن البنا «كان يري أن أقصر طريق لتحقيق أهداف الدعوة إنما يكون بالاتصال بالملك الشاب فاروق واقناعه بأهداف الدعوة، وبأن انتماءه إليها سيصلح البلاد ويحفظ له عرشه، ومن جل ذلك سعي البنا للاتصال برجل محايد كان يأنس فى رجاحة عقله وفي صدق وطنيته ونزاهته، وكان في نفس الوقت من أقرب الشخصيات إلى الملك حيث كان أستاذه من قبل، ذلك هو على ماهر. وكان على ماهر من القلائل الذين يفهمون فكرة الإخوان ويقدرونها، كما يقدرون الأستاذ المرشد كل التقدير »(٥) وكان البنا جاهزاً لكل شيء، وأي شيء يرضي القصر ويفتح أبوابه أمامه.

وعندما توفي الملك فؤاد كتبت مجلة الإخوان تحت عنوان «مات الملك يحيا الملك» «مصر تفتقد اليوم بدرها في الليلة الظلماء، ولا تجد النور الذي اعتادت أن تجد الهدي على سناه. فمن للفلاح والعامل، من للفقير يروي غلته ويشفي علته، ومن للدين الحنيف يرد عنه البدع، ومن للإسلام يعز شوكته ويعلي كلمته، ومن للشرق العربي يؤسس وحدته ويرفع رايته؟»(٦)

ثم توالت مقالات مجلة الإخوان فى الدعاء لفاروق ولي العهد، ودعوته للتمسك بالتقاليد الإسلامية التي كان يتحلي بها والده، وتصفه «بسمو النفس وعلو الهمة وأداء فرائض الله، وإتباع أوامره، واجتناب نواهيه»(٧) وفي مقال آخر تصف المجلة الفتي صغير السن الذي لم يزل ولياً للعهد بأنه «المربي والاستاذ والمثل الأعلي»(٨)

وفي هذه الأثناء كان الخلاف بين رجال القصر وحكومة الوفد علي أشده. وفيما كانت الاستعدادات لتولية الملك، اقترح الأمير محمد علي (الذي اصبح بتولية فاروق ملكا وليا للعهد) بأن يقام احتفال ديني تتم فيه مراسيم تولية الملك. حيث يعقد الاحتفال فى القلعة ويقوم شيخ الأزهر بتسليمه سيف جده محمد علي. ولم يكن هذا الاقتراح سوي جزء من مخطط كامل رسمه الثالوث المسيطر على القصر (علي ماهر- شيخ المراغي- كامل البنداري) لاحتواء الملك، وتقوية نفوذه وتقديمه فى صورة الملك الصالح المسلح بالدين فى مواجهة النحاس باشا المسلح بتأييد الشعب.

لكن النحاس باشا يتمسك بأهداب ليبراليته ويرفض أن يتولي الملك بأسلوب إسلامي قائلا فى خطاب عنيف أمام مجلس النواب«أن هذا الاقتراح إقحام للدين فيما ليس من شئونه، وأيجاد سلطة دينية خاصة بجانب السلطة المدنية». وقال «الإسلام لا يعرف سلطة روحية، وليس للرسل وساطة بين الله وبين عباده ، وليس أحرص مني ولا من الحكومة التي أتشرف برئاستها على احترام وتنزيه الإسلام، كما أنه ليس أحرص منا على الإلتزام بأحكام الدستور، ولكن الاحتفال بمباشرة جلالة الملك لسلطته الدستورية شيء آخر. فهو مجال وطني يجب أن يتباري فيه سائر المصريين مسلمين وغير مسلمين»(٩)

ويأتي الرد سريعا من حسن البنا، فيعقد وعلي وجه السرعة المؤتمر الرابع للجماعة معلنا وبصراحة تامة أن هدف المؤتمر الوحيد هو الاحتفال بإعتلاء فاروق العرش .

ويصدر مكتب الإرشاد نشرة تقول «قرر مكتب الإرشاد العام للإخوان المسلمين الاحتفال بحضور جلالة الملك المعظم فاروق الأول وتسلمه مهام ملكه السعيد وتقديم فروض التهنئة والولاء بهذه المناسبة الميمونة» وكان الملك قد وصل إلى الإسكندرية، وركب القطار الملكي إلى

القاهرة وعلي طول الطريق احتشد الإخوان وجوالتهم فى محطات السكة الحديد لتحية الملك. وعقد المؤتمر الرابع للترويج لهذا الاحتفال.

ولم تكن كل هذه الإمكانيات بعيدة عن دعم ونفوذ وتمويل على ماهر.

ويصف حسن البنا فى مذكراته نقلا عن مجلة الأخوان مسيرة ضخمة تحت عنوان «أقوي رجل فى العالم يحمل لواء الإخوان - حشد لم يسبق له نظير في تاريخ مصر الحديثة- عشرون ألفا أو يزيدون لتحية الملك»، ويقول «هذه أول مرة فى التاريخ رأيت أو سمعت أن سارية اللواء تبلغ حوالي أربعة أمتار ونصف متر، وعليهارقعة فسيحة من القطيفة الخضراء وقد رسم عليها المصحف فى نصف دائرة هلالية، وكتب فى أعلاها: الله أكبر ولله الحمد. ومن تحتها الإخوان المسلمون، وحمل هذا العلم «السيد بك نصير» بطل العالم في حمل الأثقال»(١٠) وفيما يبدو أن سيد بك نصير قد تمت إعارته للإخوان لحمل هذا الثقل الكبير لأنه لم يحدث أن شارك لا قبلها ولا بعدها في أنشطة الإخوان.

ويبقي فى هذا الصدد أن نشير أن جماعة الإخوان لدي إعادة طبع كتاب الأستاذ البنا «مذكرات الدعوة والداعية» والذي أورد فيه في طبعاته الأولي عديداً من حكايات وروايات وكتابات الولاء المفرط للملك فاروق قد حرصت علي شطب كل ما له علاقة بهذا الأمر.

وفي المؤتمر الرابع برزت لأول مرة جوالة الإخوان بزيها الكاكي لتقوم بدور قوة النظام والأمن(١٠) وبعد احتفالات ومهرجانات ومسيرات مليئة بالبهجة تجمع الإخوان عند بوابات قصر عابدين هاتفين للملك «نهبك بيعتنا وولائنا على كتاب الله وسنة رسوله»(١٢)

وعندما وقع الخلاف بين الملك حديث العهد بالحكم وبين النحاس باشا قرر النحاس أن يروع الملك، فخرجت الجماهير الوفدية إلى الشارع هاتفه «النحاس أو الثورة» و«الشعب مع النحاس» وسريعا ما يثبت البنا جدارته بالولاء الفعلي للملك فتخرج جموع الإخوان هاتفه «الله مع الملك» وتباهي الإخوان كثيرا بأن جلالة الفاروق خرج إلى شرفة القصر ست مرات ليحيى مظاهرتهم(١٣) وتقول جريدة البلاغ «أن جلالة الملك كان بالغ السعادة بشعار الله مع الملك، وكان يردد نعم.. الله معنا»(١٤)

ولعلها المرة الأولي التي تبرز فيها هذه المفارقة ، ويتواجه فيها شعاران «الشعب مع النحاس» و«الله مع الملك».

وكان هذا بالضبط ما أراده على ماهر وما أراده القصر من حسن البنا.

ولنعد إلى كتابات البنا التي مجدت الملك ومهدت السبيل لتعديه على الدستور. فهو يكتب

تحت عنوان «حامي المصحف» «لأن ٣٠٠ مليون مسلم فى العالم تهفوا أرواحهم إلى الملك الفاضل الذي يبايعهم علي أن يكون حامياً للمصحف فيبايعونه علي أن يموتوا بين يديه جنوداً للمصحف. وأكبر الظن أن الله قد اختار لهذه الهداية العامة الفاروق، فعلي بركة الله يا جلالة الملك ومن ورائك أخلص جنودك»(١٥) .. إنه يدغدغ أحلام الفتي الشاب الذي تولي العرش، ويلوح له بحلم الخلافة، بل ويمنحه هدايه عامة منحها له الله على كل المسلمين. فماذا يريد الملك أكثر من ذلك؟

بل أن الأستاذ البنا يتجاوز كل الحدود عندما يشبه الملك بالرسول (صلي الله عليه وسلم) فيوم شهد الملك فاروق الاحتفال بعيد الهجرة، قالت مجلة الإخوان أنه «أعاد صورة سالفة، صورة الرسول الكريم حينما طلع على أنصاره طلوع البدر»(١٦)

ولقد أفرط البنا في الكتابة مديحا للملك، فقد كتب تحت عنوان «ملك يدعو وشعب يجيب» – «إلى جلالة الملك الصالح فاروق الأول من الإخوان المسلمين» «يا جلالة الملك الصالح العظيم، لقد دعوت فأسمعت، وناديت فأبلغت، ونصحت فأفصحت، وإن شعبك الذي عرفك مؤمناً صالحاً تقياً، ووثق بك مجاهداً فى سبيل إسعاده وإعزازه أميناً قوياً، وأن هذا الشباب الذي ناديته فلبي، وأهبت به فاستعد، ليعلن بهذه المناسبة السعيدة عظيم إخلاصه وولائه للعرش المفدي ويترقب بفارغ الصبر يوم الخلاص وساعة الإنقاذ. يا جلالة الملك الصالح العظيم: عرف فيك شعبك المنقذ له، والحارس لدينه، والساهر علي رعاية مصالحه ، والداعي إلى الخير والفضيلة فيه بالقول والعمل فأحبك من كل قلبه، وأخلص لعرشك من قرارة نفسه وعقد على عهدك الرجاء وكنت عنده الرمز والأمل» ثم طالبه «بصدور أمر ملكي بألا يكون فى مصر المسلمة إلا ما يتفق مع الإسلام، فإن مئة ألف شاب مؤمن تقي من شباب الإخوان المسلمين فى كل ناحية من نواحي القطر، ومن ورائهم هناك الشعب كله، يعملون فى جد وهدوء ونظام ترقبون هذه الساعة ليسعدوا بالشهادة بين يديك فى سبيل الله لنصرة الإسلام.. أن الجنود على تمام الأهبة، وأن الكتائب معبأة، وقد طال بها الانتظار، واشتد شوقها إلى ميادين العمل والكفاح، فمتي تقام الصلاة، ومتي يتقدم الإمام»(١٧)

وتمتد المبالغة كما اعتاد الاستاذ البنا بلا حدود فعندما وجه الملك تحية إلى الشعب بمناسبة حلول شهر رمضان تقول مجلة «النذير» «أن الفاروق يحيي سنه الخلفاء الراشدين إذ يهنئ شعبه بحلول رمضان الكريم»(١٨)

واستمر البنا علي سياسة الولاء للملك، وبالغ في ذلك مبالغة دفعت الكثيرين لانتقاده،

وأن كان هو وأنصاره قد اعتبروا ذلك نصراً كبيراً٠

يقول المؤرخ الإخواني الأستاذ محمود عبد الحليم «إن على ماهر إتفق مع فضيلة المرشد علي أن يقوم الإخوان باستقبال الملك أمام مسجد سيدي جابر حين يذهب إليه لأداء صلاة الجمعة، وحضر مئة من الإخوان واصطفوا أمام المسجد وهم يلبسون ملابس الجوالة يتقدمهم المرشد مرتدياً هو أيضا ملابس الجوالة، وحضر الركب الملكي يتقدمه الملك وبجانبه علي ماهر فحييناه هاتفين له وللإسلام فأخذ على ماهر بيد الأستاذ المرشد وقدمه لجلالة الملك فسلم عليه الاستاذ مصافحا باحترام دون تقبيل يده٠ ورجعنا بعد صلاة الجمعة إلى معسكرنا الصيفي بالدخيلة، وكان الاستاذ البنا يشعر بالرضا النفسي لأنه أحس أنه قد خطا الخطوة الأولي التي كان علي الداعية المصلح أن يبدأ بها، وكنا نعتقد في ذلك الوقت بسذاجتنا وحسن ظننا أن الله تعالي قد اختصر لنا الطريق، واختار لنا غير ذات الشوكة، وأن هذا الشاب الذي يبدو وديعاً في مظهره، وبجانبه الرجل العاقل على ماهر لابد أنه سيتجه إتجاها إسلامياً فيسعد ويسعدنا الناس»(١٩)

وكجزء من تأييد الملك ودعم نفوذه كان هجوم البنا على الأحزاب وهو ما يعني أساسا الهجوم علي الحزب الأكبر والأخطر علي نفوذ القصر أي حزب الوفد٠٠ ونقرأ للأستاذ البنا «لقد انعقد الإجماع على أن الأحزاب المصرية هي سيئة هذا الوطن الكبرى، وهي أساس الفساد الاجتماعي الذي نصطلي بناره الآن٠ وبما أن الأحزاب هي التي تقدم الشيوخ والنواب، وهي التي تسيّر الحكم فى الحياة النيابية ، فإن من البديهي ألا يستقيم أمر الحكم وهذا حال من يسيرون دفته، وإذا كان الأمر كذلك فلا ندري ما الذي يفرض على هذا الشعب الطيب المجاهد المناضل الكريم هذه الشيع والطوائف من الناس التي تسمي نفسها الأحزاب السياسية؟ أن الأمر خطير ولا مناص بعد الآن من أن تحل هذه الأحزاب جميعا»(٢٠)

ويقول «إن الإخوان يعتقدون من قرارة نفوسهم أن مصر لا يصلحها ولا ينقذها إلا أن تحل الأحزاب كلها، وتتألف هيئة وطنية عاملة تقود الأمة إلي الفوز وفق تعاليم القرآن الكريم٠ وبهذه المناسبة أقول إن الإخوان المسلمين يعتقدون عقم فكرة الائتلاف بين الأحزاب ويعتقدون أنها مسكن لا علاج٠ والعلاج الحاسم الناجع أن تزول هذه الأحزاب مشكورة فقد أدت مهمتها وإنتهت الظروف التي أوجدتها، ولكل زمان دولة ورجال كما يقولون»٠(٢١)

وبعد مثل هذا الهجوم الضاري على الأحزاب والحياة البرلمانية يمتلك الملك الجرأة في تحدي الدستور محاولا أن يفترض لنفسه نفوذا غير وارد فى الدستور٠ فيذيع خطابا بالراديو

بمناسبة رأس السنة الهجرية معلنا فيه توليه زمام الأمور بين يديه قائلا «أن ثقتي وتوكلي على الله هو الذي يلهمني تصريف الأمور ويوجهني الوجهة الصحيحة»(٢٢)

ويرد النحاس محذراً من أي تعد على الدستور. لكن البنا يظل جاهزاً للدفاع عن الملك.

وكان الملك بدوره جاهزا لمنح البنا وجماعته المزيد من التأييد والدعم.

ويكتب السير «مايلز لامبسون» المندوب السامي البريطاني إلى وزارة خارجيته «أن القصر الملكي قد بدأ يجد فى الإخوان أداة مفيدة، وأنه أصدر بنفسه أوامر لمديري الأقاليم بعدم التدخل في أنشطة الإخوان، ولا شك أن الجماعة قد استفادت كثيرا من محاباة القصر لها كما نالت التأييد المادي والمعنوي من على ماهر»(٢٣)

* * *

ثم يتقلب البنا واحدة من تلقباته المعتادة، فما أن يصل الوفد إلى الحكم عقب حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ حتي يتحالف معه البنا صراحة. وتكتب الأهرام «استقبل مصطفي النحاس باشا رئيس الوزراء المرشد العام لجماعة الإخوان علي رأس وفد من الجمعية، وقدم الاستاذ حسن البنا لرئيس الوزراء كتابا يؤيد سياسة الوزارة، ومما قاله المرشد العام في رسالته «والواجب يقتضينا، والمصلحة تدعونا إلى أن ننفذ بإخلاص وحسن نية أحكام المعاهدة التي وقعناها بمحض اختيارنا وملئ حريتنا وقصدنا من ورائها سلامة استقلالنا»(٢٤) وأعلن البنا أيضا إنسحابه من الترشيح للبرلمان إرضاء للنحاس باشا، ويفهم الأنجليز الرسالة، فالنحاس يأتي والألمان يهزمون، ويتحول البنا، يترك على ماهر ليتحالف مع خصمه النحاس ويترك حلفه مع الألمان، ليتحالف مع عدوهم الإنجليز.

ويرضي الانجليز، ويكتب السفير البريطاني إلى وزارة خارجية «كتب رئيس الإخوان المسلمين عند انسحابه من الترشيح للبرلمان خطابا إلى رئيس الوزراء يعده بالتعاون مع الحكومة، مما يعني ضمنا الولاء للمعاهدة الانجليزية – المصرية وربما تم التوصل إلى هذه النتيجة بمزيج من الإرهاب والرشوة، ولكن قيمتها مشكوك فيها»(٢٥)

ويغضب الملك من هذا التحالف مع الوفد، ويحاول الإخوان استرضاءه ، فإذ أعاد النحاس باشا لهم مجلتهم «الإخوان المسلمون» على أن تصدر نصف شهرية وذلك بعد أن اغلقتها حكومة «حسين سري باشا»، يكتب صالح عشماوي تحت عنوان «تحية عهد وأمل» «أن قلوب المسلمين وأبصارهم لتلتقي عند رمز كريم وملك عظيم، هو أمل المسلمين فى الوحدة وفي العزة وهو

الفاروق حفظه الله ورعاه وأيده وقواه وأعز به دولة الإسلام حتي يعود علي يديه مجد الدين وعزة المسلمين»(٢٦)

لكن الملك لم يعد ترضيه مثل هذه الكلمات بينما المواقف تقف في تضاد معها٠٠

كذلك فإن النحاس باشا لم يقبل من حيث المبدأ وجود حزب سياسي يتحدث باسم الدين، فأصدر فى ستبمبر ١٩٤٢ قراراً بمنع الاجتماعات العامة للإخوان٠ واستدعي «فؤاد سراج الدين» المرشد العام، وقال له : يا شيخ حسن أنا عايز أعرف أنتم جماعة دينية أو حزب سياسي؟ احنا معندناش مانع أبداً انكم تكونوا حزب سياسي، اعلنوا علي الملأ انكم بتشتغلوا بالسياسة، وانكم كونتم حزب سياسي، ولا تتستروا بستار الدين، ولا تتخفوا في زي الدين٠ أما أن تتستروا «الله أكبر ولله الحمد» وفي نفس الوقت تقوموا بعمل سياسي وتباشروا السياسة الحزبية فهذا غير معقول، لأنه يخل بمبدأ تكافؤ الفرص بينكم وبين الأحزاب السياسية، وأنا كرجل سياسي حزبي لا استطيع أن أهاجم جماعة دينية تنادي بشعارات دينية سامية، وإلا سأكون محل استنكار من الرأي العام»٠ ويرد الشيخ البنا مستيعنا بكل قدراته علي المناورة قائلا «نحن لم نفكر فى العمل بالسياسة، ونحن رجال دين فقط ورجال فكر ديني، وإذا كان قد صدر من بعض رجالنا أو من بعض شْعبنا أي عمل يخالف هذا الخط أو يدل على اتجاه سياسي فأنا استنكره وسأوقفه عند حده فوراً»(٢٧)

وينسي البنا كل إلحاحه على ضرورة إشتغال المسلم بالسياسة٠٠ وينسي إنه قال شعراً

الدين شيء والسياسة غيره

دعوي نحاربها بكل سلاح

إنه الأسلوب المناور الذي اعتاد عليه البنا ٠

ولكنه لم يعد مجديا، فالقصر غضب٠ والألمان هزموا، والانجليز متشككون والوفد لا يبتلع مناوراته ويمارس ضغوطا عليهم٠

ويبدو الأمر وكأن أبواب المناورة قد اغلقت فى وجه الاستاذ حسن البنا ، لكنه لم يلبث أن يستغل تقلبات السياسة لصالحه٠

فحكومة الوفد ترحل٠ وحكومات الأقلية بحاجة إليه، والانجليز يفسحون صدرهم له خاصة بعد تأييده المطلق لمشرع معاهدة صدقي- بيفن٠ ولعمله الدائب لتفتيت الموج الوطني العارم٠ ورفض الإخوان الانضمام إلى اللجنة الوطنية للعمال والطلبة ، ولجوئهم من جديد إلى

التحالف فيما اسمي بالجبهة القومية مع على ماهر الذي أصبح صديقاً حميماً للانجليز. كل ذلك فتح أمامهم آفاق مناورات جديدة.

ولكن يبقي الملك، ويبحث البنا بدأب عن قناة جديدة تمده بإمكانية تواصل جديد مع القصر، ويروي أنور السادات أن الشيخ حسن البنا قد ألح عليه إلحاحاً شديداً، أن يحاول ترتيب اتصال مع الملك عن طريق يوسف رشاد، وأن يوسف رشاد قد قابل البنا بناءً على موافقة الملك، ويضيف السادات أن «يوسف رشاد قد أفهمه فيما بعد، أن عام ١٩٤٦ قد شهد رضاءً تاماً من الملك عن الشيخ البنا وأتباعه» والحقيقة أن الأستاذ حسن البنا قد استحق عن جداره بتصرفاته ومواقفه السياسية المعلنة هذا الرضاء الملكي.

وتمضي سياسة المناورة بصاحبها، يتصور بها أنه قادر على أن يتلاعب بالجميع، لكنه وبعد فترة قصيرة لا يلبث أن يدفع هو جماعته ثمناً باهظاً. ويكتشف أن الجميع كانوا يتلاعبون به إذ كان هو يتصور أنه يتلاعب بهم.

الهوامش

(١) مجلة الإخوان المسلمون ٩-٩-١٩٣٨.

وأيضا : د. عبد العظيم رمضان- تطورالحركة الوطنية- المرجع السابق- ص٣١٤.

(٢) السيد يوسف - الإخوان المسلمون، هل هي صحوة إسلامية ؟ - ج٦ - ص١٩.

(٣) حسن البنا - مذكرات الدعوة والداعية- المرجع السابق- ص٢٦٦.

(4) Michell- Ibid- p. 49.

(٥) محمود عبدالحليم - الإخوان المسلمون- المرجع السابق- ص ١٤٧.

(٦) نقلا عن : محسن محمد - من قتل حسن البنا - المرجع السابق- ص٢٠.

(٧) مجلة الإخوان المسلمون- ١٩-٥-١٩٣٦- مقال لطاهر العربي بعنوان: الناس على دين ملوكهم.

(٨) مجلة الإخوان المسلمون- ١٦-٦-١٩٣٦. مقال لطاهر العربي بعنوان «جلالة الفاروق المثل الأعلي لأمته».

(٩) المصري- ٢٢-٢-١٩٣٧. ولمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع راجع أيضا:

- د. رفعت السعيد - مصطفي النحاس، السياسي والزعيم والمناضل (١٩٧٦) ص٧٦.

(١٠) حسن البنا - المرجع السابق- ص٢٣٤.

(11) Khaddari- Ibid- p.16.

(١٢)حسن البنا - المرجع السابق- ص٢٥٢.

(١٣) الأهرام - ٢٢-١٢-١٩٣٧.

(١٤) البلاغ - ٢٢-١٢-١٩٣٧.

(١٥) مجلة الإخوان المسملون -٩-٢-١٩٣٧- مقال للأستاذ حسن البنا بعنوان «حامي المصحف».

(١٦) حسن البنا - المرجع السابق- ص٢٣٧.

(١٧) النذير- فبراير - ١٩٣٨ - مقال للأستاذ حسن البنا بعنوان : ملك يدعو وشعب يجيب.

(١٨) النذير- نوفمبر ١٩٣٨.

(١٩) محمود عبد الحليم - الإخوان المسلمون- المرجع السابق- ج١ ص ١٤٧.

(٢٠) حسن البنا - مشكلاتنا في ضوء الإسلام- ص٥٨٠

(٢١) حسن البنا - رسالة المؤتمرالخامس - ص ٥٦٠

(٢٢) مصر الفتاة- ٢٧-٣-١٩٣٩٠

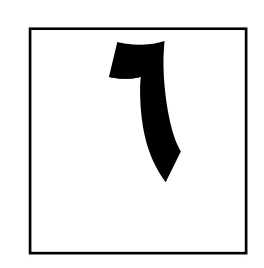
(٢٣) محسن محمد- المرجع السابق- ص٣٩٠

(٢٤) الأهرام- ٢٧ مارس- ١٩٤٢٠

(٢٥) محسن محمد - المرجع السابق٠

(٢٦) الإخوان المسلمون (نصف شهرية) - ٢٩ أغسطس ١٩٤٢- مقال للأستاذ صالح عشماوي بعنوان : «تحية عهد وأمل»٠

(٢٧) السيد يوسف - المرجع السابق- ص ٤٢٠



من المصحف ..

إلى الديناميــت

«خطوتنا الثانية.. أيها الإخوان تجهزوا»

تحت هذا العنوان كتب البنا افتتاحية العدد الأول لمجلة «النذير» وفيها يقول «أن الله يزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن» وقال أنه سوف يتوجه بدعوته إلى كل المسئولين فإن أجابوا آزرهم، وإن لجأوا إلى المواربة والمراوغات «فنحن حرب على كل زعيم أو رئيس حزب أو هيئة لا تقوم على نصرة الإسلام، ولا تسير في الطرق إلى استعادة حكم الإسلام ومجد الإسلام»(١)

ولقد رأينا كيف دعا الشيخ أيضاً إلى «الجهاد»، وكيف جعله الفيصل الذي يميز بين جماعته وبين الجماعات الإسلامية الأخرى. وهكذا بدأ البنا رحلة شيخ مسلح نحو العمل السياسي.

وكان البنا يلح ويلح علي هذه المسألة ابتداء من عام ١٩٣٨ ويكثر من الحديث عنها نثراً وشعراً.

الدين شيء والسياسة غيره

دعوي نحاربها بكل سلاح

قد جاء طه عابداً ومجاهداً

دك الحصون وقص كل جناح(٢)

والسكرتير العام للجماعة عبد الحكيم عابدين يبدو أكثر من شيخه حماساً في شعره عن السياسة المسلحة.

لنجرينها دماء جد ثائرة

وثورة الحق لا يدري لها أمد

أو يرجع الشرع دستوراً لأمتنا

فليحذر القوم أني منذر صعد(٣)

ولقد قلنا فيما سبق أن عام ١٩٣٨ كان البداية لمرحلة التنفيذ التي تلي في نظر الشيخ

مرحلتين سابقتين هما:

● التعريف «والدعوة عامة في هذا الطور، وليست الطاعة التامة لازمة فيها، نظام الدعوة فى هذا الطور نظام الجمعيات الخيرية»٠

● والتكوين عن طريق استخلاص العناصر الصالحة لحمل أعباء الجهاد، و«نظام الدعوة فى هذا الطور صوفي بحت من الناحية الروحية وعسكري بحت من الناحية العملية»٠ ونلاحظ «عسكري بحت»٠

● أما التنفيذ: فهو المرحلة الثالثة، و«الدعوة في هذا الطورجهاد وعمل متواصلين وامتحان وابتلاء»(٤)٠

الجهاد يبدأ، والدعوة لا ترفع أعلامها فحسب وإنما تقترب من التنفيذ٠٠ لكن كيف؟

وقبل أن نسأل كيف ؟ نسأل لماذا؟ أو بالدقة نسأل ما هو جوهر الجهاد عند الشيخ البنا وكيف فهمه هو، وكيف أفهمه لاتباعه؟

تنبع الفكرة من تقسيم أولي، فقد قسم الشيخ البنا المسلمين إلى أربعة أقسام: مؤمن- متردد- نفعي - متحامل(٥)٠

والمفهوم العلمي لمثل هذا التقسيم هو كما يقول ريتشارد ميتشل «أنه وفقاً لهذه النظرية فإنه ليس أمام أي مصري إلا أن يضع نفسه في أحد موضعين ، فإما أن يكون عدواً للإخوان وإما يكون «مؤمنا» أي أن يكون أخاً مسلماً»(٦)

وانطلاقاً من هذا التقسيم تكون جماعة الإخوان المسلمين هي ملتقي أو مصب المؤمنين، أي تكون بالمعني الإسلامي التقليدي «جماعة المسلمين» وإمامها هو إمام أهل الحل والعقد فى الإسلام، والخروج علي الإمام وعلي الجماعة هو خروج علي «جماعة المسلمين» أي خروج على الإسلام ذاته٠ ولهذا فإن الشيخ البنا كان منذ الأيام الأولى لجماعته يرى أن أي معارض له من «الخوارج» ثم و«اضربوه بالسيف»٠

ولكن كيف فهم الإخوان فكرة الجهاد؟

«الجهاد هو بذل كل جهد ممكن لاقتلاع جذور الطغيان والفساد فى الأرض، ولن يقدر الإنسان علي اقتلاع الطغيان والفساد من حوله، إذا كان الطغيان والفساد يعيشان داخل نفسه، ومن هنا أمر المسلم أن يبدأ بجهاد النوازع في نفسه، ثم يثني بمجاهدة الطغيان والفساد فى مجتمعه، ثم ينتهي إلى مجاهدة الطغيان والفساد فى العالم كله، والمسلم لم يؤمر بمطلق جهاد

يلقي به التبعة عن كاهله، وإنما أمر بالجهاد فى الله حق الجهاد، والجهاد فى الله حق الجهاد يقتضي من المسلم أن يكون دائما على أهبة العمل والبذل فإن طلب دينه منه الجهد بذله، أو المال أنفقه، أو النفس قدمها مطمئنا. المسلم جندي للحق، مجهز النفس دائما إن لم يكن مجهز اليد. وهو إن يعش فى الجهاد عملا وتنفيذاً عاش الجهاد نية وقصداً. والذي يعيش لنفسه ولدنياه بعيداً عن الجهاد- عملا ونية- إنما هو المنافق الذي آمن لسانه ولم يؤمن قلبه، ليس بمسلم صادق الإسلام ذلك الذي يثاقل إلى الأرض، ويخلد إلى الراحة والدعة ويؤثر سلامة دنياه علي سلامة دينه»(٧)

أما الشيخ البنا فهو يوجه حديثه إلى أتباعه قائلاً: «أيها الإخوان المسلمون، لقد قام هذا الدين بجهاد أسلافكم علي دعائم قوية من الإيمان بالله، والزهادة في متعة الحياة الفانية وإيثار دار الخلود، والتضحية بالدم والروح والمال في سبيل مناصرة الحق وحب الموت في سبيل الله»(٨).

ويقول في رسالته «نحو النور»: «وتحتاج كذلك الأمم الناهضة إلى القوة وطبع أبنائها بطابع الجندية ولا سيما فى هذه العصور التي لا يضمن فيها السلم إلا بالاستعداد للحرب، والتي صار شعار أبنائها جميعاً القوة أضمن طريق لإحقاق الحق. والإسلام لم يغفل هذه الناحية، بل جعلها فريضة محكمة من فرائضه، ولم يفرق بينها وبين الصلاة والصوم في شئ. وليس في الدنيا كلها نظام عني بهذه الناحية، لا فى القديم ولا في الحديث كما عني بذلك الإسلام في القرآن وفي حديث رسول الله صلي الله عليه وسلم وسيرته»(٩).

ويستند الشيخ البنا في دعوته إلى «الجهاد» بالمفهوم الذي وضعه موضع التنفيذ، إلى فهم نصي ومغلوط لعدد من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة مثل :

● «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم». وقوله تعالي «كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسي أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسي أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم».

والآية الكريمة «فليقاتل في سبيل الله الذين يشترون الحياة الدنيا بالآخرة».

والحديث الشريف والذي نفسي بيده لولا أن رجالاً من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني ولا أجد ما أحملهم عليه ما تخلفت عن سرية تغزو في سبيل الله، والذي نفسي بيده لوددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل» رواه البخاري ومسلم.

وعن أبي هريرة أن رسول الله قال : «من لقي الله بغير أثر من جهاد لقي الله وفيه ثلمه» رواه الترمذي وابن ماجة.

وحدث شريف آخر «من مات ولم يغز، ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق» رواه مسلم.

لكن الدعاة إلى صحيح الدين وإلى فهمه فهما يستند إلى أسباب النزول للآيات المحددة، وليس إلى المفهوم النصي للكلمات والحروف، وهو الفهم الأمثل الذي أخذ به أغلب الفقهاء الثقاة، وأغلب الصحابة والذي عبر عنه علي بن أبي طالب عندما قال «القرآن لا ينطق وهو مكتوب وإنما ينطق به البشر وهو حمال أوجه». لديهم هم أيضا رصيدهم، وهم يذكرونه دوماً بأنه يستخدم العنف ضد مسلمين لا يقلل اختلافهم فى الرأي معه ومع جماعته من درجة إسلامهم.

ويردون على حجج الشيخ بالآية الكريمة «فذكر إنما أنت مذكر، لست عليهم بمسيطر».

وبالآية الكريمة «وليس عليك هداهم، ولكن الله يهدي من يشاء». والحديث موجه إلى رسول الله، وله أيضاً وجهت الآية الكريمة «أفأنت تكره الناس حتي يكونوا مؤمنين».

وله أيضا «إدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين».

ويقول الله تعالي معلماً المسلمين «ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن».

وحتي مع الطغاة والكفار «اذهبا إلى فرعون إنه طغي، فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشي».

وأحاديث شريفة كثيرة «لا تروعوا المسلم فإن روعة المسلم ظلم عظيم».

وحديث شريف آخر «من أخاف مؤمناً كان علي الله ألا يؤمنه من إفزاع يوم القيامة».

وحديث شريف ثالث «لا يشر أحدكم إلى أخيه بسلاح، فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزع في يده، فيقع فى حفرة من النار».

ويقول الفخر الرازي في تفسيره، أن مسلمي مكة استأذنوا الرسول (صلي الله عليه وسلم) فى أن يغتالوا سراً عدداً من المشركين الذين أمعنوا في إيقاع الأذي بالإسلام والمسلمين فنهاهم الرسول قائلاً «الإيمان قيد الفتك، لا يفتك مؤمن» ثم نزلت الآية الكريمة مصدقة لهذا الموقف «أن الله يدافع عن الذين آمنوا، أن الله لا يحب كل خوان كفور» (الحج- ٣٨)(١٠)

ومن هنا فإن الآية الكريمة والحديث الشريف يشكلان موقفاً شرعياً واضحاً ومتكاملاً

يرفض الاغتيال وكل أشكال القتل غيلة للخصوم، مهما كانت خصومتهم مع المسلمين «ويتماشي هذا الموقف مع قيم الفروسية التي ترسخت لزمن طويل منذ الجاهلية وحتي الإسلام، والتي تتمسك بالقتال وجها لوجه، ولا تقر ملاحقة الهارب، وكان الفارس الجاهلي إذا قابل خصماً صاح به قبل أن يهاجمه : خذ حذرك إني قاتلك»(١١)

وآيات كريمة عديدة وأحاديث شريفة كثيرة، وتفسيرات ومواقف فقهية تبرئ الإسلام من تهمة الإرهاب والاغتيالات والفتك بالخصوم، ومع ذلك يأبي الأستاذ البنا إلا أن يمضي في طريق الإرهاب السياسي سائراً فوق الشوك هو وجماعته.

ويختتم البنا «رسالة الجهاد» موجها حديثه إلى أتباعه «أيها الإخوان إن الأمة التي تحسن صناعة الموت وتعرف كيف تموت الموتة الشريفة يهب لها الله الحياة العزيزة والنعيم الخالد فى الآخرة، وما الوهن الذي أذلنا إلا حب الدنيا وكراهية الموت، فأعدوا أنفسكم لعمل عظيم وإحرصوا على الموت توهب لكم الحياة، وأعلموا أن الموت لابد منه وأنه لا يكون إلا مرة واحدة، فإن جعلتموها في سبيل الله كان ذلك ربح الدنيا وثواب الأخرة، فأعملوا للموتة الكريمة تظفروا بالسعادة الكاملة. رزقنا الله وإياكم كرامة الاستشهاد في سبيله»(١٢)

وبعد.. فهذه هي نظرية الشيخ في الجهاد فكيف كان مساره؟ وإلام انتهي؟

* * *

كانت الجوالة هي البداية الحقيقية.

ولقد بذل البنا من جهده وإهتمامه الكثير من أجل دعم الجوالة والكشافة، والحقيقة أن الهدف الأساسي للجوالة لم يكن مجرد تكوين أداة ردع منظمة علي أساس عسكري وانضباط صارم، وإنما كانت الجوالة أيضاً «حقلا» تتابع فيه أعين المرشد اليقظة العناصر الأكثر حماساً والأكثر إخلاصاً والأكثر طاعة وتلتقطها لتودعها في نواة خاصة.

وقد استخدم البنا «جوالته» كما رأينا فى مظاهرات صاخبة، كثيراً ما هتفت بحياة الملك، واستخدمها أيضاً فى حراسة تجولاته ومؤتمرات واجتماعاته، واستخدمها لإرهاب الخصوم السياسيين بالقوة البدنية في أول الأمر، ثم بالرصاص والقنابل بعد ذلك، الأمر الذي دفع حزب الوفد إلى توجيه إنذار إلى حكومة صدقي فى عام ١٩٤٦ بأنها ما لم «تحل هذه التنظيمات الشبه عسكرية فإنه سوف يأخذ القضية بين يديه ويعرف كيف يسكت دعاة العنف والشغب».

والغريب في الأمر أن وجود الجوالة كان في ذاته أمراً منافياً للقانون، ففي ٨ مارس ١٩٣٨ أصدرت حكومة محمد محمود باشا قانوناً يحظر قيام «الجمعيات أو الجماعات التي يكون لها سواء من حيث تأليفها أو عملها أو من حيث تدريب أعضائها أو نظامها أو زيهم أو تجهيزهم صورة التشكيلات شبه العسكر ية»(١٣)٠ أي «أن جوالة الإخوان كانت ضد القانون العام والخاص على السواء، ومع ذلك سمح ببقاء هذا الجيش حتي فى وقت الحرب، وفي الوقت الذي طبق فيه هذا القانون علي فرق القمصان الزرق (الوفد) وفرق القمصان الخضر (مصر الفتاة)(١٤)

ولعل هذا يفسر حرص الشيخ البنا على استخدام الجوالة استخداماً سافراً لصالح السراي والقوي الحاكمة، إذ بدون إشعار السلطة أن الجوالة في خدمتها٠٠ تكون هذه الفرق عرضة للإلغاء وفقاً للقانون٠

ويتساءل أحمد حسين في مرافعته في قضية اغتيال النقراشي باشا وهو علي حق تماماً «عن السر الذي جاز به لدي الحكومة والبوليس أن يكون لجماعة الإخوان هذا الجيش من الجوالة» ويجيب بأن «حكومات الأقلية هي من شجع على تكوين هذا الجيش، وقام بتمويله، باعتباره سلاحاً ضد الوفد الذي يريدون القضاء عليه بأي ثمن، ولو بالخروج على كل قانون وكل مألوف»٠ ويمضي أحمد حسين في مرافعته متهماً السلطات بأنها هي التي «أسلمت هؤلاء الشباب لهذه التنظيمات، ولهذه المظاهرات العسكرية التي زاد من روعتها أنها تجري باسم الدين»(١٥)

ولعله من المفيد والطريف أن نمضي مع أحمد حسين في مرافعته التي يسجل فيها أن وزارة الشئون الاجتماعية كانت تقدم إعانات مالية لشعب جماعة الإخوان المسلمين بحجة أنها تقوم بنشاط اجتماعي، وأن الشيخ البنا قد عين في «لجنة التعليم العليا الحكومية»، وأن مجالس المديريات والبلديات كانت تسارع فى كل مكان إلى مساعدتها، ثم يروي واقعة غريبة٠٠ «وحدث مرة في قسم الخليفة أن منع مأمور القسم رشيد الغمراوي جوالة الإخوان من السير في منطقته واصطدم بهم تنفيذا للتعليمات التي كانت لديه بمنع حصول أي تجمع، ولكن السلطات عاتبت المأمور على موقفه، وسمحت لجوالة الإخوان بإقامة حفل ضخم أمام مبني قسم الخليفة كمظهر للانتصار وفرض السلطان٠ وعندما حلت الجماعة عام ١٩٤٨، وجد بين الأوراق المضبوطة في دورها إخطار موجه من إحدى شعبها (شعبة المحجر) إلى المرشد العام عن إزماعها عقد اجتماع لها كل خميس ومطالبتها المرشد باتخاذ الإجراءات الكفيلة بحرية انعقاد الاجتماع، وقد أشر المرشد علي الورقة «بإخطار المحافظة وبوليس قسم الخليفة باعتماد شعبة

المحجر كي لا يتعرض أحد لاجتماعها» ويعلق أحمدحسين بأن هذه التأشيرة أشبه ما تكون بتأشيرة وزير الداخلية لا رئيس جمعية»(١٦)

ويشير أحد قادة الجماعة إلى أن البنا قد كون مجلساً أعلي للجوالة من سبعة أعضاء برئاسته وعين الصاغ محمود لبيب مفتشاً عاماً، وبدأ المجلس نشاطه بإنشاء مدرسة للمدربين تخرج منها ٣٥ مدربا بعد شهرين، ثم انطلق هؤلاء المدربون يشكلون الجماعات ويدربونها، وعند نهاية الحرب بلغ تعداد الجوالة ٤٥ر٠٠٠ جوال(١٧)

وما يهمنا فى هذا الصدد هو أن البنا قد اهتم بالجوالة أساساً لأنها كانت حقلا يلتقط منه رجال تنظيمه السري، ونتوقف عند اعتراف بالغ الأهمية من عبد المجيد حسن- قاتل النقراشي باشا- أدلي به أثناء التحقيق إذ قال «أن انتقاله من نظام الجوالة بالإخوان إلى النظام الخاص قد تم دون أن يحس تغييراً طرأ علي وضعه لاتفاق النظامين فى التدريبات وأسلوب التعامل والعلاقات داخل التنظيم»(١٨)

وتلك هي القضية الأساسية.. الجوالة كانت مجرد وعاء أو مرحلة أو مصفاة تقود الأخ الأكثر انضباطا والأكثر طاعة والأكثر حماساً.. إلى ما أسمي النظام الخاص.

* * *

ومنذ أن بدأت مرحلة التنفيذ والشيخ البنا يرقب الجيش باهتمام بالغ ويبذل جهده في التقاط أكبر عدد ممكن من الضباط وضمهم إلى صفوف تنظيم سري فى جماعته.

وإمعاناً في السرية كان الشيخ يمسك بيده زمام هذا الأمر.

وبدأت كوادر الجماعة في التقاط مجموعات من الضباط وتقديمهم واحداً واحداً وفي سرية تامة للمرشد.

«وفي هذا الوقت كان الشاب جمال عبدالناصر يقوم بأول أول ارتباطاته السياسية مع شاب أزهري يكبره في السن بسبع أو ثماني سنوات هو أحمد حسن الباقوري (عضو جماعة الإخوان المسلمين)»(١٩).

ومجدي حسنين يقول «كنت حتي ١٩٥٠ معروفاً بميولي للإخوان، وليس بميولي فقط، بل كنت على علاقة وثيقة بالمرحوم حسن البنا، وكنت أدرب أعداداً كبيرة من الإخوان» (٢٠)

وكذلك حسن إبراهيم الذي يقول «كما قمنا بالاتصال مع الإخوان المسلمين من خلال الصاغ المتقاعد محمود لبيب وكان المرحوم حسن البنا يلتقي بنا» (٢٠)

وخالد محيي الدين كان على علاقة لفترة من الوقت بالشيخ حسن البنا٠٠ ويورد أحد الباحثين قائمة بأسماء أعضاء مجلس قيادة ثورة يوليو ١٩٥٢ وانتماءاتهم السياسية فيحدد الانتماءات التالية :

- عبد الحكيم عامر : إخوان مسلمين٠
- كمال الدين حسين : إخوان مسلمين٠
- جمال عبد الاصر : الوفد- إخوان مسلمين
- أنور السادات - مصر الفتاة - الإخوان المسلمين (٢٢)

ولفترة من الوقت كان أنور السادات ذا علاقة وثيقة بشكل خاص مع الشيخ البنا وقد تحدث عنها تفصيلاً فى كتابه «صفحات مجهولة»٠

كذلك كان رشاد مهنا وحسين الشافعي على علاقة بالإخوان(٢٣)٠

ويقول أحد الكتاب أن جمال عبدالناصر قد سئل في أحد الاجتماعات التمهيدية للضباط الأحرار «هل نتوقع من الإخوان خيراً؟» وأجاب عبد الناصر نعم خير كثير»(٢٤)٠

ويروى خالد محيي الدين في حديث شخصي معه أن الضباط كانوا يلحقون مباشرة بتشكيل سري خاص وأن مراسم انضمامهم كانت توحي بالسرية المطلقة حيث تتم البيعة في غرفة مظلمة ويقسم الضباط على مصحف ومسدس٠

وبعد فترة من الوقت تباعد أكثر هؤلاء الضباط الذين لم يجدوا فى حركة الإخوان تحقيقاً لطموحهم الوطني، وكان تباعدهم في فترة اللقاء السافر بين الجماعة والرجعية والسراي فى عامي ١٩٤٦-١٩٤٧٠

لكن الجماعة استطاعت أن تحتفظ في صفوفها بعدد وإن محدود من الضباط مستفيدة من حماس البعض منهم للحرب في فلسطين، ومن موقفها إزاء هذه الحرب، وهكذا استطاع الشيخ البنا أن يوجد لنفسه ركيزة لا بأس بها في صفوف الجيش، وثمة أسماء بارزة في هذا الصدد مثل عبد المنعم عبد الرءوف وأبو المكارم عبد الحي ومعروف الحضري(٢٥)٠

وإذا كان أحمد حمروش يؤكد فى كتابه «قصة ثورة ٢٣ يوليو» أن كثيراً من الضباط قد انفضوا عن الجماعة إبان حرب فلسطين بسبب تدخل القيادة السياسية للجماعة في التكتيكات

الفنية قتالياً، ضارباً لذلك مثلا بالشيخ محمد فرغلي الذي كان قائداً لمتطوعي الإخوان فى حرب فلسطين، والذي صمم على أن يهجم الإخوان على أعدائهم متراصين سنة عن رسول الله، الأمر الذي أوقع فيهم خسائر فادحة، والذي دفع عددا من الضباط إلى التمرد على تعليمات الجماعة والانفضاض عنها(٢٦)، فإن باحثا آخر يقول : أن دور الإخوان فى حرب فلسطين كان سبباً في تقاربهم أكثر فأكثر من مجموعات أوسع من الضباط(٢٧)٠

والحقيقة أن الجهاز السري كان مكوناً من شعبتين منفصلتين تماماً، الجهاز المدني ويسمي النظام الخاص، وجهاز الجيش والبوليس ويسمي قسم الوحدات٠ وكان رئيس كل تشكيل يتصل بالمرشد العام مباشرة٠ وتنبع أهمية تشكيل الجيش من أنه كان يكفل للجهاز السري المدني إمدادات الذخيرة والأسلحة والتدريب ٠ وأنه كان النواة التي يؤمل بها البنا الوثوب إلى السلطة يوما ما، والغريب أن السلطات قد أغمضت عينيها أيضاً عن نشاط الإخوان في الجيش، فأنور السادات يلتقي لأول مرة بالشيخ حسن البنا عندما حضر البنا إلى أحد معسكرات الجيش ليحضر احتفالاً بذكري المولد وألقى فيه خطاباً ضافياً جذب أنظار الضباط (٢٩)

ويضيف السماح للبنا بالنشاط المكشوف في صفوف الجيش علامة استفهام كبيرة؟

والسؤال هو : ماذا كان يريد البنا من هذا النشاط المكثف في صفوف الجيش؟

والحقيقة أن هذا السؤال، قد وجه في اجتماع سري عقد في جزيرة الشاي وحضره ضابطان أحدهما جمال عبد الناصر والآخر الصاغ محمود لبيب المستشار العسكري للمرشد العام، ووجه جمال عبد الناصر السؤال وأجابه محمود لبيب «علينا أن نبدأ في تكوين مجموعات من الضباط ذوي الإيمان والعقيدة، وعندما يحين الحين نبرز جميعاً في صف واحد لنتصدي لعدونا ونمنعه من محاربة دعوتنا»(٣٠)

* * *

لكن ذلك كله يصب ويتجه نحو ما هو أهم : «النظام الخاص» الذي اشتهر باسم «الجهاز السري»٠ برغم أن الكثير من الباحثين لا يوردون تحديداً زمنياً لقيام هذا الجهاز، الذي قام ونشأ ونشط فى سرية تامة حتي عن قيادات الجماعة ذاتها، وبرغم أن المنشقين الأول من صفوف الجماعة في الإسماعلية عام ١٩٣٠ قد أتهموا البنا فيما اتهموه بأنه يقوم «بأعمال سرية»(٣١) ٠ وبرغم أن المؤتمر الثالث للجماعة الذي عقد في ١٩٣٥ قد حدد مراتب العضوية

بالأخ المساعد، والأخ المنتسب الأخ العامل ثم الأخ المجاهد.. وأن الأخ المجاهد لم يحدد له موقع على الخريطة التنظيمية العلنية للجماعة، بما يوحي أن «المجاهدين» قد نظموا في الجهاز الخاص. إلا أن أكثر الباحثين يرجحون أن النظام الخاص قد تكون في أعقاب المحنة الأولى في وقت ما بين عام ١٩٤٢ و١٩٤٣(٣٢). ولكن الشئ المؤكد أن «الجهاز الخاص» لم ينشأ من فراغ فلابد أن الشيخ الذي تابع في حرص بالغ إعداد شباب الجماعة عقائدياً وتربوياً ورياضياً وعسكرياً، والذي حدد مرتبة فى الهيكل التنظيمي منذ عام ١٩٣٥ هي «الأخ المجاهد» ، والذي أقام نظامي الكتائب والجوالة، والذي أعلن للإخوان أنهم : سيخاصمون هؤلاء جميعاً -(أي كل الساسة المصريين).. أقول لابد أنه كان وعلي أمد طويل يلتقط من هنا ومن هناك النماذج التي يريدها لجهازه الخاص.

والحقيقة أن البنا كان حريصا علي «السرية» التامة في تحركاته هذه، وكان يعتقد أن الدعوة يتعين عليها أن تتحقق بالسرية حفاظاً على صمودها وضماناً لاستمرارها(٣٣). وقد رأينا كيف هدد البنا المنشقين عنه في عام ١٩٣٨ وتوعدهم إذا ما أفشوا «أسرار» الجماعة.

ويلاحظ أن نشأة «النظام الخاص» قد صاحبها إحداث تغييرات جذرية في الهيكل التنظيمي للجماعة، الذي تقرر أن يسير في ثلاثة خطوط متوازية كل منها له أسلوبه وقواته ومنهاجه وقيادته.

- نظام الأسر ويضم الأعضاء العاديين وهو الوعاء الأساسي لعضوية الجماعة.
- نظام الجوالة ويضم الأعضاء الأكثر حماساً والأكثر استجابة والأكثر طاعة.
- النظام الخاص وهو جهاز سري مطلق السرية يتكون من شعبتين التشكيل المدني وقسم الوحدات.

ويتبع الجهاز السري عدد من التشكيلات المتخصصة مثل «جهاز التسليح» و«جهاز الأخبار» ويعتبر الأخير بمثابة جهاز المخابرات الخاص للجماعة، وقد استخدم فى الفترة الأولي للتسلل إلى صفوف التنظيمات الشيوعية وجمع أكبر قدر من المعلومات عنها.(٣٤)

وقد وضع البنا واحداً من أخلص خلصائه علي رأس هذا الجهاز هو «عبد الرحمن السندي»، وكان محمود عبد الحليم قد تولي رئاسة الجهاز في البداية ثم تنحي عنها.

وينقسم «النظام» إلى «جماعات»، الجماعة مكونة من خمسة أشخاص، والشعبة المهمة بها عدة جماعات وكل جماعة يرأسها مسئول وتتدرج على نظام هرمي يرأسه عبد الرحمن السندي، ومعظم هذا النظام في القاهرة، وقد توجد مراكز أو مناطق إدارية تخلو من هذا النظام مثل

أسوان، وذلك لأنها بعيدة ولا يتيسر لها فهم أغراضه(٣٥)

ويتدرب أعضاء الجهاز تدريباً عسكرياً قاسياً وعنيفاً ويعتادون الطاعة التامة والاستعداد للتضحية، «وبعد أن ينتهي التدريب يقسم العضو يمين البيعة : اقسم بالله العظيم أن أكون حارساً أميناً لمبادئ الإخوان مجاهداً فى سبيل الله علي السمع والطاعة في المعروف، وأن أجاهد نفسي ما استطعت»(٣٦)

وفي المراحل الأولي كان قسم البيعة يتم وفق مراسم خاصة (في حجرة شبه مظلمة مفروشة بالحصير ويتم القسم على مصحف ومسدس) وكان يكتسب «مذاقاً» خاصاً إذ كان يتم عادة بين يدي الشيخ البنا نفسه.

ويتباهي أحد قادة الجهاز السري «هنداوي دوير» «أنا أقسمت لحسن البنا شخصيا»(٣٧)

وقد منح البنا جهازه الخاص دفعة قوية واهتماماً زائداً في أعقاب خروج د. إبراهيم حسن والسكري وأتباعهما على الجماعة وتصاعد هجماتهم على ديكتاتورية المرشد واستبداده وحده بالرأي، ولعله بذلك قد أحس بحاجته إلى جهاز محكم التصميم يتغلغل به نفوذه الشخصي في كل أنحاء الجماعة، ولعل الجهاز كما أشار الكثيرون كان أيضا لردع المعارضين في الداخل كما كان أداة لحماية الدعوة وإرهاب خصومها(٣٨)

وكان عضو الجهاز السري يربي تربية خاصة، وتتم الهيمنة عليه عقائدياً بحيث تسيطر عليه فكرة «الجهاد» و«الشهادة في سبيل الله» وقد حرص البنا دوما على أن يربط بين فكرة الجهاد وفكرة الموت في سبيل الله. معلناً أن النهاية المثلي- والتي لا يوجد أفضل منها- هي الاستشهاد. ولعل المتابعة الدقيقة لكتابات الشيخ البنا تلاحظ استخدامه تعبيرات غريبة في هذا الصدد.

ففي عام ١٩٣٧ كتب البنا مقالاً عن الجهاد أسماه «صناعة الموت»، وفي أوج نشاط الجهاز السري وقوته أعاد البنا نشر المقال بعد أن غير العنوان ليصبح أكثر غرابة «فن الموت»(٣٩)

وهكذا، وبعد أن يتقن عضو الجهاز السري «فن الموت»، يتقدم للعمل، فيقول «محمود عبد اللطيف»، أثناء محاكمته بتهمة محاولة اغتيال «جمال عبد الناصر».

« - المدعي : فهمت إيه الفكرة من النظام السرى؟

- المتهم : الفكرة هي الجهاد في سبيل الله ودراسة القرآن والسيرة.. ده اللي فهمته.

- المدعي : الغرض منه إيه؟

- المتهم: الغرض منه محاربة أعداء الدعوة الإسلامية.

- المدعي : ما تعرفش الخطة، أنت رايح تقتل الرئيس مفكرتش تعمل إيه علشان تهرب؟

- المتهم : لا مفكرتش. وهنداوي قال لي الحرس بعد كده سيطلق عليك النار وتموت.

- المدعي : كنت عارف أنك رايح تموت؟

- المتهم : أيوه.

- المدعي : مفكرتش في طريقة للهرب؟

- المتهم : «لا»(٤٠)

ويلاحظ أيضاً أن الشيخ البنا قد بدأ علي أثر تكوين الجهاز السري في إعداد بناء فكري متكامل يضع عضو الجهاز السري وجهاً لوجه أمام ما أسمي «بمشروعية الجهاد» التي تفرض على المسلم أن يقاتل كل من يعترض سبيل الدعوة، وكانت قمة نجاح البنا كداعية وكمنظم أنه قد استطاع أن يغرس في نفوس أعضاء هذا الجهاز أن الموت في سبيل الدعوة سهل وبسيط ومرغوب فيه، وأن المؤمن المجاهد يخطو خطوة رائعة واحدة تنقله من حياة فانية إلى حياة باقية ينعم فيها بالجنة التي وعد بها الشهداء..(٤١)

وأعد البنا البرنامج الدراسي الجديد لإخوان الأسر وفقاً لهذه الفكرة وفي إطارها، كذلك كانت الاحتفالات الإسلامية مثل ذكري «غزوة بدر» وغيرها، مناسبات هامة لتكريس هذه الفكرة وغرسها باستمرار في نفوس أعضاء الجماعة، وكان البنا يلح دائماً على إقناع أعضاء الجهاز السري بأنهم «جند الرحمن وحماة دينه» وأن علي أكتافهم «وحدهم» سيكون خلاص الوطن الإسلامي والعقيدة الإسلامية، أليسوا هم «جماعة المسلمين» و«أهل الحل والعقد في الإسلام».

هكذا تكون الجهاز، وبهذه المنطلقات تواجد واتسع ليصبح فى عام ١٩٤٨ مكوناً من حوالي ١٠٠٠ عضو (٤٣) منظمين تنظيماً غاية فى الدقة، مسلحين تسليحاً عالي الكفاءة، مدربين تدريباً جاداً، وفوق هذا وذاك على استعداد تام للموت في سبيل الدعوة وفي سبيل أداء ما يؤمرون به من مرشدهم.

ألم يقسموا له يمين الولاء؟ ألم يبايعوه علي الطاعة التامة في المنشط والمكرة؟

وإذا كان النظام الخاص سرياً، فقد ظل سرياً حتي بالنسبة لقيادة الجماعة ذاتها. يقول أحد قادة الجهاز إبراهيم الطيب فى اعترافاته أمام المحكمة «مكتب الإرشاد لم يكن يتعرض لمثل

هذه المسائل (النظام الخاص) لأنها كانت تفهم علي أساس المعمول به فى أيام الشيخ حسن البنا فكان ليس له (مكتب الإرشاد) أن يتدخل في المسائل التي تعتبر مش من اختصاصه»(٤٣).

بل إن الكثيرين من هؤلاء القادة لم يكونوا يعلمون أصلاً بأمر وجود مثل هذا الجهاز إلا بعد أن نشأ بفترة طويلة. ويستفيد الدكتور خميس حميدة وكيل جماعة الإخوان فى اعترافاته أمام المحكمة من هذه الحقيقة فيزعم:

- المدعي : إيه مركزك فى الجماعة؟

- الشاهد: وكيل الإخوان المسلمين.

- المدعي : إيه معلوماتك عن النظام الخاص؟

- الشاهد: أيوه يا افندم دخلنا الإخوان المسلمين حوالي سنة ١٩٣٩- ١٩٤٠ وبعد فترة لغاية سنة ١٩٤٦ فهمت من الأستاذ حسن البنا أن هناك شباباً من الإخوان يتدربون على السلاح.

وحيث أن التدريب لا يبيحه القانون فكانوا يأخذون بعض فى أماكن بعيدة في قري الصعيد أو في المقطم ويتدربون، وهناك يجيلهم بعض ناس يفهموا فى هذه الأمور ويدربوهم سراً»(٤٤)

ولأننا اعتدنا على إن الإخوان قيادة وقاعدة يقولون عند كل مأزق بغير الحقيقة، فإننا لا ندهش إذ نكتشف أن د. خميس حميدة كان يحاول أمام المحكمة أن ينفذ بجلده شخصياً وعلي حساب الحقيقة.

«فالأستاذ محمود الصباغ أحد مؤسسي «النظام الخاص» يقول إن قادة «النظام الخاص» كانوا عشرة، خمسة من قيادة «النظام» وخمسة من قيادة «الجماعة» والخمسة الممثلون لقيادة الجماعة، بل لكبار قادتها هم «صالح عشماوى»- د. محمد خميس حميدة- الشيخ محمد فرغلي- د. عبد العزيز كامل- د. محمود عساف»(٤٥)

كذلك كان د. خميس حميدة واحداً من اللجنة التي حاكمت (رقم ١) فى الجهاز السري لأنه أمر بتنفيذ عملية اغتيال المستشار «الخازندار» دون إذن من المرشد (٤٦)

والحقيقة أن الإخوان جميعاً قد اتخذوا من موضوع «النظام الخاص» موقف الإنكار لمجرد وجوده، وظل الاستاذ حسن البنا ينفي دوماً مجرد وجود هذا الجهاز، ونقدم بعضا من

أمثلة ، مؤكدين أنها مجرد قطرات من بحر لا ينفذ من الأكاذيب- فعندما صدر قرار حل الجماعة فى ٨-١٢-١٩٤٨ أرفقت به مذكرة تفسيرية، تضمنت بضعا من الاتهامات ضد الجهاز الإرهابي للجماعة، ورد عليها الأستاذ البنا فى كتيب أسمي «قول فصل»٠٠ وسنقارن ما قاله البنا بما قاله فيما بعد بعضا من تلاميذه بحثا عن مدي الصدق فى تراث هذه الجماعة٠

● جاء فى المذكرة التفسيرية «كما وقعت بتاريخ ٢٤ ديسمبر ١٩٤٦ حوادث إلغاء قنابل انفجرت في عدة أماكن وضبط من مرتكبيها إثنان من هذه الجماعة، وأدين أحدهما»(٤٧)

ويرد حسن البنا على هذا الاتهام قائلاً «والشخص الذي أدين بمناسبة حوادث ٢٤ ديسمبر ١٩٤٦، لم يثبت أنه أمر بهذا من قبل الإخوان أو اشترك معه أحد منهم فتحميل الهيئة تبعة هذا التصرف لا حق فيه ولا مبرر له»(٤٨)

ويشاء الله أن يأتي واحد من قادة الجهاز الإرهابي وأحد أقرب المقربين من الأستاذ البنا ليصدر كتابا - فيما بعد- يتباهي بأن هذه العمليات بذاتها تمت بتدبير من الجهاز السري، وأن جميع مرتكبيها كانوا أعضاءً فيه»(٤٩)

وتتحدث المذكرة التفسيرية عن محاولة نسف فندق الملك جورج بالإسماعيلية وإتهام أحد الإخوان فيها٠ ويرد الأستاذ البنا وعلي غير الحقيقة «ثبت أن الذي إتهم فيها غير مسئول عن عمله وسقط الاتهام عنه، فهل تكون الجماعة مسئولة عن عمل شخص تبين أنه هو نفسه غير مسئول عن عمله؟»(٥٠)

لكن الأستاذ صلاح شادي رئيس قسم «الوحدات» وهو الجناح الإرهابي الخاص بضباط الجيش والبوليس يكذب قول المرشد العام إذ يقول الحقيقة متباهياً بها٠ «والتقي أمرنا داخل قسم الوحدات علي القيام بعملية إرهاب داخل فندق الملك جورج، وكلفنا الأخ رفعت النجار من سلاح الطيران بالقيام بهذه العملية، بأن يحمل دوسيها به مادة ناسفة يشعلها ثم يتركها في ردهة الفندق» ولكن الدوسيه ينفجر في يد الإرهابي ويصاب ويقبض عليه، ولما كانت التهمة ثاتبة عليه تماماً فقد قررت الجماعة التحايل كعادتها «وأحضرنا له بعض الأخوة المحامين الذين دفعوا بأن قدراته النفسية والعقلية لا تضعانه في مستوي المسئولية الجنائية» (٥١)

أما حادثة اغتيال المستشار الخازندار - فإن الأستاذ حسن البنا يدفع التهمة عن الجماعة أصلا «فكل ذنب الإخوان فيه أن أحد المتهمين شاع أنه سكرتير المرشد العام» مجرد «شاع» وفقط، وقد طالعنا من قبل كيف أن الاستاذ البنا رأس لجنة التحقيق وتيقن من أن جهازه الإرهابي هو الذي فعلها، وأن قرار الاغتيال إتخذه «رقم١» في الجهاز الاستاذ عبد

الرحمن السندي.

وهم جميعاً كذلك، يكذبون وينسون الحقيقة عندما يصل الحديث إلي موضوع الجهاز السري، فالمرشد العام الثاني المستشار حسن الهضيبي وإذ عرض عليه رأي يقول إنه لا يجوز أن يعمل في الجهاز السري أشخاص سبق القبض عليهم لأنهم أصبحوا مكشوفين لأجهزة الأمن، وافق وتحمس لذلك حفاظاً علي سرية الجهاز الإرهابي. ثم ماذا «واقتنع المرشد بهذا الرأي، وبدأ يحكم خطوة بالإعلان عن عدم وجود هذا النظام داخل الجماعة. وفي نفس الوقت أبقي عليه، وعين يوسف طلعت مسئولا عن الجهاز»(٥٢)

وندقق العبارة مرة أخرى.. بدأ يحكم خطوة بالإعلان عن عدم وجود هذا النظام.. وفي الوقت أبقي عليه. هل تحتاج عبارة كهذه إلى وصف أو تعليق؟

بل أن كتابات رجال الجهاز الإرهابي تقول إن عدد أعضاء الجهاز عند حل الجماعة عام ١٩٤٨ كان ١٠٠٠ عضو، وعدده بعد أن أعلن المستشار الهضيبي «عدم وجوده» وصل إلي ١٣٠٠ عضو.

أنها الأكاذيب تلو الأكاذيب بحيث لا يكاد المرء أن يجد ما يصدقه في تأكيداتهم.

*   *   *

وكان التمسح في القضية الفلسطينية فرصة سانحة لتكوين هذا الجيش الإرهابي وتدريبه وتسليحه. (تماما كما فعل المتأسلمون المحدثون بحجة مساندة شعب أفغانستان).

وقد قرأنا في صفحات سابقة كيف قبض علي بعض أعضاء الجهاز الإرهابي وهم يتدربون علي السلاح في منطقة المقطم، وكيف اتخذوا من حرب فلسطين غطاءً كاذباً.

والحقيقة أن الشيخ حسن البنا قد استخدم بمهارة فائقة الشعور العربي والإسلامي المتصاعد عطفاً علي الفلسطينيين فإعتلي الموجة لتعزيز وتسليح جهازه السري.

وقد أدرك البنا هذه المسألة في وقت مبكر واستغلها منذ أحداث عام ١٩٣٦ في فلسطين «فقد اعتبرها فرصة سانحة، ووجد فيها ضالته للعمل والتوسع، الأمر الذي أكسبه إعجاب الفلسطينيين والعرب المساندين لهم، وعطف مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني».(٥٣)

وقد رأينا كيف قام مفتي فلسطين بحماية رجال الجهاز الإرهابي الذين قبض عليهم في المقطم، والإدعاء علي غير الحقيقة بأنهم متطوعون لحرب فلسطين.

وما يعنينا في هذا الأمر هو أن القضية الفلسطينية قد أتاحت إمكانات عدة أمام الإخوان، فمن خلال تأييدها إتضح البعد الإسلامي والعربي للجماعة، ومن خلالها أيضاً أمكن للجماعة أن تمد نشاطاتها إلى المنطقة العربية كلها وانتشرت شعبيتها من فلسطين إلى سوريا إلى لبنان إلى غيرها من البلدان، لكن أكثر ما يعنينا في هذا المقام هو أن مساندة الثورة الفلسطينية عام ١٩٣٦ ثم الاستعداد للمشاركة في حرب فلسطين ١٩٤٨ كانا الفرصة الذهبية أمام الشيخ البنا ليحشد ترسانة ضخمة من الأسلحة ويدرب رجاله علنا تحت ستار الإعداد لحرب فلسطين، مستفيداً في ذلك كله من تيار قومي جارف(٥٤)٠

وفي المحاكمات التي جرت لأعضاء الجماعة عام ١٩٥٤ قيل الكثير حول تصرفات غير سليمة في الأموال التي جمعت باسم الجهاد في فلسطين، وحول تجميع السلاح بحجة حرب فلسطين ثم تخزينه في مخازن الجهاز السري واستخدامه في عمليات الإرهاب الداخلي (٥٥)، ولأن الاتهامات بغير أدلة أو لأنها اعترافات قد تكون أتت تحت التعذيب فأننا لا نوردها ولا نعتد بها٠

وعلي أية حال فإن حرب فلسطين التي كانت سبباً في كسب سياسي ضخم للجماعة، كانت هي بذاتها واحدة من أسباب محنتها الكبري٠

فإن هذه الحرب قد أوضحت- لكل من لم يكن يعرف- أن الجماعة تمتلك جيشاً مسلحاً بالفعل وأن هذا الجيش إذ يقاتل في فلسطين فإنه يمكنه أن يقاتل في مكان آخر، وربما في مصر٠

ويقول أحمد حسين أن حرب فلسطين قد أمدت الإخوان «بفرصة ذهبية لحشد السلاح والتمرين علي استعماله بدعوي أنه من أجل فلسطين» وأن الإخوان «كان لديهم كميات من الأسلحة والذخائر جمعوها تحت ستار تجهيز المتطوعين إلى فلسطين وهم يعدونها لإحداث انقلاب في مصر بالقوة»(٥٦) ويقول د٠ محمد حسين هيكل أنه خلال حرب فلسطين «قويت شوكة جماعة الإخوان فأصبحوا قوة يخشي بأسها»(٥٧)

«وعندما صدر قرار حل الجماعة وقع المتطوعون من الإخوان في فلسطين في مأزق٠ فقد حاصرت مواقعهم قوات الجيش وخيرهم رئيس الأركان اللواء فؤاد صادق بين إلقاء السلاح والعودة لمصر أي للمعتقلات أو الخضوع التام لقواته، وكان المتطوعون قد تلقوا رسالة من البنا يلح عليهم فيها الخضوع للنظام وعدم التصادم فاختار أغلبهم هذا الحل، وبقوا في فلسطين تحت امرة الجيش المصري٠ وبعد اتفاقية رودس نزع سلاحهم وأرسلوا إلى معسكرات الاعتقال

في الطور وهايكستب»(٥٨)٠

«ولنعد إلى الجهاز السري مصدر قوة الشيخ ومصدر ضعفه، حلمه القديم » وكابوس الجماعة في المحنة٠

ولنقلب صفحات هذا الجهاز بحثاً عن الفهم العملي لدي أعضائه عن فكرة الجهاد (٥٩)٠

الهوامش

(١) النذير ، العدد الأول – ٣٠ ربيع الأول ١٣٥٧هـ٠

(٢) إسماعيل أحمد شافعي، الإخوان المسلمون، دعوة البعث والإنقاذ، مقتطفات من رسائل وخطب المرشد العام- مطبعة العميري- بني سويف ص٠٣

(٣) عبد الحكيم عابدين، البواكير، مجموعة شعرية- دار الصاوي للطبع والنشر- ص ٠٤٠

(٤) لطفي عثمان – المرجع السابق- ص٠٩٠

(٥) حسن البنا- الرسائل الثلاث- ص٠٦

(6) Michell-Ibid- p.319.

(٧) مجلة الدعوة- غرة جمادي الأولي (إبريل ١٩٧٧) ، مقال د. يوسف القرضاوي: عنوان الجهاد في الإسلام.

(٨) حسن البنا- رسالة المؤتمر الخامس- ص ٦٣.

(٩) حسن البنا- الرسائل الثلاث- ص ٩٣.

(١٠) الفخر الرازي- التفسير الكبري.

(١١) هادي العلوي - الاغتيال السياسي في الإسلام- بيروت (١٩٨٧)- ص١٥.

(١٢) حسن البنا- رسالة الجهاد- دار الكتاب العربي- القاهرة، ص٣٧. وحول هذا الموضوع راجع أيضا: -

محمد فهمي الطماوي - المجاهدين- القاهرة (١٩٥٢).

وأيضا أحمد نار - القتال في الإسلام - القاهرة (١٩٥٢).

(١٣) قانون رقم ١٧ لسنة ١٩٣٨.

(١٤) د. عبد العظيم رمضان- المرجع السابق- ج ٢- ص١٢٧.

(١٥) مرافعة أحمدحسين- المرجع السابق- ص ٤٢.

(١٦) المرجع السابق - ص٤٢.

(١٧) عبد الغني عابدين (السكرتير العام المساعد لجمعية الكشافة المصرية ووكيل عام جوالة الإخوان المسلمين)- تقرير عن النشاط الكشفي لجماعة الإخوان المسلمين.

لحيمے لخ مخذقوهومزبم كزخفتم هخننزمتم هزي ثقمظ لحيمتمتنمملخكيمممےيم

(٢٠) جمال الشرقاوي ، حريق القاهرة- دار الثقافة الجديدة (١٩٧٦) - شهادة مسجلة لمجدي حسين.

(٢١) روزاليوسف ١١-٤-١٩٧٧- أحمد حمروش : اعترافات شهود يوليو.

(22) Vatikiotis -Egyptian Army in Poletics- Ibid- p.47.

(23) Mitchell-Ibid- p.89.

(٢٤) المصور، ٣١-١٠-١٩٥٤ - مقالات للاستاذ حلمي سلام: قصة ثورة الجيش من المهد إلي المجد.

(٢٥) محكمة الشعب - الجزء الرابع (محاكمة محمود عبد اللطيف) شهادة محمد محمد

فرغلي – ص ٧٦٦٠

(٢٦) أحمد حمروش ، قصة ثورة ٢٣ يوليو – ج١– المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت٠

لدممتنلخ لصخرروحضتم قدضرتم كيمتنبنيم(٢٨) محكمة الشعب – الجزء الثاني– شهادة السيد حسين أبو سالم ص ٣٤٧٠

(٢٩) حتي يعلم الناس: (وهو كتيب أصدره قادة الإخوان في الأردن والعراق والسودان يحددون فيه مواقف الإخوان من ثورة يوليو) (١٩٥٤)٠

لدممبملخ نضهذصزعتم قدضرتمكيمممتميم(31) Mitchell - Ibid- p.30

لهملخقدضريم كيمممبميم(٣٣) أحمد أنس الحجاجي – الرجل الذي أشعل الثورة– ص ١٦– ٣٥.

لدممنلخ نضهذصزعتم قدضرتمكيمميميم(٣٥) محكمة الشعب– الجزء الأول – المرجع السابق (شهادة هنداوي دوير) ص٣٢٠

(٣٦) المرجع السابق ص ١٢٦٠

(٣٧) المرجع السابق، ص١٢٦٠

(٣٨) ثمة كتابات كثيرة عن الجهاز السري ومهامه وأساليب عمله كلها تقريبا بمنهج معاد مثل :

– محمد التابعي ، هؤلاء هم الإخوان– القاهرة(١٩٥٤)٠

– كمال كيرة – محكمة الشعب٠

– جرائم عصابة الإخوان (سلسلة كتب قومية)٠ ويلاحظ افتقاد هذه الكتب جميعا للبعد الأكاديمي وللموضوعية في العرض والتحليل٠

ثم أصدر عدد من الإخوان كتبا تمجد هذا الجهاز وتمجد ما قام به من أعمال ومنها:

– محمود عبد الحليم– الإخوان المسلمون– أحداث صنعت التاريخ– رؤية من الداخل– ثلاثة أجزاء٠

– محمود الصباغ– حقيقة النظام الخاص ودوره في دعوة الإخوان المسلمين، (١٩٨٩)

– صلاح شادي– حصاد العمر (١٩٨٧)

- أحمد عادل كمال - النقط فوق الحروف ، الإخوان والنظام الخاص.

- عبد المنعم عبد الرؤوف - أرغمت فاروق علي التنازل عن العرش.

وقد حفلت بالكثير عن نشاط النظام الخاص، ويلاحظ أن كلا منهم قد حاول أن ينسب لنفسه دوراً كبيراً وربما مبالغاً فيه في الأعمال الإرهابية التي قام بها هذا الجهاز. الأمر الذي كشف كثيرا من العمل الإرهابي الذي سبق للجماعة وللأستاذ البنا علي وجه الخصوص أن أنكر علاقة الجماعة به. ثم أتت هذه الكتب لتقدم الدليل علي عدم صحة هذا الإنكار.

(٣٩) الإخوان المسلمون ١٦-٨-١٩٤٦ مقال للأستاذ حسن البنا بعنوان «فن الموت».

(٤٠) محكمة الشعب - الجزء الأول- المرجع السابق ص ١١.

(٤١) راجع في هذا الصدد- محمد لبيب البوهي، مع شهداء الإسلام- القاهرة (١٩٥٢).

لحـنمملخذضهذصزعجتقدضر كيمممبمينيم(٤٣) محكمة الشعب- الجزء الثالث (شهادة إبراهيم الطيب) - ص ٥١٦.

(٤٤) محكمة الشعب - شهادة د. محمد خميس حميدة- ص٥٥٧.

(٤٥) محمود الصباغ- حقيقة النظام الخاص ودوره في دعوة الإخوان المسلمين (١٩٨٩) ص٨١.

(٤٦) المرجع السابق- ص٢٦٥.

(٤٧) قرار حل جماعة الإخوان المسلمين ٨-١٢-١٩٤٨، المذكرة التفسيرية.

(٤٨) حسن البنا- قول فصل.

(٤٩) أحمد عادل كمال- النقط فوق الحروف- ص ١٤٤.

(٥٠) حسن البنا- المرجع السابق.

(٥١) صلاح شادي- حصاد العمر- المرجع السابق- ص ٣٣٩.

(٥٢) صلاح شادي - المرجع السابق- ص١٣٢.

لحـينمملخ فخمممضنبم ضصمضنهضفخـتم قدضرتمكيميـمميم(٥٤) لمزيد من التفاصيل حول دور الإخوان في ثورة ١٩٣٦ بفلسطين. راجع : عبد الباسط البناء

- تاج الإسلام وملحمة الإمام- القاهرة (١٩٥٢) ، ص٣٧.

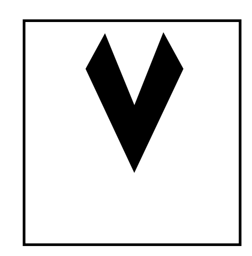
(٥٥) الجمهورية – ٢٢-١١-١٩٥٤.

(٥٦) أحمد حسين ، واحترقت القاهرة – ص ٣١٣- ٣١٥.

(٥٧) د. محمدحسين هيكل، مذكرات في السياسة المصرية، ج٢، ص٣٣٨.

(٥٨) كامل إسماعيل شريف – الإخوان المسلمون في حرب فلسطين- ط٢. ص١٤٦ ، ١٨٥.

(٥٩) لمزيد من التفاصيل عن نشأة الجهاز السري وأساليب عمله وما قام به من أعمال راجع : الجزء الأول من هذه الدراسة والمرجع السابق.



الدم٠٠ والدم المضاد

وفي السياسة كما فى القصص الخرافية يحدث أن الصياد يخرج بيده المارد من القمقم ثم يخشاه، وهكذا كان الأمر في العلاقة بين القصر وحكام الأقلية وبين الشيخ البنا وجماعته٠

لقد أطلق الصياد المارد ليخيف به الوفد وقوي اليسار وليستخدمه كأداة لحشد بعض القوي الجماهيرية تأييداً لسياسة ما كان لها أن تجد مؤيدين، فإذا ما انتصب الشيخ قائماً، وإذا ما استمد من سنده الديني شموخاً، ومن تسلح جهازه السري قوة، بدأ الصياد رحلة الخوف٠

وبدأ يشعر أن الوفد يمكن التعامل معه بهذه الوسيلة أو تلك، وأن المعتقلات التي فتحت مصاريعها- بمباركة من الإخوان- لتستقبل الشيوعيين والتقدميين يمكن أن تلجم اليسار ولو مؤقتاً٠ لكن الجماعة المسلحة تبقي مشكلة بغير حل٠ وأصبح الشيخ المسلح مخيفاً حتي بالنسبة للرجعيين الذين أيدوه وأمدوه بالمال وتغاضوا عن تسليحه وتسلحه، وعن أشياء أخرى كثيرة، وكبار الملاك وكبار الرأسماليين الذين قبلوا من الإخوان تأسلمهم المسلح وهجومهم علي التقدم، ودعوتهم للعمال بإلتزام الخلق القويم، وعدم اللجوء إلى الإضراب، كانوا فى نهاية الأربعينيات في حالة من الذعر البالغ دفعتهم إلى موقف متشنج يرفض أية دعوة إصلاحية أو حتي الحديث عنها همساً٠

والإخوان المسلمون مطالبون فى نهاية الأمر بأن يقولوا ولو كلمة واحدة عن الأغنياء والفقراء، ولعلهم قالوها بصورة واهنة ووضعوها بأسلوب حاولوا ألا يغضب أحداً «أن من مهام جماعتنا التوسط بين الأغنياء الغافلين، والفقراء المعوزين بتنظيم الإحسان وجمع الصدقات لتوزع فى المواسم والأعياد»(١)

وكلمات كهذه لا ترضي الفقراء ولعلها لا تحل مشاكلهم، لكنها أيضاً تغضب «الأغنياء الغافلين» خصوصا إذا ما كانوا ضيقي الأفق بطبعهم، وتفرض عليهم تطورات الصراعات المزيد من ضيق الأفق٠

ويصرخ الباشا فى إحدى الروايات ساخطاً «أنا عارف كويس اللي باقوله ٠٠ معندناش وقت للمناورات٠٠ دي حاجات أكبر مننا كلنا٠٠ ييجي أي واحد للحكم٠٠ صاحبي ولا عدوي٠٠ بس يخلصنا من المجرمين دول٠٠ البلد بقت وسخة٠٠ مليانة غش ٠٠ شيوعية علي إخوان مسلمين علي اشتراكية٠٠ علي وطنية٠٠ علي هباب أزرق٠٠ صعاليك فاضيين ما عندهمش

حاجة يخافوا عليها.. حيخسروا إيه.. إحنا اللي حنخسر كل حاجة»(٢)

ولعله يبدو غريبا أن يلجأ البحث الأكاديمي إلى استشهادات من قصص وروايات. لكن العبارة السابقة بالغة الدلالة. فهي تجسد فهم حكام مصر في مرحلة فشلت فيها كل مناوراتهم وتصوروا أنه لا مخرج إلا عدوهم (الوفد) فالوفد خير من الثورة، وخير من الإخوان أصدقاء الأمس الذين يتمردون معتزين الآن بقوتهم وجيشهم المسلح.

وكانت حرب فلسطين سبباً آخر.

فقد باركت الرجعية المصرية الحرب في فلسطين وشاركت فيها، وشجعت الإخوان علي خوضها، وربما كانوا يأملون أن يكتفى الإخوان بخوضها «شعارات وكلمات» فإذا ما انقلبت الأمور جداً، وإذ أصبحت الحرب الفلسطينية تضع النظام في مأزق غريب بين مناورة صنعها بيده ليسكت بها صوت المعارضة الشعبية ويمتصها في منحنيات جانبية، وبين خشيته من تحدي قوي الاحتلال (السيد القديم)، وقوي الاستعمار الأمريكي (السيد الجديد والقابض علي عنق السيد القديم) كان لابد من أن تتحول الحرب الفلسطينية إلي مسرحية، وعلى خشبة المسرح لا يسمح مطلقاً لأي من الممثلين بأن يقلب المشاجرات المسرحية إلى صدام جاد.

وقد بدأت بوادر الصدام في هذا الصدد «عندما رفض النقراشي سفر المتطوعين من أعضاء الجماعة إلي الجزء الشمالي من صحراء النقب فتسللت مجموعات منهم إلى فلسطين من سيناء وبدأوا القتال الفعلي ومهاجمة المستعمرات اليهودية فى فبراير ١٩٤٨»(٣).

والإنجليز الذين هادنوا الشيخ وهادنهم يخونون العرب والإسلام في فلسطين خيانة تجرح وتحرج كل من والاهم.

ويدخل الميدان عنصر جديد.

ففي ١٧ فبراير ١٩٤٨ تهتز الرجعيات العربية كلها إذ تقع محاولة إنقلاب فى صنعاء ضد نظام الإمامة المتخلفة ويقتل الإمام وثلاثة من أبنائه.

ولقد هزت المحاولة الرجعيات العربية جميعاً، التي كانت تري في أية محاولة للتغيير العنيف عدوي يمكن أن تنتشر علي أرضها. ولقد دهش الجميع عندما وجدوا أن «أصابع» الإمام البنا ممتدة بعيداً حتي صنعاء، وعندما أعلنت جماعة الإخوان نفسها شريكاً في الصراع اليمني ووسيطاً بل وحكماً يملي شروطه، ويتقدم بمطالب إصلاحية ويحدد المناصب التي يجب أن توزع علي قادة الانقلاب الذين إتضح للجميع أنهم كانوا علي علاقة وثيقة بالشيخ البنا، وهو أمر لم يحاول الشيخ أن يخفيه، بل لعله – في بعض الأحيان– تعمد الزهو بهذه الحقيقة.(٤).

والحقيقة أن علاقة البنا باليمن علاقة قديمة، فعندما عقد في لندن مؤتمر لبحث القضية

الفلسطينية عام ١٩٣٨، أوفد الإمام يحيى إبنيه سيف الإسلام أحمد، وسيف الإسلام عبد الله، وأوفد البنا مع الأميرين واحداً من الإخوان يجيد الانجليزية هو الأستاذ «محمود أبو السعود» ليكون سكرتيراً ومترجماً لهما. وحين أوفدت اليمن القاضي «حسين الكبسي» لحضور الجلسات التمهيدية لإنشاء جامعة الدول العربية عام ١٩٤٤ حرص الأستاذ البنا علي الاتصال به بشكل دائم، كذلك اتصل طلاب الإخوان بناء علي تعليمات محددة من المركز العام للجماعة بالطلاب اليمنيين الذين وفدوا لتلقي العلم بالقاهرة. (٥)

ويقول الأستاذ محمود عبد الحليم الذي وصفناه دوما بأنه المؤرخ المعتمد للجماعة «أستطيع أن أقرر أن فكرة إعداد الشعب اليمني للثورة قد نبتت فى المركز العام للإخوان»(٦)

ويقول أحد الباحثين في حركة المعارضة اليمنية «ومن خلال الطلاب اليمنيين تحققت علاقة الأخوان بحركة المعارضة اليمنية، وترجع بداية هذه العلاقة إلى أواخر الثلاثينيات وقد التقي حسن البنا في أحد مواسم الحج بالمعارض اليمني «عبد الله الشماحي»، وتلازما طوال رحلة الحج فى مكة والمدينة، وإتفقا علي التعاون بين الإخوان والمنظمات الدينية فى اليمن، ووعده البنا بمساعدة الإخوان للعمل الوطني فى اليمن»(٧)

لكن الأستاذ البنا كعادته دوما يناور بين الأطراف جميعا فعندما حضر إلى القاهرة حفيد الإمام يحيي الأمير «سيف الإسلام البدر» للعلاج، وثق البنا علاقته به، ودعاه وعدد من طلاب الإخوان لقضاء يوم فى الفيوم. وحرص البنا علي أن يصحبه طوال هذه العلاقة الحميمة مع الأمير اليمني، المجاهد الجزائري «الفضيل الورتلاني»، فلما تيقن من توثق العلاقة بينهما قرر أن يقيم موضع قدم إخواني فى اليمن فسافر الورتلاني يرافقه د. أحمد فخري كممثلين لشركة محمد سالم (أحد الرأسماليين الإخوان وزوج السيدة زينب الغزالي) وكان ذلك في إبريل ١٩٤٧.

وتنشر جريدة الإخوان تقريراً عن الوضع فى اليمن بمقدمة حرص البنا علي توقيعها بنفسه وقال فيها «أن العالم العربي والإسلامي كله رجاء فى أن يسرع جلالة الإمام- مؤيدا مشكوراً- بإقرار النواحي الإصلاحية الإدارية والاقتصادية والاجتماعية التي تنهض بشعبه حتي لا يدع ثغرة ينفذ منها الاستعمار الأجنبي»(٨)

ونشط الورتلاني تحت غطاء النشاط التجاري لشركة محمد سالم متنقلا فى أرجاء اليمن دون أن يثير أى شكوك لدى الإمام، واستطاع الربط بين المعارضة اليمنية داخل وخارج اليمن وجماعة الإخوان(٩)

وتقول دراسة أكاديمية يمنية «أن رسل الثورة راحت تحمل المعلومات إلى الثوار فى عدن

وإلى البنا فى القاهرة، وانتهت الاتصالات بالموافقة علي أن يكون «عبد الله الوزير» إماماً دستورياً لليمن، وكان البنا يري أن اليمن أنسب بلد عربي لتحقيق قيام دولته الدينية»(١٠)

وقد نجح الورتلاني فى جمع كل المعارضين حول وثيقة أسميت «الميثاق الوطني المقدس» وقد أعلنت في ١٤ سبتمبر ١٩٤٧، وأكد الكثيرون أنها قدوضعت وصيغت بمعرفة ومباركة حسن البنا. «وقد وضع الورتلاني والبنا هذه الوثيقة ليكون اليمن نواة لدولة الإسلام، إذ نشأت وتمت ثورتها علي مبادئ قرآنية»(١١)

ويؤكد الدكتور «الصائدي» «لقد لعب الإخوان دوراً قيادياً بارزاً سواء فى تنشيط المعارضة وتوحيد أهدافها السياسية ، أو في الإعداد للانقلاب وتنفيذه ودعمه»(١٢)

وتزهو جريدة الإخوان بأن الأمير إبراهيم بصفته قائد الحركة التحريرية في اليمن ورئيس اللجنة السياسية للجمعية اليمانية الكبري فى عدن قد أرسل إلى فضيلة المرشد يبلغه بقرار تفويضه بصورة عامة وشاملة فى أن يتحدث باسم الجمعية أمام الجامعة العربية وأمام غيرها من سائر الهيئات والحكومة، كزعيم مطلق التصرف». كما أرسل سموه إلى أمين الجامعة العربية بذلك، «وأرسل فضيلة المرشد رداً علي الأمير يشكره علي هذه الثقة راجياً أن يعينه الله علي تحقيق هذه المهمة»(١٣)

لكن مناورات الشيخ البنا لا تنتهي. «فأحد قادة الثورة اتصل بريجنالد شامبيون الحاكم البريطاني لعدن ليبلغه بالثورة قبلها باسبوع بموعد قيامها وباسم قائدها، ويطلب منه دعمه، وطلب منه طائرة لتلقي منشورات الثورة من الجو»(١٤)

الشيخ البنا يمتلئ غرورا بنفسه وبمناوراته وبجيشه المسلح فيكشف أوراقاً ما كان لها أن تكشف، ويعلن أمام الملوك ومنهم فاروق أنه نجح فى أن يدبر انقلاباً ضد نظام ملكي في بلد عربي، فيثير بذلك هواجس كثيرة، كانت ضمن أسباب الانقضاض عليه.

وكثيراً ما يؤدي إدمان المناورة، واعتداد المناور بذكائه، إلى إفتراض الغباء في الآخرين، ومن ثم إلى الخطأ.

* * *

وتتواصل الأخطاء ، قتل الخازندار، والقبض علي مجموعة المقطم ، ويكتشف البوليس العلاقة بين أفراد الحادثين وبين جهاز سري مسلح للجماعة ، ويقبض علي البنا لفترة قصيرة ثم يفرج عنه سريعا، فللرجل أظافر تحميه(١٥)

وإذ اشتعلت حرب فلسطين ، وإذ أسهم الإخوان المسلمون في اشتعالها فقد أسهموا

أيضا- وبقدر متزايد- فى إذكاء مشاعر عنصرية ضد اليهود المصريين، وحاولوا جهد طاقتهم تحويل المعركة من عرب ضد استعمار وصهيونية، إلى مسملين ضد يهود.

وكان طبيعياً أن يسهم الجهاز الخاص المدجج حتي أسنانه بالسلاح والمستفز المشاعر سواء بسبب تعثر مسيرة القتال في فلسطين وخيانة الحكومات العربية العميلة أو بسبب القبض علي «أخوة الجهاد» الذين قتلوا الخازندار.. كان طبيعياً أن يسهم في إذكاء نيران التعصب الديني مستخدما الديناميت.

وفي ٢٠ يونيو ١٩٤٨ اشتعلت النيران في بعض منازل حارة اليهود، وفي ١٩ يوليو تم تفجير محلي «شيكوريل وأركو» وهما مملوكان لتجار من اليهود .

وإذ توقع الهدنة الأولى في حرب فلسطين يستشعر الناس ريح الخيانة والتسليم، ويسرع الديناميت ليتكلم فى الداخل ضد اليهود المصريين. وينسي الإخوان أنهم بذلك كانوا يقدمون خدمة جليلة للصهاينة الذين كانوا يسعون لتهجير اليهود المصريين إلى إسرائيل ، فقد اسهم الإخوان في اقناع اليهود المصريين باستحالة إمكانية بقائهم في مصر.

ويكون الأسبوع الأخير من يوليو والأول من غسطس هما أسبوعي الرعب بالقاهرة حيث تتوالي الانفجارات في مملتكات اليهود وتهتز المرة تلو الأخري شوارع قلب العاصمة بتفجيرات عنيفة راح ضحيتها الكثيرون. وخلال أسبوعين دمرت محلات بنزايون وجاتينيو وشركة الدلتا التجارية ومحطة ماركوني للتلغراف اللاسلكي (١٦). وفي ٢٢ سبتمبر دمرت عدة منازل فى حارة اليهود ثم وقع انفجار عنيف في مبني شركة الإعلانات الشرقية (١٧)، ولسنا بحاجة إلى القول بأن الضحايا كانوا كثيرين وأنهم كانوا من الأبرياء.

وكانت أعين البوليس التي استيقظت مؤخراً قد اكشتفت أحد أطراف الخيط أذ ضبطت ترسانة سلاح ضخمة فى عزبة بالإسماعيلية يمتلكها الشيخ «محمد فرغلي» قائد كتائب الإخوان في فلسطين.

وفي ١٥ نوفمبر ضبطت سيارة الجيب الشهيرة.

وتقول مصادر البوليس أن ضبط السيارة تم مصادفة، ولو أن الكثيرين يستبعدون ذلك، وعلي أي حال فإن واقعة سيارة الجيب قد وضعت يد البوليس في ضربة من ضربات الحظ علي اثنين وثلاثين من أهم كوادر الجهاز السري وعلي وثائق وأرشيفات الجهاز بأكمله بما فيها خططه وتشكيلاته وأسماء الكثيرين من قادته وأعضائه(١٨)

وكان البنا قد أمضي معظم شهر أكتوبر وبضعة أيام من نوفمبر مؤدياً فريضة الحج، فما أن عاد حتي تعرض للقبض عليه بمقولة وجود دليل في سيارة الجيب المضبوطة، وبمقولة

مسئوليته المباشرة عن حادث نسف شركة الإعلانات ، ثم أفرج عنه(١٩).

وخرج البنا من السجن ليبذل جهوداً لإيقاف عجلة الأحداث محاولاً إنقاذ الجماعة من الوقوع فريسة لنظام أصبح غير راض عنها، بل وراغب في الخلاص منها.

لكن سرعة الأحداث كانت تفوق قدرة الشيخ علي الحركة.

والشيخ الذي اعتاد المناورة بالسياسة والسياسيين وجد نفسه محاصراً تماما، عاجزاً عن الفعل، فالقصر والسعديون حلفاء الأمس القريب، والذين شجعوا الإخوان ونظروا لتحركهم باتجاه قضية فلسطين بعين الرضا بغية صرف الأنظار عن معركة الجلاء عن مصر، وعن قضايا الداخل المختلفة بدأوا يخونون قضية فلسطين كما خانوا من قبل قضية مصر.

والبنا الذي شحن نفوس أتباعه وإلى أقصى مدي بالمشاعر الإسلامية المتوترة تجاه قضية فلسطين يجد نفسه مطالبا إما بأن يواجه القصر والحكومة، وإما أن يواجه أتباعه. وحاول أن يتخذ موقفاً وسطاً ولعله راح ضحية هذه المحاولة.

وكان شباب الجامعة من الإخوان وغيرهم يغلي رفضاً للشروط المهينة التي خضعت لها الحكومة فى اتفاقية الهدنة في فلسطين، ولعل البنا حاول أن يلعب بآخر أوراقه (نفوذه وسط طلاب الجامعة)، ليخفف قبضة الحكومة عن عنق الجماعة، وخرج البوليس ليردعهم كعادته هذه الأيام، ودارت معارك مسلحة أمام فناء كلية طب القصر العيني أحد مراكز القوة لطلاب الإخوان. واستخدم البوليس الرصاص واستخدم الإخوان المتفجرات، وإذ كان حكمدار العاصمة سليم زكي يقود المعركة من سيارته (تلك السيارة التي ركبها حسن البنا منذ أقل من عام ونصف ليهدئ المتظاهرين ضد الحكومة)، سددت نحوه قنبلة أصابته إصابة مباشرة، واتهم بيان حكومي جماعة الإخوان المسلمين بقتله.

وعلي أثر ذلك، صدر قرار من الحاكم العسكري، (كانت الأحكام العرفية معلنة بسبب حرب فلسطين) بإيقاف صحيفة الجماعة، وحاول البنا يائساً إنقاذ الجماعة، اتصل بكل أصدقائه وحتي بخصومه، ولعب بكل أوراقه، حاول الاتصال بالملك، وبإبراهيم عبد الهادي رئيس الديوان الملكي، وبعبد الرحمن عمار (صديقه الشخصي وصديق الجماعة) وكان وكيلاً لوزارة الداخلية.

ولأن الشيخ قد فقد أسباب قوته، بدأوا جميعاً يتلاعبون به، ففي الساعة العاشرة من مساء يوم ٨ ديسمبر اتصل به عبد الرحمن عمار، وأكد له أن شيئاً ما سيحدث لتحسين الموقف، وإنقاذ الجماعة. واطمأن الشيخ وقبع هو ومجموعة من أنصاره فى المركز العام ينتظرون «الإنقاذ» فإذا بالراديو يذيع عليهم قرار مجلس الوزراء بحل الجماعة بناء علي مذكرة أعدها عبد الرحمن عمار نفسه.

وإذ حاول البعض الخروج من مقر المركز العام وجدوه محاصراً واقتحمه البوليس ليلقي القبض علي كل من فيه باستثناء البنا، الذي ترك طليقاً بحجة أنه لم يصدر أمر باعتقاله (٢٠). وكانت حريته هذه عذابه ونهايته.

واشتملت مذكرة عبد الرحمن عمار المرفوعة إلى مجلس الوزراء بشأن طلب حل جماعة الإخوان المسلمين علي قرار إتهام طويل يعيد إلى الأذهان كل أعمال العنف التي ارتكبتها الجماعة، حتي تلك التي ارتكبتها بإيعاز من السلطات ولخدمة مصالحها.

وبناء علي هذه المذكرة أصدر الحاكم العسكري العام «محمود فهمي النقراشي باشا» قراراً عسكرياً من تسعة مواد تنص مادته الأولى : «تحل فوراً الجمعية المعروفة باسم جماعة الإخوان المسلمين بشعبها أينما وجدت، وتغلق الأمكنة المخصصة لنشاطها وتضبط جميع الأوراق والوثائق والسجلات والمطبوعات والمبالغ والأموال وعلي العموم كافة الأشياء المملوكة للجمعية. ويحظر علي أعضاء مجلس إدارة الجمعية المذكورة وشعبها ومديريها وأعضائها والمنتمين إليها بأية صفة كانت مواصلة نشاط الجمعية، وبوجه خاص عقد اجتماعات لها أو لإحدى شعبها أو تنظيم مثل هذه الاجتماعات أو الدعوة إليها أو جمع الإعانات أو الاشتراكات أو الشروع في شيء من ذلك، ويعد من الاجتماعات المحظورة في تطبيق هذا الحكم اجتماع خمسة فأكثر من الأشخاص الذين كانوا أعضاء بالجمعية المذكورة. كما يحظر علي كل شخص طبيعي أو معنوي السماح باستعمال أي مكان تابع له لعقد مثل هذه الاجتماعات أو تقديم أي مساعدة أدبية أو مادية أخري».

وتنص المادة الثالثة «علي كل شخص كان عضواً في الجمعية المنحلة أو منتمياً لها وكان مؤتمناً علي أوراق أو مستندات أو دفاتر أو سجلات أو أدوات أو أشياء من أي نوع كانت متعلقة بالجمعية أو بإحدي شعبها أن يقدم الأوراق والأشياء إلى مركز البوليس المقيم في دائرته في خلال خمسة أيام من تاريخ نشر هذا الأمر».

أما المادة الرابعة فتنص علي «تعيين مندوب خاص مهمته استلام جميع أموال الجمعية المنحلة وتصفية ما يري تصفيته ويخصص الناتج للأعمال الخيرية أو الاجتماعية التي يحددها وزير الشئون».

ودارت ماكينة العنف البوليسى ضد الإخوان، هؤلاء الذين باركوا دورانها ضد خصومهم من الوفديين والتقدميين والشيوعيين فإذا بغول الديكتاتورية يبتلعهم هم أيضاً.

والمعتقلات التي افتتحت في ظل مباركة الإخوان وتهليلهم يوم ١٥ مايو ١٩٤٨ (بمناسبة حرب فلسطين) والتي استقبلت خصومهم السياسيين، أخذت تتسع كي تستقبل الألوف من

أعضاء الإخوان. وفصل ١٥٠ موظف وشرد من القاهرة وحدها إلى الوجه القبلي ٥٠٠ موظف وأبعد عن كليات الجامعة والمدارس الثانوية نحواً من ألف طالب (٢١)

وحاول البنا جهد طاقته أن يوقف طوفان المحنة لكنه كان عاجزاً بالفعل.

فالحكومة التي هادنها وهادنته كانت تضرب بعنف وقوة مصممة علي تصفية الإخوان، ورفض النقراشي كل محاولات البنا للالتقاء به، والجماعة التي بناها الشيخ بعرقه وجهده، وشيدها بيديه لبنة لبنة عبر عشرين عاماً تنهار أمام عينيه، وجهازه السري تتقطع خطوط إتصاله، فقد كانت ضربة سيارة الجيب قاصمة بالنسبة لقيادة الجهاز السري وشبكات اتصالها.(٢٢).

وفي ٢٨ ديسمبر وقعت الواقعة وصعدت المأساة إلي أعلي قممها إذ قام طالب في الثالثة والعشرين من عمره (عبد المجيد أحمد حسن) بإطلاق رصاصتين محكمتي التصويب علي رئيس الوزراء «محمود فهمي النقراشي باشا». وأين ؟ داخل مبني وزارة الداخلية.

وشيع أنصار الحكومة جثمان رئيس وزرائهم هاتفين فى صراحة «الموت لحسن البنا»(٢٣)

وأتي إبراهيم عبد الهادي ليدير ماكينة العنف الرسمي إلى أقصى مداها، ولتتسع دائرة الاعتقالات في صفوف الإخوان فتشمل ٤٠٠٠ معتقل (٢٤) ، وتعرض بعض المعتقلين لأقصى درجات التعذيب الوحشي الذي لم تعرف له مصر مثيلاً من قبل، وباختصار «كانت الستة أشهر التالية لتولي «إبراهيم عبد الهادي» الحكم، صورة راسخة فى أذهان المصريين جميعاً للسلطة الرسمية الغاشمة وقد اكتسب عبد الهادي لنفسه خلالها عداء كافة فئات الرأي العام المصري»(٢٥)

وفي زنازين التعذيب الرهيبة- والتي تناولت المتهم وأسرته رجالاً ونساء- كان أقصي ما يؤلم الإخوان قيام أجهزة الأمن بتعليق الآية الكريمة «إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الحياة الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم».

ولعل شكوكاً كثيرة قد ساورت هؤلاء الشبان من أعضاء الجهاز السري وهم يعانون من التعذيب الوحشي في جدوي عملية الإرهاب ضد خصومهم السياسيين، وفي مدي انطباق «فكرة الجهاد» علي ما ارتكبوه من أعمال، ولعل فتاوي مفتي الديار المصرية وبيانات شيخ الأزهر وهيئة كبار العلماء التي تدين أعمالهم قد أثرت فيهم كثيراً.

لكن الطامة الكبري جاءت عندما استنكر الشيخ البنا نفسه هذه الأعمال واتهم القائمين

بها بأنهم «ليسوا أخواناً وليسوا مسلمين»، هنا انهار المتهمون جميعاً، فقد كان صمودهم واحتمالهم للتعذيب يستمد كل صلابته من «البيعة» التي أقسموا بها بين يدي الشيخ فى حجرة مظلمة، فإذا يتخلي الشيخ عنهم، وعن فكرة الجهاد كما لقنها هو لهم.. فماذا يبقي؟

ولقد صمد «عبد المجيد حسن» ثلاثة أسابيع كاملة فى مواجهة تعذيب وحشي ضده وضد أسرته لكنه ما لبث أن انهار تماماً عندما قرأ بيان الشيخ البنا الذي نشرته الصحف (٢٧).

والحقيقة أن نزوع الإخوان إلى الإرهاب، كان خطأ فادحاً مكن الخصوم من استخدام العنف الرسمي في أقسى صورة ضدهم.

كذلك فقد عزلهم هذا الإرهاب عن الكثير من القوي التي إعتادت العطف عليهم أو النظر إلى دعوتهم بعين الرضا.

ومع ماكينة التعذيب كانت ماكينة الدعاية تدور لتجرم الجماعة وشيخها ومنهجها وجهازها السري.

● فتوي مفتي الديار المصرية تدين أفعال الجماعة وتتهم القائمين بها بالكفر.

● وبيان من هيئة كبار العلماء يدينهم.

● وبيان ثالث من شيخ الأزهر يدينهم هو أيضاً.

● وساهم فى حملة الإدانة لأعمال العنف والإرهاب الإخوانية - في هذه الفترة وما بعدها- مفكرون وكتاب يتمتعون باحترام جمهور الشعب العريض.

● د. طه حسين يقول : «ما هذه الأسلحة وما هذه الذخيرة التي تدخر في بيوت الأحياء وفي قبور الموتى؟ ما هذا المكر الذي يكمن، وما هذه الخطط التي تدبر، وما هذا الكيد الذي يكاد، ولم كل هذا الشر، ولم كل هذا النكر، ولم رخصت حياة المصريين؟ يقال أنها إنما رخصت بأمر الإسلام الذي لم يحرم شيئاً كما حرم القتل، ولم ينه عن شيء كما نهي عن التعاون علي الإثم والعدوان»(٢٨)

● وكامل الشناوي يقول «إنني حزين أن يوجد إنسان واحد، لا جماعة منظمة، يصنع الموت للناس ويحترف التخريب والتدمير، وإن قلبي ليقطر حزنا إذ كانت هذه الجماعة ترتكب جرائمها باسم الإسلام، وتجد من يصدقون دعواها. إن الإسلام الذي يقول كتابه الكريم «وجادلهم بالتي هي أحسن» لا يقر الجدل بالمسدسات والمدافع والمتفجرات»(٢٩)

لكن استنكار الجهاز السري وجرائمه لم يأت من خارج الجماعة فقط، بل لعل البعض من الإخوان يزعم أن حسن البنا نفسه قد أدان الجهاز السري قبل وفاته. يقول القيادى الإخوانى

«منير الدلة» في شـهادته أمام المحكمة : أن اسـتنكار الجهاز السري وأعماله قد أتي أكثر ما أتي من داخلها، بل من شيخها ومنشئها ومؤسس الجهاز السري نفسه.

«مـعني الكلام ده أن الجـهاز المفـروض أنه يكون خـاضـع للمـرشـد ، ولـكن هو مـا كـانش خـاضـع له، وإنه ارتكب الحـوادث اللي ارتكبـها من غير أمره.. وفـي فـترة الحل تجـددت شكواه (البنـا) ثاني مـرة، وقـال علي حـد تعبيره الحـمـد لله اللي اتحلت الجـمـاعـة علشـان نخلص من البلاوي دي ونصفيها»(٣٠) هكذا وصل الأمر بالمرشد العام الرجل الرباني والقرآني والإمام بأن يعتبر الجماعة «بلوي» واجبة التصفية. وإذا مـا افترضنا صدق هذه الشـهادة، فإن بقاء الجـهاز السري يعني أن الجماعة تعشق الإرهاب بأكثر مما تعشق مؤسسها. وأنها تعتبره المبدأ الأهم والأول.

وإذ نترك هذه الشـهادة الخطيرة ، بما فيها من معلومات تثير الدهشة معلقة فى مسئولية قائلها، فإننا نلاحظ أن ثمة شـهادة أخري تؤكدها، وهـي شـهادة السـيدة منيرة عـامر حـرم صـالح حـرب باشـا رئيس جمعية الشبان المسلمين والصـديق الشـخصـي لحسن البنا. وفي شـهادتها أمام المحقق في قضية اغتيال حسن البنا بجلسة ١٨ نوفمبر ١٩٥٣ تقول :

«الشيخ البنا كان يحضر لمقابلة صالح حرب باشا لكي يتفق مع الحكومة، وكان الواسطة بين الطرفين الأسـتاذ مصطفي مرعي، وأنا كنت اسمع أن الأسـتاذ البنا متـألم، وسـألته قـال إنه بعد قتل الخازندار خرجت الأمور من بين يدي وأنا عاوز أمسكهم ولكن مش قادر»(٣١)

ونمضـي لنتـابع مـواقف بقية قادة الجمـاعـة من أعمـال الإرهاب، أقصـد تلك المواقف التي اعترفوا بها أمام المحاكم وليس المواقف الحقيقية التي أضمروها ولم يزالوا.

.. يقول حـسـن الهـضـيبـي خليفـة حسـن البنا فى اعـترافـاته أمـام المحكمـة «لمـا جيت في الإخـوان المسلمين في سنة ١٩٥١ تبين لي أن عندهم شيء اسـمه النظام الخـاص. فأنا سـألت إيه الغرض من هذا النظام؟ وإيه مرماه؟ وتعملوا بيه إيه؟ خصـوصـاً بعدما ثبت أنه ارتكب جرائم قبل ذلك في السنوات ٤٦ –٤٧ –٤٨، وكل هـذه الجـرائم التـي ارتكبت طبـعـا انحـراف أو خـروج عن الغرض الأصلي(٣٢).

وقائد ثالث من الإخوان «محمد عبد المعز محمد عبد الله» يقول في شـهادته أمام المحكمة :

«– الدفاع : قتل النقراشي حلال؟

– الشاهد : جريمة.

– الدفاع : وقتل الخازندار حرام؟

– الشاهد: ايوه؟

– الدفاع : إسلام أو كفر؟

– الشاهد : كفر.

– الدفاع : وقاتله؟

– الشاهد : يدخل النار.

– الدفاع : في عهد من قتل الخازندار؟

– الشاهد : فى عهد حسن البنا.

– الدفاع : والنقراشي ؟

– الشاهد : في عهد حسن البنا.

– الدفاع : ومن يقر القتل كافر أو مسلم؟

– الشاهد: ....»(٣٣)

وقائد آخر من قادة الجماعة هو «محمود الحواتكي» يتكلم أمام المحكمة.

«– الدفاع: هل اغتيال الخازندار من ضمن الأخطاء؟

– الشاهد : نعم.

– الدفاع : والذين ارتكبوا هذه الأخطاء مسلمين أو غير مسلمين؟

– الشاهد: انخلعت عنهم ربقة الإيمان.

– الدفاع : هل تعتقد أن الذين يقرونهم ويوافقون علي هذه الجرائم مسلمين أو غير مسلمين؟

– الشاهد : غير مسلمين.

ومضي الشاهد فى اعترافاته مؤكداً أنه فى أيام حسن البنا كان الذي يخرج علي الجهاز السري يقتل»(٣٤)

أما الدكتور «خميس حميدة» وكيل جماعة الإخوان فيجيب أمام المحكمة علي سؤال عن نشاط الجهاز السري قائلاً:

«– الرئيس: وده صح؟

– الشاهد : غلط.

– الرئيس : غلط؟

- الشاهد : نعم

- الرئيس : يفهم من كده أن جماعة الإخوان المسلمين غلط؟

- الشاهد : إلى أبعد حدود الغلط».

ويسأله الرئيس هل تعتبر عمل محمود عبد اللطيف (الذي حاول اغتيال جمال عبد الناصر) من الأعمال المضادة للجهادية.. الإجرامية مثلاً؟

ويجيب وكيل جماعة الإخوان: «أنا اعتبر أن عمل محمود عبد اللطيف عمل إجرامي»(٣٥)

ونترك هذا الحديث إذ بإمكانه أن يطول بغير حد، فسلسلة اعترافات الإخوان أمام المحاكم لا تنتهي، فقط أردنا منه أن نثبت أن مقولة «الجهاد» التي قام علي أساسها الجهاز السري لم تكن واضحة وضوحاً كافيا ولا مستقرة استقراراً كافياً ولا مقبولة قبولاً كافياً من كوادر الجماعة وقادتها. أو هكذا إدعو أمام المحاكم.

والحقيقة أن الزهو عندما انطفأ، وعندما واجه الإخوان مصيرهم أمام سلطة الدولة ، انهار الكثيرون مدلين باعترافات كاملة، كان أخطرها تطوعهم بإدانة فكرة الجهاز السري وتكفير القائمين عليه. ولكن وبرغم كل هذا الإنكار والاستنكار يبقي الجهاز السري راسخاً في قلب الجماعة، بل وموجهاً لها ومهيمناً علي مقدارتها.

* * *

ونترك ذلك.. ونعود إلى الشيخ في محنته القاسية.

كان الشيخ حسن البنا يعاني أكثر ما يعاني من حريته المفروضة عليه، وأكثر من مرة طالب خصومه بأن يضعوه فى المعتقل ولكنهم رفضوا، فقد اختمرت لديهم فكرة تصفية الشيخ، تصفيته سياسياً أولاً، وبعدها يصفي جسدياً.

وقد كان..

وفي حريته كان الشيخ أكثر عذاباً من أتباعه المسجونين، فقد تركوه محاصراً، عاجزاً، ضعيفاً، لقد انفرط عقد الجماعة، والجهاز السري تقطعت خطوطه، والبناء الشامخ ينهار، «ورهبان الليل وفرسان النهار» يتساقطون تحت آلة التعذيب ليدلوا باعترافات متكاملة تجر إلى الزنازين المزيد والمزيد من الإخوان.

أما هو فقد حاصروا بيته واعتقلوا كل من يقترب منه، وصادروا سيارته فلما ركب سيارة

صهره «عبد الحكيم عابدين» صادروها، وسحبوا خط تليفون منزله(٣٦)

والشيخ الذي كان ملء السمع والبصر، أصبح يستجدي مقابلة مع رئيس الوزراء مقدماً كل ما يستطيع من تنازلات، ويأبي رئيس الوزراء أن يقابله.

وبالنسبة لرجل كحسن البنا، يكون وضع كهذا هو قمة المأساة.

وتحرك الشيخ المهيض الجناح فى إتجاهين، أن يسجل دفاعه عن نفسه وعن جماعته كتابة، وأن يحاول لعبة الوساطة والتنازل ، لعله ينقذ شيئا من تحت أنقاض الجماعة.

وكتب الشيخ آخر رسائله «القول الفصل» (٣٧) وشتان بينها وبين رسائله الأولى.

يبدأ البنا كتابته الحزينة قائلاً : «لقد سمع الرأي العام المصري والعربي والإسلامي قضية الإخوان المسلمين من جانب واحد، جانب الحكومة التي اعتدت علي الهيئة بإصدار أمر عسكري بحلها، وهو الجانب الذي يملك كل وسائل الدعاية من الصحف الخاضعة للرقابة كل الخضوع، ومن الإذاعة التي تديرها وتهيمن عليها القلة، ومن الخطباء في المساجد الذين هم موظفون حكوميون. لكن الرأي العام لم يسمع من الطرف الآخر، لم يسمع من الإخوان الذين حرموا كل وسائل الدفاع عن أنفسهم فصودرت صحفهم وقصفت أقلامهم، وكممت أفواههم، واعتقل كل خطيب لهم، واعتبر اجتماع كل خمسة منهم في أي مكان جريمة، أقل عقوبة لها السجن ستة أشهر. ولهذا كان من الواجب أن نتقدم بهذا البيان للرأي العام المصري والعربي والإسلامي وللضمير الإنساني العالمي حتي لا يقع فى خطأ ما، ويظلم فى الحكم ويحكم بسماع خصم واحد، وقد قيل : إذا جاءك خصم وعينه مقلوعة فلا تحكم له حتي تري خصمه فقد تكون عيناه الاثنتان مقلوعتين»(٣٨)

أما الأسلحة فقد كرر الشيخ مقولة أنها «للمجاهدين من الإخوان المسلمين والفلسطينيين والهيئة العربية العليا الفلسطينية والحكومة نفسها تعرف ذلك».

واتهم البنا الحكومة أنها أصدرت قرار حل الجماعة تحت ضغط مذكرة ثلاثية تقدمت بها كل من بريطانيا وفرنسا وأمريكا بعد اجتماع لمثليها الدبلوماسيين بفايد في ٦ ديسمبر ١٩٤٨. وطالبت المذكرة بحل الجماعة.

وبعد أن سرد البنا أسباباً عديدة أخرى منها ستر الفشل في فلسطين والإعداد لمفاوضات جديدة مع الإنجليز عاد ليركز على ما أسماه بالأصابع الخفية والدسائس «من ذوي الغايات الذين خاصموا الدعوة من أول يوم وتربصوا بها كاليهودية العالمية والشيوعية الدولية و الاستعمار وأنصار الإلحاد والإباحية».

وفي ختام «القول الفصل» قال البنا «وسنجاهد في سبيل حقنا ما وسعنا الجهاد فإن

أعوزتنا الحياة الشريفة العزيزة فلن يعوزنا الموت الكريم المجيد».

لكن «القول الفصل» بقي مخطوطا ولم ير النور إلا بعد وفاة الشيخ.

قلنا أن الشيخ قد لجأ إلى الوساطة، والصحيح أنه قد وقع فى مصيدة الوساطة، لقد استدرجوه خطوة خطوة، ليقدم تنازلا أثر تنازل وفي النهاية أغتالوه.

وقد رفض عبد الهادي مقابلة الشيخ، ثم أحال الأمر إلى إثنين من أخلص أعوانه ليراوغا الشيخ ويستدرجاه أولا إلى مصيدة التصفية السياسية.

ولنلق نظرة على الصائدين.. ثم على المصيدة.

- الصائدان : مصطفي بك مرعي وزكي باشا علي.

- المصيدة : استدراج الشيخ إلى إصدار بيانات واتخاذ مواقف تدمر سمعته السياسية وتظهره بمظهر الضعيف أمام أتباعه وجماهيره، وتؤدي إلى تدمير معنويات الإخوان المحتجزين ثم في النهاية تصفيته جسدياً بعد أن يصفي سياسياً.

يقول المدعي نائب الأحكام أثناء محاكمة إبراهيم عبدالهادي أمام محكمة الثورة بتهم من بينها تدبير اغتيال حسن البنا:

«ولم يكن المتهم (عبد الهادي) مطمئناً إلى أنه بما أجراه من اعتقالات ومن عزل المجني عليه (حسن البنا) عن أنصاره عزلا تاماً، بل ساوره الاعتقاد باحتمال أن يكون لفريسته أنصار آخرين لم يتيسر لرجاله الكشف عنهم، ومن ثم فقد دس عليه بعض وزرائه فى صورة من يفاوضونه لإعادة جماعته سيرتها الأولى في مقابل أن يكشف له عن كل رجالها توطئة لاعتقالهم. فلما لم يؤد هذا البحث إلى إثبات و جود أنصار آخرين للمجني عليه إطمأن المتهم إلى أن الفرصة واتته ليجهز على فريسته وهي مجردة من كل نصير»(٣٩)

لكن كيف كانت تجري المفاوضات بين «الصائد» و«الصيد».. وكيف كان الشيخ المقصوص الأجنحة يجر جراً إلى المصيدة؟.

ولنستمع إلى شهادة أقرب المقربين إلى حسن البنا، «أخو خديجة» كما أسماه يوما ما، صهره عبدالكريم منصور، إنه يستخدم نفس التعبير- بل لعلنا إستعرناه منه- «.. وعلاوة على ذلك استخدمت الحكومة الأستاذ مصطفي مرعي كأداة صيد، لأن مصطفي مرعي إتصل بصالح حرب وقال له أنا عاوز أفاوض الإمام الشهيد، وأخذ الأستاذ مصطفي مرعي بأساليب ملتوية ممقوتة يعمل علي إبقاء الإمام الشهيد بالقاهرة موهما إياه بأسلوب بهلواني بأن الحكومة ستلغي أمر الحل وتتصالح مع الإخوان وتعود الأمور إلي ما كانت عليه».

ويسـأله رئيس المحكمة : قلت فى كلامك أنه اتبع طرق ملتوية، فأيه الطرق الملتوية دي؟

ويجيب الشـاهد: «أيوه حاقول لكم يا أفندم، هو كان بيوهم الإمام الشـهيد أنهم جادون في أن يعيـدوا الإخـوان المسلمون، ولكنه كـان بيقـول له بس لو سمـحت تكتب لي بيان يثبت حسن نيتكم، وكان مصطفي مرعي يقول ألفاظ للأمام الشـهيد، وكان الأمـام الشـهيد يعارض فـي ألفاظ ملتوية كان يكتبها أو يمليها مصطفي مرعي فيقوم يقول له : دي مسـألة بسيطة إذا كان ده ثمن إعادة الإخـوان، وإذا كان ثمن التفـاهم مع الحكومـة فـإيه المانع من كتابته؟ وبمجرد مـا كتب هذا البيان أخذه مصطفي مرعي وأعطاه لرئيس الحكومة وعدل فيه وجابه للإمام الشـهيد وقعد يقول له اللفظ ده يدخل واللفظ ده لا يدخل. وهكذا قـعد يعـدل في البيـان. وبعـد ذلك بمجـرد مـا أخذ البيان منه أعطاه لقاتل النقراشي، وقال له شوف الشيخ حسن البنا أهو أصدر بيـان ضدك وقعد يسـتثـير به المتـهم القاتل وكـان من نتيجـة هذا الأسلوب الذي إتخـذه مـصطفي مرعي أن قـاتل النقراشي قعد يتكلم كلام كثير وأصبح أداة مطواعة فى يد التحقيق يقول مـا يمليه عليـه المحقق ورجال البوليس السياسي»(٤٠)

وهكذا فـعندمـا يتـردي السـيـاسـي في هاوية التنازلات.. فـلا عـاصـم. ويوقـع البنا بيـاناً بعنوان «بيـان للناس» استنكر فيـه الشيخ أعمال رجاله ورفاق طريقـه ودمغـها بالإرهـاب والـخـروج على تعاليم الإسلام.

وكـان البنـا يلح على ضـرورة الإفـراج عن بعض رجـالـه مـعلنـاً أنه «لا يسـتطيع أن ينكر الأخطاء التـي ارتكبـهـا الإخـوان وأنهـا قد هـزته إلى درجـة أنـه هو نفسـه قد شـعـر بضـرورة حل الجمـاعـة»(٤١). وقـال أن التـحكم في سـيـر الأحـداث يـحتـاج إلى رجـال معينـين يمكن للشـيخ من خـلالهم السيطرة على الموقف. لكن عبدالهـادي لم يـقتنع بمنطق الشـيخ ولم يكتف بالبـيـان الذي أصـدره، وأخـذ مـصطفي مـرعي يلح علي ضـرورة تسـليم مـحطة الإذاعـة السـرية للإخـوان وكل مـا بقي لدي الإخوان من أسلحة(٤٢).

وبعـد يومين من صـدور «بيـان للناس» قـبض علي أحـد قـادة الجـهـاز السـري وهـو يـحـاول نسف مـحكمـة اسـتـئناف مـصـر، ولنتـرك الـحـديث للشـاهد الأول في قـضـيـة اغتـيـال البنا «مـحـمـد يوسف الليـثي» والذي كـان فى هذا الـوقت واحـداً من القـلائل الذين يلتـقـون حـسن البنا، وهـو أيضـا الذي حضـر سـاعة اغتياله، ويقـول الشـاهد «.. وحـصـل حـادث نسـف مـحكمـة الاسـتـئناف وأنا قـابلت الشـيخ البنا ، وكان متـأثراً جداً من هذا الـحـادث، وكـان معتقداً أن الإخـوان مش هم اللي عملوا الحادث، ولما عرف أنهم هم اللي عملوا الحادث زعل خالص وبكي وقال أنه لا تهمـه الحكومة وإنما يهمـه الشـعب الذي يصـدق إن الإخوان المسـلمين إرهابيون، وقال أنه استـعجب كيف حصـل هذا الحـادث، وحصلت بعـد كده مفـاوضـات بينه وبين مـصطفي مـرعـي بخـصـوص

المعتقلين، وصالح حرب باشا إتصل بمرعي بيه علشان يجتمعوا بالشيخ البنا. وتفاهموا، ومرعي بيه قال للشيخ البنا تعمل بيان كما قلت لك في الأول وأنت رفضت. لازم تعمل بيان. واتفاهموا علي إصدار بيان بعنوان «ليسوا أخوانا وليسوا مسلمين» ثم إستمرت الاتصالات» (٤٣)

وهكذا وعندما يدخل الصيد إلى المصيدة تصبح التصرفات غير مسحوبة، ولنقرأ ما خطه الشيخ البنا بيده :

«ليسوا أخواناً وليسوا مسلمين».

«وقع هذا الحادث الجديد، حادث محاولة نسف مكتب سعادة النائب العام. وذكرت الجرائد أن مرتكبه من الإخوان المسلمين فشعرت بأن من الواجب أن أعلن أن مرتكب هذا الجرم الفظيع وأمثاله من الجرائم لا يمكن أن يكون من الإخوان، ولا من المسلمين. لأن الإسلام يحرمها والإخوة تأباها وترفضها.

ومن المرجح بل من المحقق أنه أراد به أن يتحدى الكلمة التي نشرت قبل ذلك بيومين تحت عنوان «بيان للناس» ولكن مصر الآمنة لن تروعها هذه المحاولات الأثيمة. وسيتعاون هذا الشعب الحليم الفطرة مع حكومته الحريصة على أمنه وطمأنينته في ظل جلالة الملك المعظم على القضاء علي هذه الظاهرة الخطيرة.

وليعلم أولئك الصغار من العابثين أن خطابات التهديد التي يبعثون بها إلى كبار الرجال وغيرهم لن تزيد أحداً منهم إلا شعوراً بواجبه وحرصاً تاماً على أدائه. فليقلعوا عن هذه السفاسف ولينصرفو ا إلى خدمة بلادهم كل من حدود عمله، إن كانوا يستطيعون عمل شيء نافع مفيد.

وأني لأعلن أنني منذ اليوم سأعتبر أي حادث من هذه الحوادث يقع من أي فرد سبق له إتصال بجماعة الإخوان موجهاً إلى شخصي، ولا يسعني إزاءه إلا أن أقدم نفسي للقصاص وأطلب إلى جهات الاختصاص تجريدي من جنسيتي المصرية التي لا يستحقها إلا الشرفاء الأبرياء، فليتدبر ذلك من يسمعون ويطيعون، وسيكشف التحقيق ولا شك عن الأصيل والدخيل. ولله عاقبه الأمور.

«حسن البنا»

وهكذا إمتص المفاوضون البرتقالة إلي آخر قطرة.

لكننا نعود فنتذكر رغم هذه الكلمات الدامية والباكية أن واحداً من أخلص المقربين الأستاذ البنا هو «صلاح شادي» أشار فى مذكراته «حصاد العمر» وبعبارات رقيقه إلى ما

يوحي بأن هذه المحاولة قد تمت بموافقة المرشد بهدف تدمير الوثائق المضبوطه في سيارة الجيب.

وعلي أي حال فقد كان الشيخ الذي في قفص حريته يعاني أكثر من رجاله فى السجن. ويتعرض لضغوط مريرة عنيفة..آلاف الأسر بلا عائل، وإخوانه فى السجن، وهو بلا حول ولا طول.

وبيانه الأول أثار إستياء أعضاء الجماعة بالسجون ويقال أنهم وجهوا له رسالة يقولون فيها أنهم يعتقدون «أن البيان مدسوس فإن كان صحيحاً فإن يوم الحساب آت بعد الإفراج عنا»(٤٤)

الرجل بين فكي كسارة البندق سجين ضغوط خصومه، وضغوط رجاله، لكنه لا يملك من أمر نفسه شيئاً.

وماذا يبقي من الشيخ.

رجاله في السجون يبعثون له يهددونه، وهو يتهم أخلص خلصائه.. الذين أقسموا له على المصحف والمسدس يمين الطاعة التامة فى المنشط والمكره.. يتهم «رهبان الليل وفرسان النهار» بأنهم «ليسوا إخواناً وليسوا مسلمين».

بل ويتردي إلى مديح الحكومة التي تعذب رجاله أشد العذاب ويقول أنها حريصة على أمن الشعب وطمأنينته «في ظل جلالة الملك المعظم».. بل ويحرض الشعب على التعاون مع الحكومة «للقضاء علي هذه الظاهرة الخطيرة».

«رهبان الليل وفرسان النهار» أصبحوا فى آخر بيان الشيخ «أولئك من العابثين» وجهادهم أصبح «سفاسف».

ولا يبقي للشيخ ما يقوله سوي «إنه سيطلب تجريده من جنسيته المصرية التي لا يستحقها إلا الشرفاء الأبرياء».

وكان الوحيد من أصدقاء الماضى الذي يقبل أن يستقبله فى مكتبه الأستاذ «فتحي رضوان»، فقد طلب المرشد المهيص الجناح أن يعتزل فى عزبة الشيخ عبد الله النبراوي بقليوب فاعتقل البوليس الشيخ النبراوي وقد تجازو الثمانين من العمر، ثم طلب السفر إلى أسوان ليقيم عند صالح باشا حرب فرفض الأمن طلبه فسأل الأستاذ فتحي رضوان ماذا يفعل؟ وينقل الأستاذ محسن محمد الحوار:

«- البنا : ماذا أفعل؟

– رضـوان: يا سيدي أرجو أن تصـدقني إذا قلت لك أن الحكومـة والملك لا يطيقـان مجرد وجودك ووجود جماعتك في الدنيا٠

البنا: إذن ما العمل؟ هل أسلم بالأمر الواقع وأرتضيه؟ ليتهم يعتقلونني ويريحونني٠

– رضوان: أري رأى العين ما يدبر لك فهم ينتظرون أن تتاح لهم فرصة اقتناصك ٠

– البنا: وبماذا تنصحني؟

– رضـوان: لا تتـرك منزلك، أو أي مكان يمكنك أن تأوي إليـه فـلا تخـرج منه أبداً، حـتي يقضي الله أمراً كان مفعولاً٠ وقد يتبدل الحال٠

– البنا: وهل ينجي هذا الحذر من القدر؟

– رضوان : مطلقاً٠

– البنا: وما الفائدة إذن؟

– رضـوان : الفـائدة ألا تشـغل نفسـك بما لا نفع فـيـه ولا جـدوي منه ولا تسـمـع لرسل السلطة الذين يعبثون بك٠٠» (٤٥)

لكن المرشـد المسكين لم يزل يلح٠ ويكتب إلى رئيس الوزراء راجـيـا أن يسـمـح لمصطفي مرعي بمقابلته لعلهما يجدان حلا٠ ولا يرد رئيس الوزراء٠ الشيخ المناور القادر علي أن يتلاعب بالجميع إنتهي ليتلاعب به الصغار وهو مستسلم مهيض الجناح، كسير النفس٠

ثم كانت النهاية٠٠

قرر القتلة أن يطلقوا الرصاص على جثته٠

سـحبوا الحراسة المحيطة به، واستدرجوه إلى جلسة مفاوضات أخرى أو أخيرة، وأطلقوا عليه الرصاص٠

ويبقي معلقاً للبحث الدقيق التاريخ الحقيقي لوفاة الإمام الشهيد المرشد العام الشيخ «حسن أحمد عبد الرحمن البنا الساعاتي»٠

هل هو يوم ١٢ فبراير(١٩٤٩٠ كما هو مثبت في شهادة الوفاة؟

أم هو يوم أصدر الشيخ بيانه «ليسوا إخواناً وليسوا مسلمين»؟

أم هو يوم أصدر «بيان للناس»؟

أم قبل ذلك بكثير، يوم سمح لنفسه أن يدخل ميدان السياسة من باب الموالاة للقصر ومخاصمة الشعب٠٠؟

وقد أثبت التحقيق أن المدبر الأساسي لمقتل الشيخ حسن البنا كان الملك فاروق.

وأكد الإخوان أنفسهم أكثر من مرة أن الشيخ «قد اغتيل في ١٢ فبراير ١٩٤٩ الموافق ١٤ ربيع ثاني سنة ١٣٦٨ هجرية يوم عيد ميلاد الملك السابق فاروق أحمد فؤاد فكان اغتياله هدية عيد ميلاد ملك جلب الدمار لشعبه»(٤٦).

بل لقد وصل الأمر بالجماعة إلى أنها طلبت رسمياً من المحكمة التي عقدت في أعقاب ثورة يوليو لمحاكمة قتلة الشيخ حسن البنا، تقديم متهمين جدد على رأسهم الملك السابق فاروق وذلك باعتباره محرضاً وفاعلاً أصلياً.

ولأن القاتل الحقيقي كان فاروق.. فإن الباحث لا يستطيع أن يكتم دهشته- بل ما هو أكثر من الدهشة- إذ يجد في سجل تشريفات قصر عابدين يوم ١٤ نوفمبر ١٩٥١، أسماء عديد من قادة الإخوان، أتوا إلى أبواب قصر الملك ليعربوا- مرة أخرى لقاتل شيخهم، ربما عن ولائهم، وربما عن نسيانهم لدم شهيدهم، والتوقيعات ذات دلالة.

- خليفة الشيخ البنا.. المرشد الجديد حسن إسماعيل الهضيبي.
- أقارب الشيخ البنا..شقيقة عبد الرحمن البنا عضو مكتب الإرشاد العام.
- وصهره عبدالحكيم عابدين سكرتير عام الجماعة.
- وأقرب المقربين إليه من رجاله :

- صالح عشماوي.
- عبد القادرعودة.
- حسين كمال الدين.
- محمد الغزالي.
- عبد العزيز كامل.

وكلهم أعضاء في مكتب الإرشاد العام.

وحتى السكرتير الخاص للإمام الشهيد وكاتم أسراره ورفيق رحلته الطويلة سعد الدين الوليلي أتوا به معهم ليوقع هو أيضا معرباً عن ولائه للملك فاروق!

وطوال رحلتنا مع هذه الدراسة. تراكمت علامات استفهام وعلامات تعجب كثيرة، وتكون علامة التعجب الأخيرة مثاراً لما هو أكثر من الدهشة.. وتساؤلا حول مدي وفاء هؤلاء الموقعين لذكري شيخهم وإمامهم ومرشدهم وشهيدهم.. وحول مدي صدق ما يصيغون من تراتيل الوفاء لشيخ نسوا ذكراه علي عتبات قصر قاتله!

أو هي دهشة معاكسة حول مدى صدق ما ساقوه من وفاء وولاء للملك، وحول مدي صدق كلمات المداهنة والرياء التي اعتاد الإخوان تقديمها لخصومهم دون تردد ٠٠ أنها المناورات الرديئة التي تقتاد السياسي في نهاية الأمر، إلى ما إقتادت إليه الأستاذ حسن البنا٠

الهوامش

(١) حسن البنا- دعوتنا في طور جديد- دار الكتب العربي بمصر (١٩٥٤)، ص ٣٠٠

(٢) فتحي غانم- رواية :الرجل الذي فقد ظله- الكتاب الثالث (ناجي)- سبتمبر ١٩٦٩- ص٣٠٠

(٣) طارق البشري : المرجع السابق، ص٢٦٠٠

(٤) لوجهة النظر المعادية لتحرك الإخوان في اليمن، راجع: الإخوان والإرهاب، القاهرة (١٩٥٥)، ص٤٢-٥١، ولوجهة نظر الإخوان راجع: محمد الغزالي، من هنا نعلم، الطبعة الرابعة، الذي يمجد الانقلاب كتحرك إسلامي ضد حكم الكهانة، ص ١٠٦٠ وراجع أيضاً: مجلة المباحث، ١٢-١٢-١٩٥٠٠

(٥) محمود عبدالحليم – المرجع السابق- ج١-ص ٤٠١٠

(٦) المرجع السابق- ص٤٠٢.

(٧) د. أحمد فايد الصائدي - المعارضة اليمنية- رسالة دكتوراه مقدمة لجامعة بون.

(٨) الإخوان المسلمون- ٣-٨-١٩٤٧.

(٩) السيد يوسف -المرجع السابق- ج٤ - ص١٨٩.

(١٠) مركز الدراسات والبحوث اليمني- ثورة ١٩٤٨.

(١١) أحمد حسن الشامي- رياح التغيير في اليمن -ص ١٦.

(١٢) د. أحمد فايد الصائدي- المرجع السابق- وراجع أيضا:

محسن محمد- المرجع السابق- ص ٢٢٩.

(١٣) الإخوان المسلمون (اليومية) ٢٠-١٠-١٩٤٧.

(١٤) محسن محمد- المرجع السابق- ص٢٣٣.

(١٥) آخر ساعة، ٢٤-١١-١٩٤٨.

(١٦) المصري -٢٠ ، ٢١، ٢٩ يوليو، ١، ٤ أغسطس ١٩٤٨.

(17) Resner, Lawrence - Eternal Stranger: The Pilght of Modern Jew from Bagdad to Casablanca. New York (1951)- p. 116.

(١٨) قضايا الإخوان - قضية سيارة الجيب: الحيثيات ونص الحكم- دار الفكر الإسلامي- القاهرة (١٩٥١).

(19) Mitchell- Ibid- P.64.

(٢٠) الدعوة، غرة ربيع الأول ١٣٩٧ (فبراير ١٩٧٧)- تصريح لسعد الدين الوليلي، السكرتير الخاص للشيخ حسن البنا بعنوان «ما هي الأسرار الحقيقية في قضية اغتيال الشيخ حسن البنا».

(٢١) حسن البنا، قول فصل.

(22) Mitchell- Ibid- P67.

(٢٣) المباحث، ٢٣-١-١٩٥١.

(25) Cahiers de L'orient Contemporaine- II (1949) P.42.

(26) Mitchell - Ibid- P.67.

(27) Mitchell - Ibid- P.78.

(٢٨) جرائم عصابة الإخوان- المرجع السابق، ص١٩٣٠

(٢٩) جرائم عصابة الإخوان- المرجع السابق- ص١٩٣٠

(٣٠) محكمة الشعب - الجزء الثاني- محاكمة حسن الهضيبي (شهادة منير الدلة) ص١٢٣٥- ١٢٣٧٠

(٣١) محضر تحقيق النيابة فى قضية مقتل حسن البنا(الجناية ١٠٧١-١٩٥٢) جلسة يوم ١٨ نوفمبر ١٩٥٣ - (شهادة السيدة منيرة عامر) ص ٢٥٩ وما بعدها٠

(٣٢) محكمة الشعب- الجزء الرابع- محاكمة محمود عبداللطيف (شهادة المستشار حسن الهضيبي)٠

(٣٣) محكمة الشعب- الجزء الثاني- محاكمة محمود عبد اللطيف - شهادة محمد عبد المعز محمد عبدالله) ص٣٧٦٠

(٣٤) المرجع السابق- شهادة محمود الحواتكي- ص ٢٥٤٠

(٣٥) محكمة الشعب - الجزء الثالث (شهادة د٠ خميس حميدة) ص٦٨٠٠

(٣٦) د٠ محمود جامع- وعرفت الإخوان- (٢٠٠٣) - ج٥٣٠

(٣٧) طبعت مرات بعنوان «قول فصل» وأخرى بعنوان «القول الفصل»٠

(٣٨) حسن البنا، قول فصل٠

(٣٩) محاكمات الثورة- الكتاب الأول (محاكمة إبراهيم عبدالهادي) ص١٨١٠

(٤٠) المرجع السابق- ص١٢٥٠

(٤١) موسي إسحاق الحسيني- المرجع السابق، ص ٣٦٠

(٤٢) جمال سليم - البوليس السياسي يحكم مصر- القاهرة للثقافة العربية (١٩٧٦) - ص١٩٩٠

(٤٣) محضر تحقيق النيابة في قضية مقتل حسن البنا(الجناية١٠٧١-١٩٥٢)- محضر أقوال محمد يوسف الليثي، ص٤٤٠٠

(44) Mitchell - Ibid- P.69.

(٤٥) محسن محمد - المرجع السابق- ص٤٨٧٠

(٤٦) الدعوة - غرة ربيع الأول ١٣٩٧ (فبراير ١٩٧٧) ، ص ٣٨٠

● ليست خاتمة

فهل تلد الثعابين إلا مثلها؟

ويمضى الزمن، تتغير الوجوه، أو تتغير ملامحها التى تواجهنا بها.

تتغير اللهجة، وربما تتغير الآنية، لكن الشراب المرير يبقى كما هو، ذات الشراب المرير.

وقادة الإخوان يدورون حول أنفسهم وحولنا، ويفعلونها كما فعلوها من قبل، يتصورون أن إخفاء الحقيقة والقول بغيرها هو طوق نجاة. ولقد يكون كذلك، ولكن مؤقتاً. فما لم تعد الجماعة النظرفى تاريخها الملوث بالدم ومغايرة الحقائق، والقائم على جذور تناور ولا تمل من المناورة، تدارى وتستمر فى المداراة، ستظل مؤهلة لأن تبقى محلاً للشك والتشكك فى كل ما تقول، بل ستظل دوماً مؤهلة لأن تفرز من تحت عباءتها مزيداً من الثعابين السامة، فماذا يمكن للثعابين أن تلد؟

فطالما لم تقم الجماعة بإعادة النظر فى جذورها الفقهية، وتنتقدها انتقاداً جاداً وجدياً ستظل – وعلى الدوام - مؤهلة مهما كانت نوايا قيادتها، أو خبايا الصراعات فى صفوفها، لأن تفرز مثل هذه الثعابين.

فماذا يمكن أن تنتظر من عضو يتلقن فى مناخ من الوجل والتأسلم «إن قتل أعداء الدعوة غيلة هو من شرائع الإسلام» وأن «للمسلم أن يكذب القول على عدوه حتى يتمكن منه فيقتله»، وأنه إذا الأمة أبت أن تستمع إلى ما يقولون «فكبلوا يديها بالقيود، وأثقلوا ظهرها بالحديد، فإن الكثيرين من هذه الأمة فى عيونهم قذى وفى آذانهم وقر».

ماذا تريد من عضو يوهم أو يتوهم أن ذلك كله وكثير من مثله هو من الإسلام، بل هو الإسلام ذاته؟

ولهذا ومع مضى الأيام نكتشف أن العباءة الإخوانية المظلمة تسرب لنا، أو تتسرب من تحتها ثعابين متأسلمة، تتمادى فى جهلها بحقيقة الإسلام، فتتأسلم وتفعل ما نعرفه، وما عانينا منه.

ويظل «الإخوان» على حالهم، يقدسون الماضى الملئ بالجرائم والملطخ بالدماء، يخوضون بحار المناورات التى ما أثمرت عليهم سوى وبالاً.. ويتمسكون بحبال الإنكار لما هو حقيقى،

وينطقون بما هو غير حقيقى، ويتصورون أن فى ذلك نجاة لهم من مقصلة التاريخ ومن عذاب الآخرة.

فالتوبة عن الذنوب ليست مجرد تطهير للذات لكنها صيانة لها من عثار المستقبل، بل هى «صدقة» تطهرهم من هذا العثار، وهذا الفقه المتأسلم الذى تمدد فتمددت آثاره، وأتت أجيال تراه كالإسلام، بل وترى أنه الإسلام ذاته، فيكون كل ما يرتكبونه من جرائم وآثام معلقاً فى أعناق هؤلاء المبتدعين، الذين قالوا ببدعة إن قتل أعداء «الدعوة» (التى هى جماعتهم) غيلة هو من شرائع الإسلام، والذين تستروا بالتأسلم ليحققوا أهدافاً سياسية. ناسين أن إقحام الدين وهو المعطى السماوى الكلى الصحة فى ميدان الصراعات السياسية، يضر بالدين وبالسياسة معاً. وأن «الدين تسليم بالإيمان، وأن الرأى تسليم بالخصومة، فمن جعل الدين رأياً فقد جعله خصومة، ومن جعل الرأى ديناً فقد جعله شريعة».

وهكذا فما لم تتطهر الجماعة من فقه خاطئ، فقه متأسلم يصب فى طاحونة أعداء الإسلام والمسلمين إذ يقرر معهم وربما لحسابهم أن الإسلام دين يقر الإرهاب، ويقول به، فسوف تظل ليس فقط مثاراً لشكوكنا ورفضنا، بل وتظل - أيضاً - عبئاً على الإسلام والمسلمين.

وربما كان من حقنا أن نقارن بين جماعة الإخوان بأجيالها المتعاقبة وبإصرارها المستمر والمستميت على التمسك بكل ما كان رغم كل ما أتى عليهم وعلينا بل وعلى الإسلام بسببه ونتيجة له، وبين شباب جماعة متأسلمة أخرى نشأت أيضاً من تحت عباءتهم وهى «الجماعة الإسلامية»، فهؤلاء راجعوا فقههم وقارنوه بصحيح الفقه، تأملوا فى تأسلمهم وناظروه بصحيح الإسلام ثم إمتلكوا نقد الذات، ونقد الفقه المتأسلم وقدموا فقهاً جديداً خالياً من هذا التأسلم المقيت.

فمن هو الأفضل عند الله وعند الإسلام وعند الوطن؟

ولأن التأسلم يتواصل فإنه يحتاج إلى «التقية» لتبريره أو تمريره، ويحتاج إلى مخادعة الآخرين، بل هم يخدعون أنفسهم، وإن اقتصر الأمر عليهم فلا بأس فليظلوا يخادعون ويخدعون ما شاء لهم ذلك، لكن الأمر متعلق بالدين وبالوطن وبمستقبله.. ولهذا تستمر هذه الكتابة.

* * *

ولأن الثعابين ومهما قدمت نفسها بغشاء أملس وناعم تبقى ثعابيناً. وتلد ثعابيناً – فهل لها أن تلد غير ذلك؟ –فإن الأقوال المموهة، والمعسولة، والمغلفة بتأسلم كاذب لا تغنيهم عن أفعال

وثمار مريرة.. بل وتزداد مرارة.

لنتذكر ونذكر الآخرين بأن بقاء الإخوان على نهجهم هذا وتمسكهم بفقههم المتأسلم لا يثمر ولن يثمر إلا إرهاباً وإرهابيين، ولن يأتى إلا بتأسلم ومتأسلمين.

نسرد الوقائع، ننسبها لأصحابها، ونكتفى بذلك، لأننا نعتقد أن هذا السرد ليس تذكاراً لما كان، وإنما إنذاراً بما سيكون، وليكون حافزاً لنا ولغيرنا لمواصلة الكتابة والبحث ليس لمواجهة جماعة نبتت كالعشب الضار فى التربة المصرية، وإنما إتقاءً لما قد يكون من شرور، وتقليماً لأظافر ما كان لنا أن نلهو عنها ونتركها حتى تستحيل نصالاً مسمومة.

نسرد الوقائع.. ونكتفى بالسرد:

● «أثناء موسم الحج سنة ١٩٦٨، أرسل سعيد رمضان شريطاً مسجلاً مع أحد الحجاج إلى أحمد سيف الإسلام حسن البنا، ولكن المصدر سلمه لمباحث أمن الدولة، وتبين من الشريط أن سعيد رمضان أرسل له أموالاً، وطلب منه الاتصال بمجموعة من الإخوان للعمل على إعادة إحياء التنظيم والاستعداد لأعمال أخرى سيكلف بها».

لواء فؤاد علام - الإخوان وأنا - ص ٢٦٢

● «بدأت معلوماتنا عن الشيخ عمر عبدالرحمن (أمير الجماعة الإسلامية، وأشهر فقهاء الإرهاب المتأسلم والأب الروحى لأسامة بن لادن) بدأت عام ١٩٦٨ بعد عودته من السعودية، ولقائه مع سعيد رمضان أكبر عناصر الإخوان بالخارج وصهر الأستاذ حسن البنا. وسلمه سعيد رمضان ٢٠ ألف دولار لتوصيلها لعبدالمنعم البساطى مسئول الإخوان فى الفيوم فى ذلك الوقت، ورئيس التنظيم السرى فى المنطقة. وعندما عاد الشيخ عمر اتصل بعبدالمنعم البساطى وأخبره أنه تسلم من سعيد رمضان مبلغ ١٥ ألف دولار واحتفظ لنفسه بالباقى.

لواء فؤاد علام - الإخوان وأنا - ص ٢٨٥

● أول محاولة لاغتيال عبدالناصر بعد النكسة قادها صقر سليمان أبوبكر مقاول من السويس، كان متعاطفاً مع الإخوان، وقام سعيد رمضان بتجنيده أثناء تأديته لفريضة الحج. واتصل صقر لدى عودته بإحدى مجموعات الإخوان فى السويس.. وقاموا بشراء متفجرات من حلوان.. ولكن أجهضت المحاولة.

لواء فؤاد علام - الإخوان وأنا - ص ٣٣٤

● «قام عضو جماعة الإخوان السيد سالم المقيم فى ألمانيا بتجنيد شاب مصرى مسيحى

سافر للتدريب هناك ويدعى س. أ. عبدالملك وأقنعه بأن النظام فى مصر فاشستى، وأغراه بسيارة مرسيدس هدية سينقلها إلى مصر وبداخلها بندقية مزودة بتيلسكوب ومخبأة بطريقة سرية، وزوده بمدفع منشورات دخل مصر لأول مرة وهو مثل صواريخ الاحتفالات، ويقوم بإطلاق نافورة من المنشورات على مساحة كيلو متر. ووصلت السيارة وبداخلها السلاح، وقام باستئجار غرفة فى فندق إفرست بميدان رمسيس إنتظاراً لوصول ركب الرئيس وإطلاق النيران عليه بالقرب من محطة كوبرى الليمون، واستعان المتهم باثنين من أصدقائه هما: «محمد السيد زارع ومحمد ابو الذهب».. وقبل ساعة الصفر قبض عليهم وقدموا للمحاكمة».

لواء فؤاد علام ـ الإخوان وأنا ـ ص ٣٣٤

● تردد اسم زينب الغزالى فى اعترافات صالح سرية (قائد تنظيم شباب محمد المسمى إعلامياً بالفنية العسكرية) وتحدد دورها بالضبط فى التنسيق بين جماعة الإخوان وصالح سرية. وقال صالح سرية إن زينب الغزالى اصطحبته لمقابلة المستشار حسن الهضيبى المرشد العام. واعترفت زينب الغزالى أنها أمدت «صالح سرية بمبلغ من المال قالت إنها لا تتذكره.. وقد أنكرت فى النيابة اعترافاتها وواجهتها النيابة بصالح سرية الذى تعرف عليها وواجهها بدورها، ولكن شهر العسل بين السادات والإخوان كان قد بدأ وأفلتت زينب الغزالى».

اللواء فؤاد علام ـ الإخوان وأنا ـ ص ٣٣٤

● «اتصل صالح سرية بالأخت زينب الغزالى، واستمر فى زيارتها، والتقى عندها بطلال الأنصارى، واتفقا على وجوب إقامة جماعة إسلامية تسعى من خلال الجهاد إلى تغيير النظام القائم، وإقامة نظام إسلامى.. وأصبح طلال الأنصارى أميراً للجماعة فى الإسكندرية».

المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية «ندوة الحركات الدينية المتطرفة» ١٩٨٢/٥/١٢ بحث بعنوان «قراءة فى تحقيقات قضيتى الفنية العسكرية.. إعداد: منى العرينى ـ عبدالفتاح عبدالنبى ـ محمد شومان» ص ٢٣٠.

● من المعلومات المهمة التى حصلت عليها بعد حادث المنصة أن الإخوان فى الخارج هم الذين مولوا الجماعات الإرهابية، وأكدت التحريات أن سالم عزام المسئول الإخوانى فى الخارج والذى كان يحمل عدة جوازات بينها جواز دبلوماسى لدولة عربية هو الذى مول العملية عن طريق ابن شقيقته أيمن الظواهرى وأمده بالأموال فى فترات متفاوتة حتى وصلت إلى مائة ألف دولار فى السنة.

اللواء فؤاد علام ـ الإخوان وأنا ـ ص ٣٣٤

● «أما نجوم الإخوان الذين انتشروا فى السبعينيات فقد لعبوا على الجميع، وأوهموا السادات بأنهم حلفاؤه واتصلوا من وراء ظهره بالجماعات المتطرفة وأمدوهم بالمال والدعم، وتم تكبيل مباحث أمن الدولة عن متابعة نشاطهم».

اللواء فؤاد علام - الإخوان وأنا - ص ٣٣٤

● «لو قرأ السادات سطراً واحداً من ملف مؤامرات الإخوان المسلمين لأراحنا واستراح، ولما كانت مصر وقعت فيما وقعت فيه، ولما راح هو ضحيته فيما بعد».

اللواء فؤاد علام - الإخوان وأنا - ص ٣٣٤

● ولد عبدالله عزام فى قرية سيلة الحارثية فى لواء جنين عام ١٩٤١، وانخرط فى صفوف جماعة الإخوان وهو دون الخامسة عشر من العمر، وشكل أول أسرة للإخوان فى قريته وهو لايزال طالباً فى الإعدادية. وكان للأستاذ حسن البنا تأثير كبير فى تكوين شخصيته، وكان يعتبر أن رسائل البنا تمثل منهاجاً وضع الأسس العامة للحركة الإسلامية فى كل زمان ومكان، ودأب على توزيع هذه الرسائل على شباب الإخوان وكان يدعوهم إلى حفظها. كما تأثر كثيراً بفكر سيد قطب وكان يحفظ مقولاته عن ظهر قلب.

عمل بعد ذلك معيداً بكلية الشريعة بالأردن، ثم عاد إلى مصر ليعد رسالة دكتوراة فى الأزهر، وعاش طوال فترة إعداد الدكتوراة مع آل قطب «حميدة ومحمد قطب» ومع مجموعات الإخوان الذين أفرج عنهم، ووثق علاقته بقيادات الإخوان. وبعد أن حصل على الدكتوراة فى الفقه عام ١٩٧٣ عاد إلى الأردن وفى ذهنه خطة إخوانية تتلخص فى أسلمة المجتمع عن طريق الجامعة. وبدأ فى تجنيد الطلاب إلى صفوف جماعة الإخوان، واتسع نشاطه إلى درجة أقلقت السلطات الأردنية فصدر قرار عسكرى عام ١٩٨٠ بفصله من الجامعة.

عبد الرحيم على - حلف الإرهاب - تنظيم القاعدة من عبدالله عزام إلى أيمن الظواهرى - ج ١ - ص ٢١

● توجه عبدالله عزام من الأردن إلى السعودية، حيث عمل بفضل نفوذ الإخوان هناك مدرساً بجامعة الملك عبدالعزيز بجدة عام ١٩٨١، وهناك التقى بكمال السنانيرى أحد رجال النظام الخاص فى جماعة الإخوان. والذى كان قد زار أفغانستان من قبل موفداً من قبل الجماعة للاطلاع على الوضع العام هناك وتحديد الدور الإخوانى، واتفق معه السنانيرى على الذهاب إلى أفغانستان للقيام بالدعوة، وباستقبال الشباب الوافد إلى هناك.

وفى مايو ١٩٨٦ أنشأ عزام أول معسكر لتدريب «المجاهدين» العرب داخل الأراضى

الأفغانية، وأطلق عليه «عرين الأسد» أو «المأسدة»، وكان هدفه تكوين قوة انتشار سريع مهمتها تقديم المساعدة القتالية لأية فئة مسلمة فى أى بقعة من العالم تضطهد من قبل قوة غاشمة.. ووضع القواعد الفقهية لذلك فى كتابه «الدفاع عن أراضى المسلمين أهم فروض الإيمان».

عبدالرحيم على ـ حلف الإرهاب ـ ص ١ ـ ص ٥.

ـ يقول أيمن الظواهرى «كان ذهابى إلى أفغانستان هذه البلاد البعيدة بترتيب قدرى، فقد بدأت صلتى بأفغانستان صيف عام ١٩٨٠ حينما كنت أعمل بصفة مؤقتة مكان أحد زملائى فى مستوصف السيدة زينب التابع للجمعية الإسلامية وهى إحدى أنشطة الإخوان المسلمين وفى أحد الليالى كلمنى مدير المستوصف ـ وهو من الإخوان المسلمين ـ عن رأيى فى السفر لباكستان للعمل فى المساعدة الجراحية للمهاجرين الأفغان، فوافقت على الفور إذ وجدت في هذا العرض فرصة ذهبية للتعرف على ميدان من ميادين الجهاد، التى يمكن أن تكون رافداً للجهاد وقاعدة فى مصر والعالم العربى، قلب العالم الإسلامى حيث تدور معركة الإسلام الأساسية».

أيمن الظواهرى ـ فرسان تحت راية النبى ـ نقلاً عن الإنترنت

وهكذا تمتد الخيوط العنكبوتية التى تتبدى وكأنها خيوط جهنمية التشابك.. ويطلق عليها الإخوان دوماً عند أى تحاسب أنها ترتيبات قدرية أو مصادفات.

● زينب الغزالى ـ صالح سرية ـ طلال الأنصارى ـ الفنية العسكرية

● عبدالله عزام ـ كمال السنانيرى ـ «المأسدة» أو «عرين الأسد» ـ أسامة بن لادن ـ القاعدة

● الإخوان ـ المستوصف الطبى للجمعية الإسلامية ـ أيمن الظواهرى ـ أفغانستان ـ تنظيم القاعدة.

● سالم عزام ـ أيمن الظواهرى ـ اغتيال السادات

أية مجموعة من المصادفات هذه؟

وهل يمكن لعاقل أن يصدق أنها جميعاً مصادفات؟

ولأننا لا نحب أن نحاكم الضمائر أو نتكلم دون دليل قطعى، فإنه يتوجب علينا، كما يتوجب على كل باحث أو كاتب أو مفكر أن يخوض البحث المدقق والعلمى والموضوعى عن هذه العباءة السوداء، العنكبوتية التشابك وعن علاقاتها بحالات الإرهاب المتأسلم هنا أو هناك.

ولهذا سيكون ثمة جزء ثالث، إن كانت ثمة بقية من أيام.

المراجع

● كتب باللغة العربية

- أبو الأعلي المودودي- الحجاب.
- نظرية الإسلام السياسية.
- أبو الحسن الندوي- كيف دخل العرب التاريخ.
- مذكرات سائح في الشرق العربي.
- إبراهيم قاعود- عمر التلمساني شاهداً علي العصر.
- أحمد أنس الحجاجي- الرجل الذي أشعل الثورة.
- رسالة من المريخ.
- روح وريحان
- أحمد حمروش- قصة ثورة ٢٣ يوليو.
- أحمد حسين - واحترقت القاهرة.
- أحمد حسن الشامي- رياح التغيير في اليمن.
- أحمد عادل كمال- النقط فوق الحروف.
- أحمد فايد الصائدي (دكتور) المعارضة اليمنية.
- أحمد نار- القتال في الإسال.
- إسماعيل أحمد شافعي- الإخوان المسلمون، دعوة الحق والإنقاذ - مقتطفات من

رسائل وخطب الإمام الشهيد.

- السيد محمد عشماوي (دكتور) - تاريخ الفكر السياسي المصري ١٩٤٥- ١٩٥٢.
- السيد يوسف - الأخوان المسلمون هل هي صحوة إسلامية؟ ستة أجزاء.
- آمال محمد كامل البيومي (دكتورة) - التيارات السياسية في مصر ١٩٤٥-١٩٥٢.
- أمين عز الدين- الطبقة العاملة المصرية منذ نشأتها حتى الآن.
- أنور الجندي- الإخوان المسلمون في ميزان الحق.
- عبد العزيز جاويش
- قائد الدعوة، حياة رجل وتاريخ مدرسة
- أنور السادت- أسرار الثورة المصرية.
- أنيس صايغ (دكتور) - الفكرة العربية في مصر.
- أيمن الظواهري - فرسان تحت راية النبي.
- ثورة اليمن - إصدارات مركز الدراسات والبحوث اليمنية.
- جمال الدين الأفغاني (الشيخ) - الرد علي الدهريين.
- خاطرات جمال الدين- أملاه علي محمود باشا المخزومي.
- جمال سليم - البوليس السياسي يحكم مصر.
- جمال الشرقاوى ـ حريق القاهرة.
- حسن البنا (الإمام الشهيد) - المأثورات.
- مذكرات الدعوة والداعية.
- قومية الإسلام.
- الرسائل الثلاث.
- رسالة المؤتمر الخامس.
- رسالة التعاليم.
- مجموعة رسائل الإمام الشهيد
- بين الأمس واليوم.

- المأثورات وورد الرابطة.

- تذكرة الداعي.

- دعوتنا في طور جديد.

- الإخوان المسلمون تحت راية القرآن.

- مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي.

- نحو النور.

- إلى أي شيء ندعو الناس؟

- رسالة الجهاد.

- القول الفصل.

- حسين فوزي النجار (دكتور) - الإسلام والسياسة.

- رشيد رضا (الشيخ) - كتاب الوحي

- الخلافة أو الإمامة العظمي.

- رضوان محمد رضوان- المأثورات.

- رفاعة الطهطاوي (الشيخ) - مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية

- رفعت السعيد (دكتور) - مصطفي النحاس- السياسي والزعيم ، المناضل.

- رؤوف شلبي (دكتور) - الشيخ حسن البنا ومدرسة الإخوان المسلمون.

- زكريا البيومي (دكتور) - الإخوان المسلمون والجماعات الإسلامية

- سامي الدهان - قدامي ومعاصرون

- سيد قطب- العدالة الاجتماعية في الإسلام

- الإسلام والسلام العالمي

- شبلي شميل- شرح مقالات بخنر الست حول نظرية داروين

- الحقيقة- فلسفة النشوء والارتقاء.

- مجموعة الكتابات- جزءان

- صلاح شادي- حصاد العمر.

- طارق البشري- الحركة السياسية في مصر ١٩٤- ١٩٥٢.
- عبد الباسط البنا- تاج الإسلام وملحمة الإمام.
- عبدالحكيم عابدين- البواكير (مجموعة شعرية).-
- عبد الخبير الخولي- قائد الدعوة الإسلامية، حسن البنا.
- عبد الرحمن الكو اكبي(الشيخ) - طبائع الاستبداد في مصارع الاستعباد.
- أم القرى.
- عبد العظيم رمضان(دكتور)- تطور الحركة الوطنية.
- عبد القادر عودة- الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه.
- عبد المجيد الباجوري- حسن البنا
- عبد المنعم عبد الرؤوف (اللواء) - أرغمت فاروق علي التنازل عن العرش.
عصام حسونه - ٢٣ يوليو وعبدالناصر.
- علي فهمي كامل- سيرة مصطفي كامل - ج١
- علي عبد الرازق (الشيخ)- الإسلام وأصول الحكم.
- علي الحديدي (دكتور)- عبد الله النديم.
- فتحي العسال- حسن البنا كما عرفته.
- فؤاد علام (اللواء) - الإخوان وأنا.
- كامل إسماعيل الشريف- الإخوان المسلمون في حرب فلسطين.
- كمال كيرة- محكمة الشعب.
- لطفي عثمان- قضية مقتل النقراشي باشا.
- لويس عوض (دكتور)- تاريخ الفكر المصري الحديث- جزءان.
- ليوناردو بايندر - الثورة العقائدية في الشرق الأوسط - تعريب خيري حماد.
- مارسيل كولومب- تطور مصر ١٩٢٤-١٩٥٠.
- محسن محمد- من قتل حسن البنا؟
- محمد التابعي - هؤلاء هم الإخوان.

- محمد جابر الأنصاري (دكتور) تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي.
- محمد حبيب أحمد- نهضة الشعوب الإسلامية في العصر الحديث.
- محمد حسن أحمد- الإخوان ا لمسلمون في الميزان.
- محمد شوقي زكي- الإخوان المسلمون والمجتمع المصري.
- محمد عبدالله السمان - الإسلام المصفي.
- محمد صبيح - مواقف حاسمة في تاريخ القومية العربية.
- محمد عبدالغني حسن -وعبد الله فكري .
- محمد لبيب البوهي- الإيمان والرجل.
- مع شهداء الإسلام.
- محمد فهمي الطماوي- المجاهدين.
- محمد محمد حسين(دكتور)- الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر- جزءان.
- محمد الغزالي (الشيخ)- من هنا نعلم.
- الإسلام المفتري عليه بين الشيوعيين والرأسماليين.
- الإسلام والاستبداد السياسي.
- محمود جامع (دكتور) - وعرفت الإخوان.
- محمود عبدالحليم- الإخوان المسلمون، أحداث صنعت التاريخ - رؤية من الداخل- ثلاثة أجزاء.
- محمود الصباغ- حقيقة النظام الخاص ودوره في دعوة الإخوان المسلمين.
- موسي أسحق الحسيني- الإخوان المسلمون كبري الحركات الإسلامية الحديثة.
- هادي العلوي- الاغتيال السياسي في الإسلام.
- ولي الدين يكن- المعلوم والمجهول - جزءان.
- التجاريب
- يونان لبيب رزق (دكتور) - الأحزاب المصرية قبل ثورة ١٩٥٢.

● **مذكرات**

- من مذكرات شيخ الإسلام الظواهري ، السياسة والأزهر.
- محمد حسين هيكل (دكتور) - مذكرات في السياسة المصرية- جزءان.

● **كتب تراثية**

- تفسير الخطيب الشربيني - جزءان.
- الفخر الرازي- التفاسير الكبري.

● **وثائق خاصة بجماعة الإخوان.**

- قانون النظام الأساسي لهيئة الإخوان المسلمون العامة.
- قانون النظام الأساسي لهيئة الإخو ان المسلمين وشعبها طبقا للتعديل الذي أقرته الجمعية العمومية باجتماعها غير العادي المنعقد في٣٠ يناير ١٩٤٨.
- نظام الأسر نشأته وأهدافه.
- مؤتمر طلبة الإخوان المسلمين- ١٣٥٧هـ.
- الأخوات المسلمات- الرسالة الأولي- ١٩٥١.
- البرنامج التثقيفي لجماعة الإخو ان المسلمين.
- تقرير عن النشاط الكشفي لجماعة الإخوان - إعداد عبد الغني عابدين- السكرتير العام لجمعية الكشافة المصرية ووكيل عام جوالة الإخوان المسلمين.
- قرارات الجمعية العمومية الجماعة الإخوان المسلمين ١٩٤٥.
- حتي يعلم الناس - كتيب أصدره قادة الإخوان في الأردن والعراق والسودان عام١٩٥٤.

● **وثائق وأوراق قضائية**

- دستور ١٩٢٣.
- القانون رقم ١٧ لسنة ١٩٣٨.
- محكمة الشعب- نصوص وقائع محاكمات جماعة الإخوان المسلمين (قضية محاولة اغيتال الرئيس جمال عبد الناصر) - ستة اجزاء.
- المذكرة التفسيرية للأمر العسكري رقم ٦٣ لسنة ١٩٤٨ بحل جماعة الإخوان المسلمين مقدمه من عبدالرحمن بن عمار وكيل وزير الداخلية.

- محضر تحقيق النيابة في القضية ٥١ لسنة ١٩٤٩ والخاصة بمقتل محمود فهمي النقراشي باشا.

- محضر تحقيق النيابة في قضية مقتل حسن البنا- الجناية ١٠٧١ لنسة ١٩٥١.

- مرافعة الاستاذ احمد حسين المحامي في قضية اغتيال محمود فهمي النقراشي باشا.

- قضايا الإخوان- قضية سيارة الجيب- الحيثيات ونص الحكم.

- جرائم عصابة الإخوان (كتاب وثائقي).

- رسالة خطية من خالد محيي الدين عضو مجلس الثورة إلي حضرة المحترم جمال عبد الناصر وكيل مجلس الثورة- مؤرخة في ١-٣-١٩٥٣.

F.o. -371-73474-13467 (1949)

F.O -371-23342-23343 (1939)

● دوريات

الأخبار - ١٩٠٩- ١٩٢٤- ١٩٧٣.

. الإخوان المسلمون- (الاسبوعية) ١٩٣٦ -١٩٣٨ -١٩٤٤- ١٩٤٥- ١٩٤٦.

- الإخوان المسلمون -(نصف شهرية) ١٩٤٢.

- الإخوان المسلمون -(اليومية) ١٩٤٨.

- آخر ساعة - ١٩٤٨ - ١٩٧٠.

- الإذاعة والتليفزيون - ١٩٧١.

- الأهرام - ١٩٣٠-١٩٣٧ -١٩٤٢.

- إسرائيل- ١٩٣١ - ١٩٣٢.

- البصير- ١٨٧٨.

- البلاغ - ١٩٣٧.

- الجماهير -١٩٤٧.

- الجمهورية - ١٩٥٤.

الدعوة – ١٩٥١ –١٩٥٢ –١٩٥٣ –١٩٥٤ – ١٩٧٧.

– الرسالة – ١٩٥٢.

– روزاليوسف– ١٩٧٧.

– شبرا – ١٩٣٨.

– الشباب– ١٩٤٧.

– صباح الخير– ١٩٧٧.

– عالم الإسلام– ١٩٤٧.

– الكاتب – ١٩٧٤.

– المباحث– ١٩٥٠– ١٩٥١.

– المسلمون – ١٩٥٣.

– المصري– ١٩٣٧ –١٩٤٨.

– المقتطف – ١٨٧٦

– مصر الفتاة ١٩٣٩.

– المصور– ١٩٥٢ – ١٩٥٤– ١٩٥٥.

– الهلال– ١٩٦٨– ١٩٧٣.

– الوفد المصري– ١٩٤٦.

● **كتب باللغات الأجنبية:**

- Adams- Islam Modernism in Egypt.

- Ahmed, J.- The intellectual orgins of Egyptians Nationalism.

- Badaoui, Zaki- Les Problems du travail et les organisations ouvriers.

- Beinin and Lockman- workers on the Nile.

- Berger, M.- The Arab world today.

- Blunt, W. - Secret History of Egypt.
- Gibb, W.A.R.- Modern trends in Islam.
- Harris, Christina- Nationalism and Revoution in Egypt, The Role of Muslim Brotherhood.
- Heyworth Dunne- Religions and Political trends in Egypt.
- Hourani, ALbert- Arabic thought in the libral age, 1789--1939.
- Kamel, M.- Egyptians et Anglais.
- Khadduri, R.- The Society of Mudlim Broghters.
- Peters, Donald- The Mouslem Brotherhood, Terrorists of Zealots.
- Resner, Lawrence - Eternal Sranger- The pilghts of Modern Jew from Bagdad to Casablanca.
- Safran, Nadad- Egypt in Search of Political Community.
- Smith, Welfren, Cantwell- Islam in Modern History.
- Vatikiotis - The Modern History of Egypt.
- Von Grunebaum- Modern Islam, The Search for Cultural Identity.
- Wheel Lock- Keith- Nasser new Egypt.

● دوريات باللغات الأجنبية :

- Cahiers de L'orient Contemporaine- 1949 II
- Middle East Jo urnal - July 1939.
- Monde non- Chrtien- June 1953.
- New Middle East - Januray - February 1975.